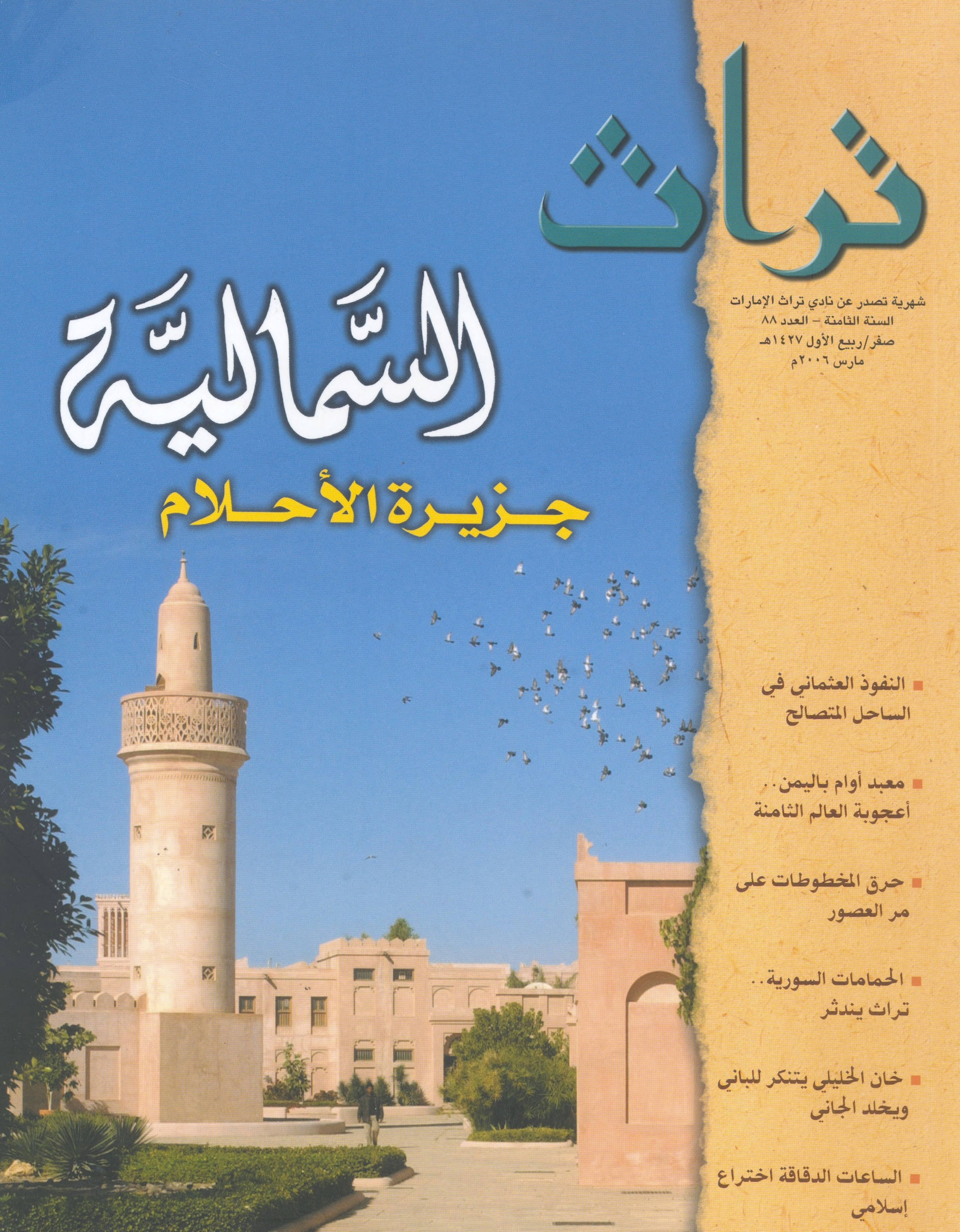


تراث
شهرية تصدر عن نادي تراث الإمارات
السنة الثامنة - العدد ٨٨
صفر/ربيع الأول ١٤٢٧هـ
مارس ٢٠٠٦م
السمالية
جزيرة الأحلام
النفوذ العثماني في الساحل المتصالح
معبد أوام باليمن.. أعجوبة العالم الثامنة
حرق المخطوطات على مر العصور
الحمامات السورية.. تراث يندثر
خان الخليلي يتنكر للباني ويخلد الجاني
الساعات الدقاقة اختراع إسلامي



صدر حديثاً

عن مركز زايد للتراث والتاريخ

تحفة الدهر

في نسب الأشراف بني بحر

ونسب من حقق نسبه وسيرته من أهل العصر

تأليف

محمد بن الطاهر بن أبي القاسم البحر

المتوفى سنة ١٠٨٣ م

تحقيق

عبد الله محمد الحبشي   حسني محمد دياب

مركز زايد للتراث والتاريخ



نادي تراث الإمارات

هاتف: ٤٤٥٦٤٥٦، فاكس: ٤٤٥١٤٤٤، ص.ب: ٤١٤٦٤، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة

أول القرطاس

تفاءلوا بالخير تجدوه.. لذلك أجد نفسي محاولاً أن أتفاءل إلى أقصى حدود التفاؤل حتى يكون المدد الثقافي الذي نرجوه في رحابة الأفق، وفي اتساع البحر، وفي عمق التاريخ، وفي رصانة التراث.

وأقول البعد الثقافي لأن حديثي منصب عليه، وما أجمل أن يرتبط البعد الثقافي بالبعد التراثي ليستمد منه الأصالة والعمق، وتترسخ مع كل حرف منه تقاليدنا وعاداتنا وقيمنا وتاريخنا، وأصولنا، ونبعنا الذي لا ينضب، وأقصد به اللغة العربية.

من حقنا أن نتفاءل بعد أن أصبح للثقافة وزارة تعنى بشؤونها، وتهتم بها، وزارة تخطط لها بعد أن كانت الجهود في هذا المجال اجتهادات، وبعد أن كانت الأفكار فيها أيديولوجيات، وبعد أن أصبح الأمر يتبع الهوى، ويتمحور حسب القناعات، وينصب في نهاية الأمر حسب المصالح والاتجاهات.

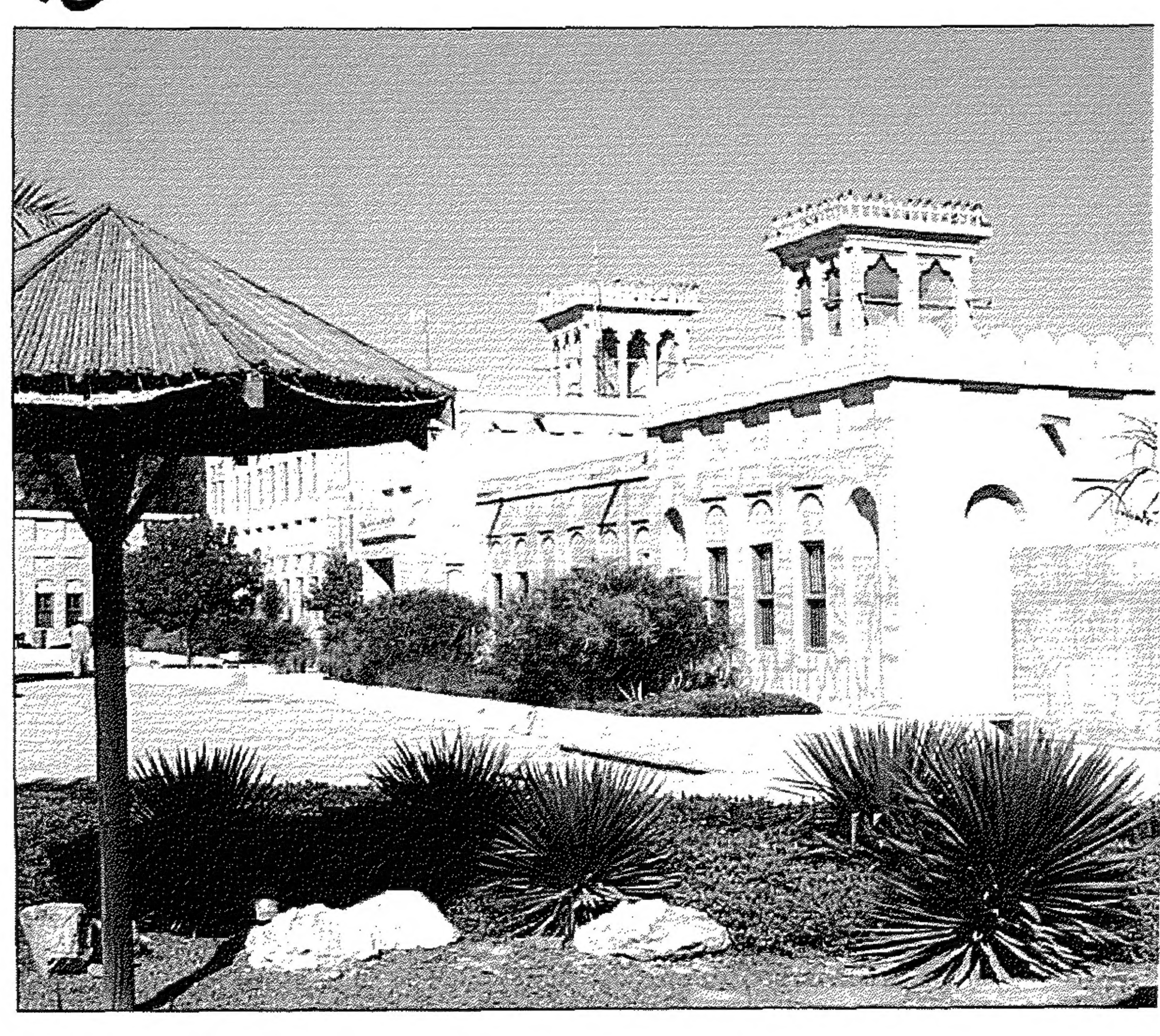
وأن تصبح الثقافة وفق المصالح فهذه هي الكارثة، وأن تتحكم فيها الأمزجة والأهواء والاتجاهات فهو الإفلاس بعينه، وأن نتركها بلا ضوابط أو خطط أو تقييم فهو امتداد لما هو واقع حالياً، طغيان مرير لثقافة الغرب، ولهث وراء ضبابية مشوهة بلا قيم ولا أخلاق، يحتضنها الجنس، ويدفعها الهوس، ويهيمن عليها العنف، فأي ثقافة تلك، وأي مستقبل ينتظر شباب الوطن في دهاليز هذه الثقافة؟.

نحن ننتظر من وزارة الثقافة الجديدة، الوزارة الأمل، أن تواجه السيل العنيف الذي بلغ الحد، وأن تسعى لكل عقل ولا تنتظر أن تسعى العقول إليها، لأنها لو فعلت ذلك فستقف على المحطة طويلاً في انتظار قطار لن يصل لأنه تجاوز تلك المحطة، عليها أن تلحق بالقطار، وهي تدرك ما هو مطلوب لأن الموجود مكشوف ومعروف للجميع ولا يتناسب مع ثقافتنا ولا مع توجهنا، ولا يخدم مصلحتنا ولا يبني مستقبلنا، فكيف نبني حضارة على ثقافة خربة وأساس مهترئ؟. إننا ندرك حجم التحديات التي تواجه وزارة الثقافة الجديدة، فهي مطالبة أن تتنفس بين ركام من الكتب الصفراء، أو أكوام من النفايات الفضائية التي اكتسحت العقول فلم تترك لها مجالاً لمجرد التفكير والتعبير عن الذات، والتوفيق بين هاتين العقبتين وإيجاد مسار بينهما يتطلب الكثير من التضحيات، وتصحيح المسارات، لكن الأمل موجود لوجود رغبة حقيقية في التخلص من تلك الأدران التي رانت على القلوب والعقول ردحاً من الزمن، فثقافتنا معروفة، وأصولها متواصلة حتى وإن جعل الغثاء صورتها ضبابية بعض الشيء، فالساعي إلى الصواب يصله مهما تشعبت الطرقات، والمجتهد في سبيل الحق يلقاه مهما تعاظمت التضحيات، والمتفائل بالخير.. يجده.. مهما ضاقت الحلقات. ■

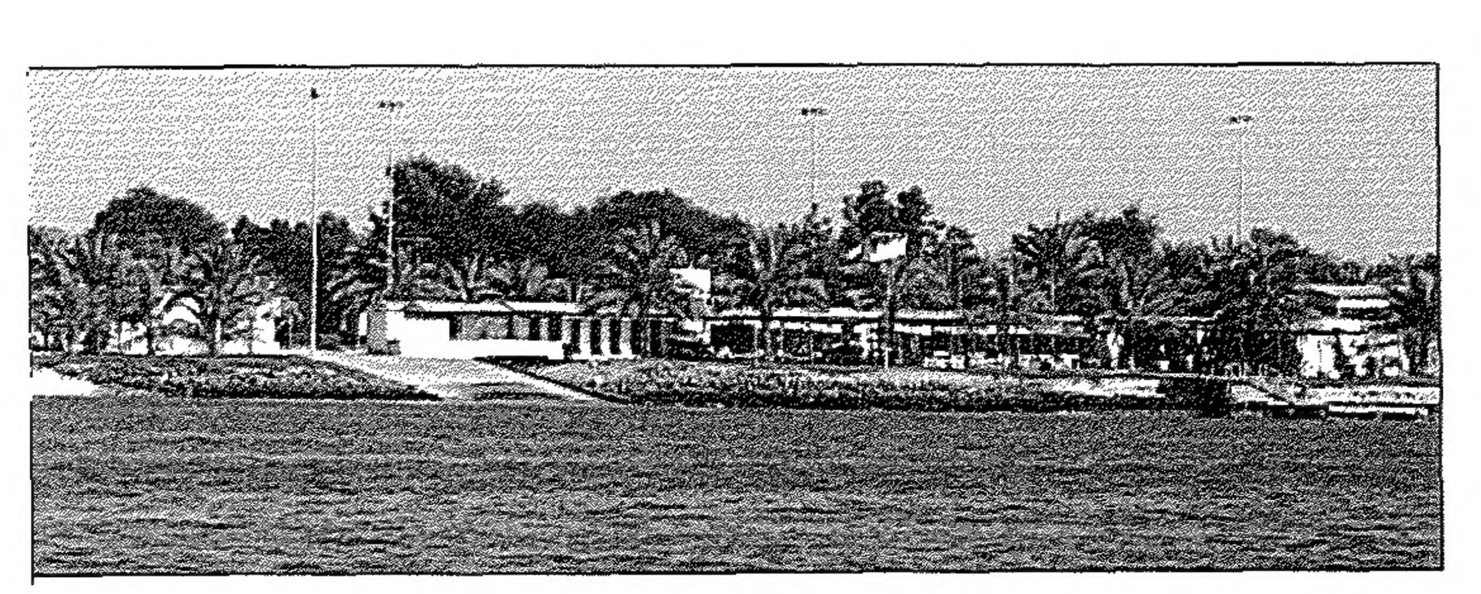


مُحتويات العدد

الغلاف:



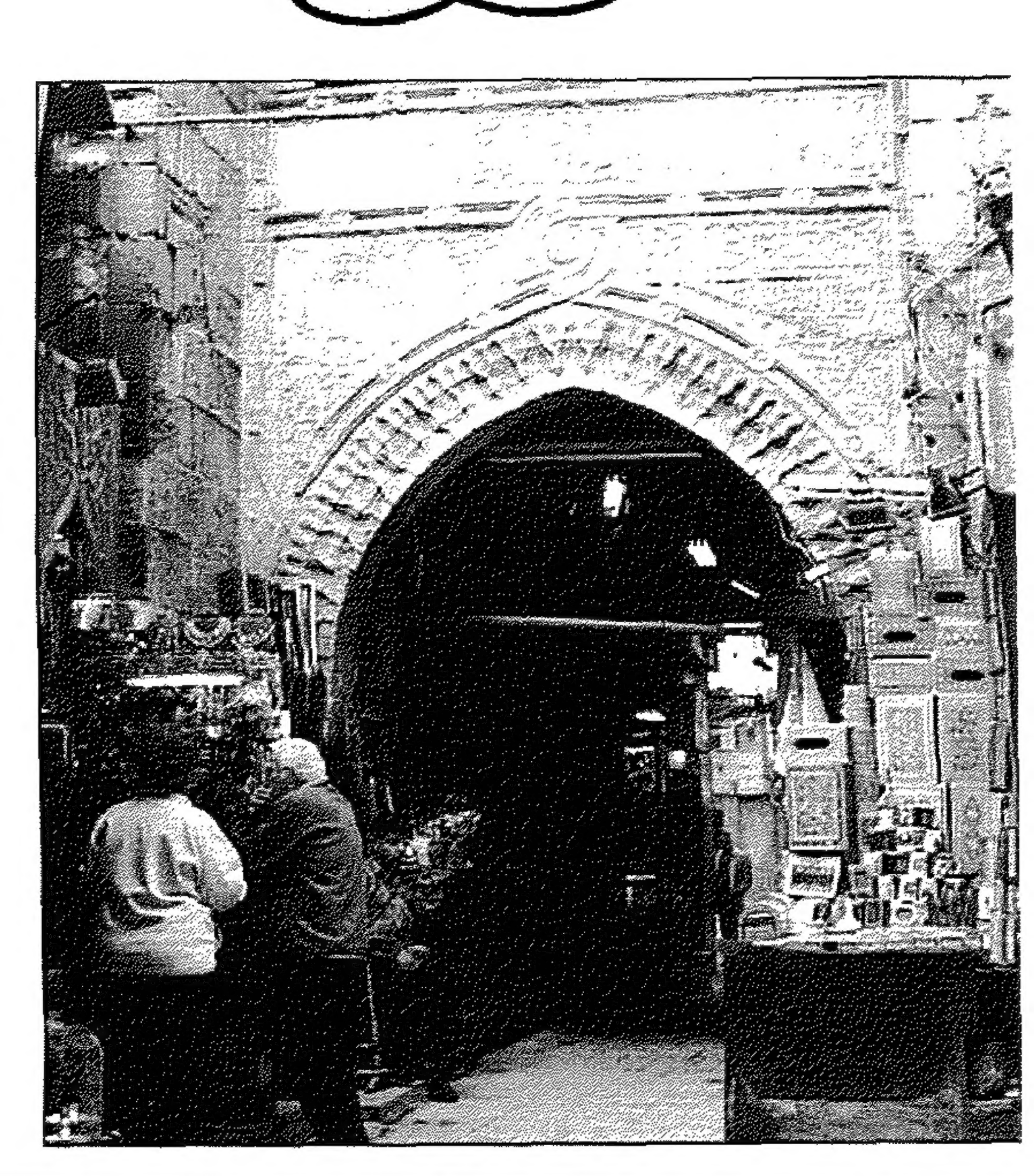
السماليـة
جزيرة الأحلام

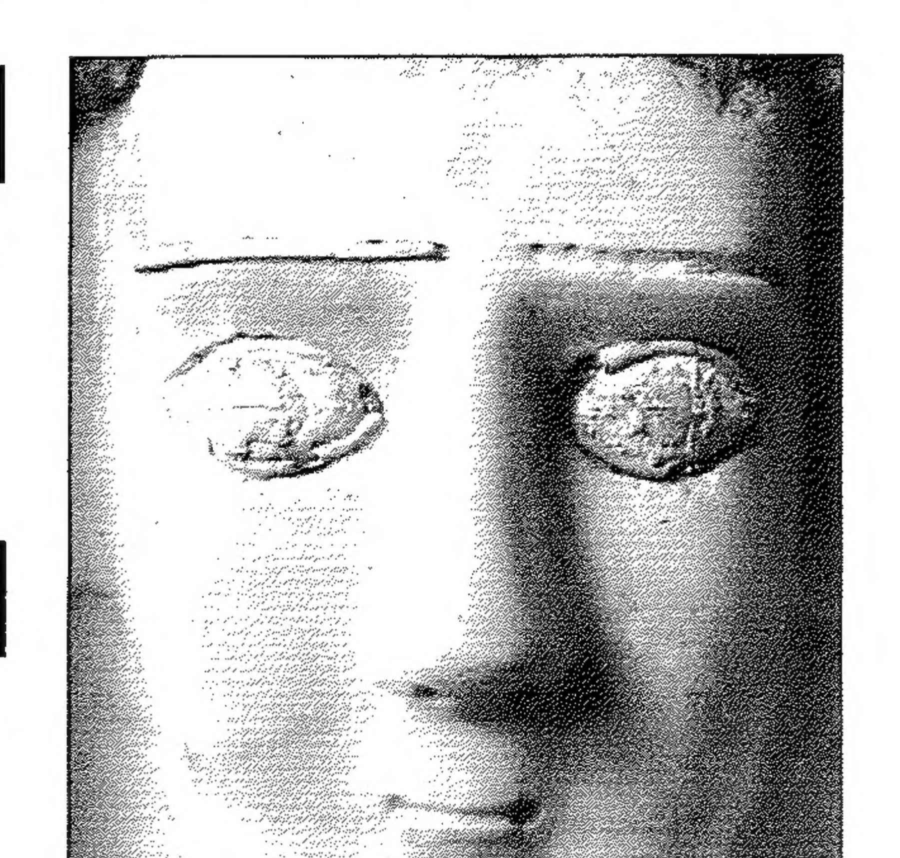


لغة وأدب

شخصيات

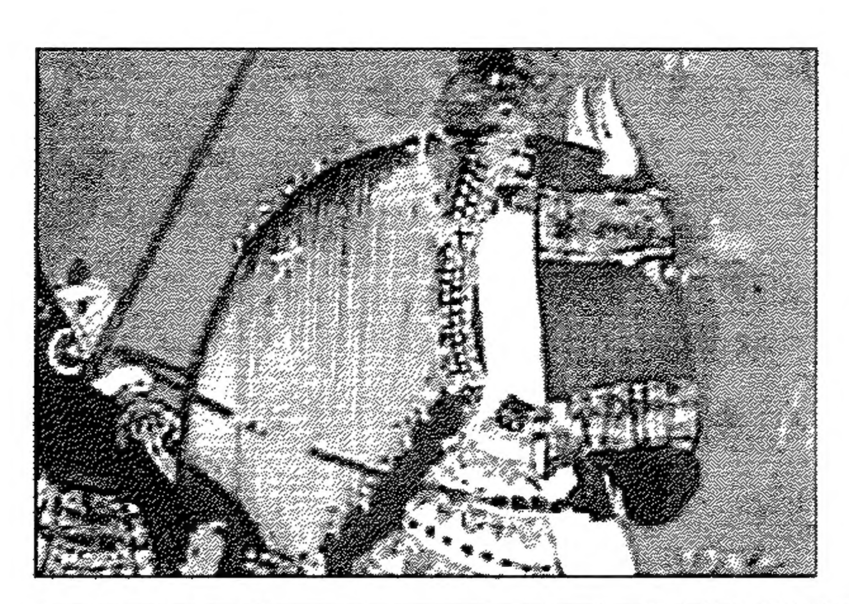
أبحاث ودراسات



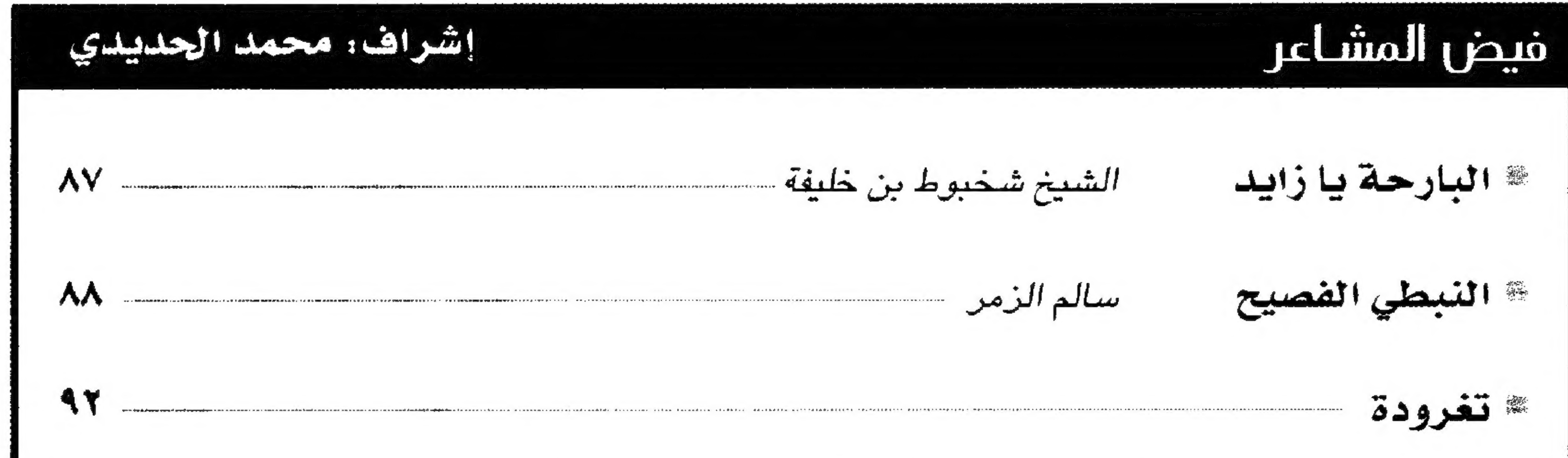


تحقيق

تراث



مقالات



فيض المشاعر

إشراف: محمد الحديدي

زوايا ثابتة

تراث

مجـلة شـهرية ثقافية منوعـة تصدر عن
نادي تراث الإمارات - العدد (٨٨) - السنة الثامنة
صفر / ربيع الأول ١٤٢٧هـ - مارس ٢٠٠٦م

رئيس التحرير
عـادل محمـد الـراشـد
adel_m_alrashed@hotmail.com

سكرتير التحرير
حـمـدي نـصـر
hamdi_nasr@yahoo.com

هيئة التحرير
حنفـي محمـود جـايـل
محمـود اسماعيـل بـدر
محمد رجب السامرائي

الإخراج والتنفيذ
مـأمـون السعـيـد
هـالـة شعبـان

المراسلات:
نادي تراث الإمارات، ص.ب: ٢٧٧٦٥ أبوظبي
الإمارات العربية المتحدة، هاتف: ٤٤٦٦١١٦
فاكس: ٤٤٣٠٨٨١ (٠٢)
بريد الكتروني
email: turathmag@yahoo.com

ثمن النسخة
الإمارات ٥ دراهم، قطر والسعودية ٥ ريالات
البحرين والكويت ٥٠٠ فلس، عُمان: ٥٠٠ بيسة
مصر: ٥ جنيهات، اليمن: ١٥٠ ريالاً
الأردن: دينار ونصف
الدول العربية دولار أمريكي واحد
أوروبا وأمريكا والدول الأجنبية ٢ دولار

مندوبو تراث:
■ القاهرة: عبد العال الباقوري
محمول: ٠٠٢-٠١٠-١٦١٠٢٠٩
■ الأردن: د. ثابت ملكاوي
محمول: ٠٠٩٦٢-٧٩-٥١١٨٨١٢
■ اليمن: محمد السيد
محمول: ٠٠٩٦٧-٧-٣٦٦-٤٦٩٦

الاشتراك السنوي (درهم)

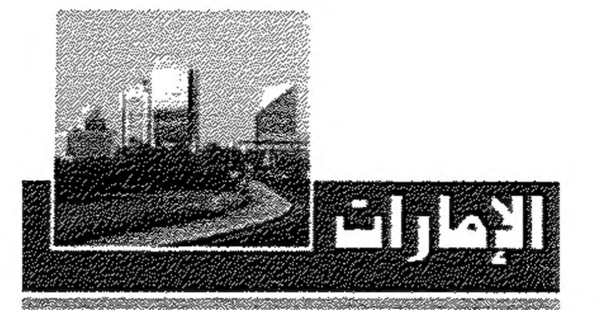
	محلياً	خليجياً	عربياً
أفراد	٨٥	٢٠٧	٢٧٩
مؤسسات	١٥٠	٢٦٧	٣٣٩

التجهيز الطباعي
قسم الإعلام - نادي تراث الإمارات

أهلاً بكـــم

ترحب مجلة «تراث» بمساهمات الكتاب والقراء والتي تتعلق بالتراث والتاريخ باعتبارهما الخط الأساسي للمجلة، موضحة أن المقالات التي يتم نشرها تعبّر عن وجهة نظر أصحابها وليس بالضرورة عن وجهة نظر المجلة.. ونحن نرحب بالمقالات والمساهمات وفق المعايير التالية:

- ■ أن تكون المقالات جديدة.. ومخصصة لمجلة تراث فقط.. ولم يسبق نشرها.. ومرفقة بصور حديثة وملونة للموضوع.
- ■ أن تكون المساهمات مطبوعة على الحاسب الآلي أو الآلة الطابعة على وجه واحد من الورقة.. مذيلة بالمراجع التي تم استقاء البحث منها، مع تخريج الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة.
- ■ زاوية «خزانة الكتب» التي يتم فيها استعراض الكتب القديمة أو الحديثة هي من اختصاص هيئة التحرير فقط.. ونعتذر عن عدم قبول أي مساهمات في هذا المجال.
- ■ التحقيقات والاستطلاعات واللقاءات مع كبار المفكرين والشخصيات هي من اختصاص هيئة التحرير، أو بطلب مباشر منها.
- ■ المقالات التي يتم الاعتذار عن عدم نشرها ليس بالضرورة لعدم جودتها، وإنما قد تكون المجلة سبق لها أن نشرت موضوعاً أو عدة موضوعات حول الفكرة نفسها ولا ترغب في المزيد أو منعاً للتكرار.
- ■ المجلة غير مسؤولة عن إعادة المقالات أو المساهمات - التي لم تنشر - إلى أصحابها.
- ■ قد يتأخر نشر بعض المساهمات نظراً لارتباطها بمناسبة معينة، أو لكثرة المساهمات التي تصل من السادة الكتّاب.
- ■ المساهمات أو المكاتبات التي تنشر في زاوية «رسائلكم وصلت» لا تخصص لأصحابها مكافآت مالية.
- ■ عند استلام المساهمة.. يتم إخطار الكاتب بوصولها موضحاً إن كانت تحت الدراسة أو الاعتذار عن عدم النشر، وفي حال النشر يتم إرسال نسخة من العدد المنشورة فيه للكاتب.
- ■ ترجو المجلة من السادة الكتّاب أن يوضحوا في ورقة منفصلة اسم الكاتب ثلاثياً على الأقل، وأرقام الهواتف أو الفاكسات أو البريد الإلكتروني والعنوان البريدي الذي يمكن الاتصال به عن طريقه، ورقم حسابه في البنك الذي يتعامل معه حتى يمكن إرسال المكافآت المالية بطريقة أسرع وأكثر سهولة. وفق النظام المالي المعمول به في المجلة.



جائزة عالمية باسم رئيس الدولة لأفضل جهد علمي في مجال نخيل التمر



معالي الشيخ نهيان بن مبارك يتفقد معرض التمور

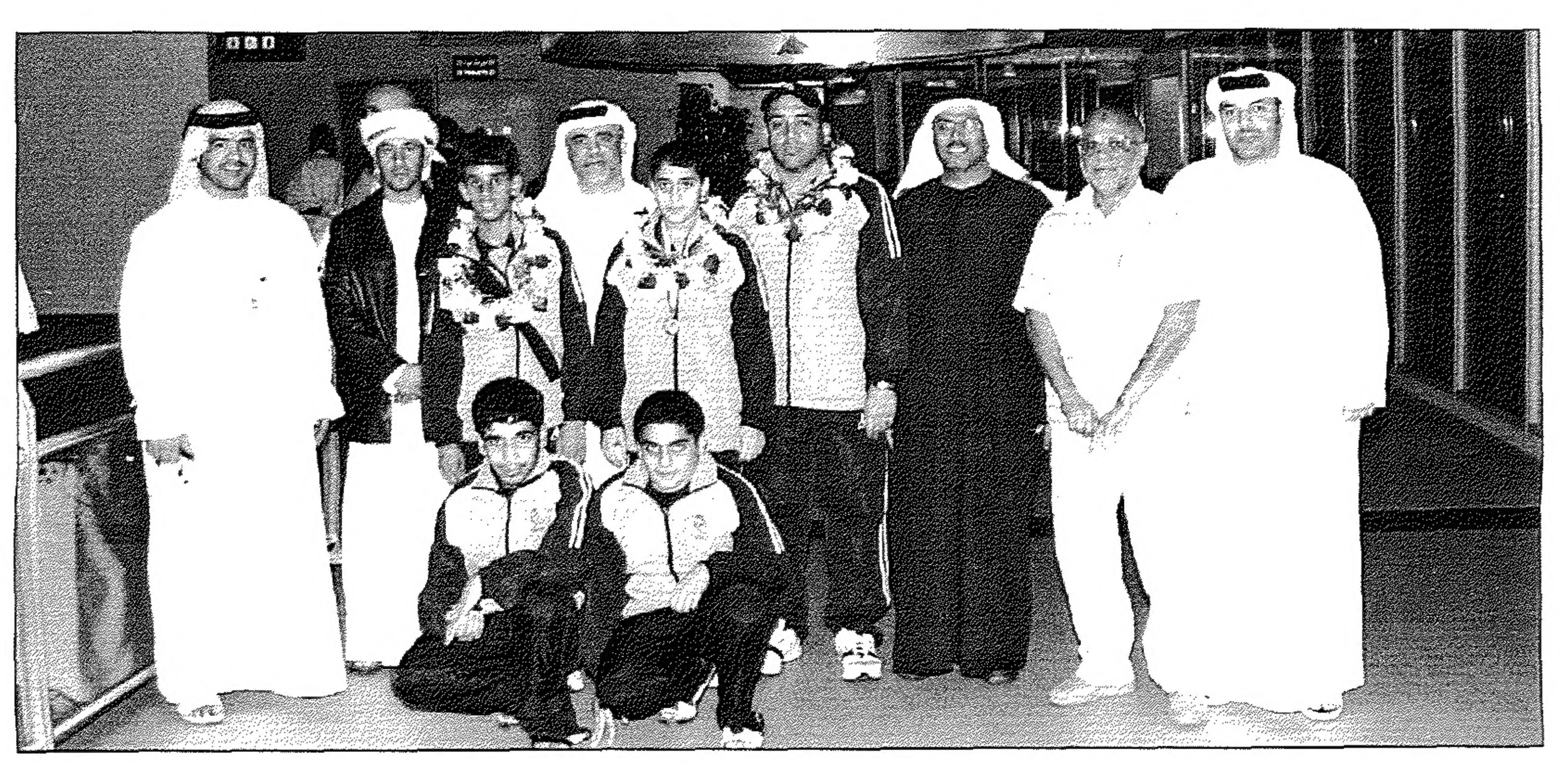
أوصى المؤتمر الدولي الثالث لنخيل التر الذي عقد اجتماعاته في أبوظبي نهاية الشهر الماضي تحت رعاية صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة - حفظه الله- بإنشاء جائزة عالمية باسم صاحب السمو رئيس الدولة لأفضل جهد علمي في مجال نخيل التمر، وتتولى الشبكة العالمية لنخيل التمر والتي تتخذ من جامعة الإمارات مقراً لها كافة الأمور التي تترتب على ذلك، كما أوصى بتكثيف التعاون العلمي والتقني بين مختلف الجهات المعنية بتنمية نخيل التمر وذلك بتبادل المعلومات والخبرات، وإطلاق حملة توعية شاملة للتعريف بتقنية زراعة الأنسجة النباتية والتقانة الحيوية، ودورهما في تنمية وتطوير نخيل التمر، وإجراء المزيد من البحوث والدراسات بغرض توفيرهما لكافة المزارعين في كافة أنحاء العالم، كما أوصى المؤتمر بإصدار مجلة علمية محكمة عن طريق الشبكة العالمية لنخيل التمر لنشر البحوث الخاصة بتنمية نخيل التمر.

وكان المؤتمر الذي عقد جلساته في فندق قصر الإمارات بأبوظبي واستمرثلاثة أيام، وشارك فيه أكثر من ٣٠٠ باحث من ٤٠ دولة عربية وأجنبية قد افتتح جلساته بكلمة لمعالي الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان وزير التعليم العالي والبحث العلمي التي أشاد فيها بجهود صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة- حفظه الله- في رعايته الكريمة لمسيرة التنمية في البلاد وتشجيع كافة الجهود الرامية إلى تحسين زراعة النخيل وتصنيعه، وأكد معاليه على أن تنمية النخيل في بلادنا تحتل أولوية خاصة على خارطة التنمية الزراعية والاقتصادية، وقال: لا ننسى أن ما نشاهده اليوم من مبادرات وإنجازات إنما هو ثمرة للجهود الهائلة التي قام بها المغفور له بإذن الله الوالد الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، حيث كانت توجيهاته ومتابعاته الحكيمة لتطوير هذا الحقل بمثابة قوة الدفع الكبيرة نحو تنميته وإثرائه.

المؤتمر نظمته جامعة الإمارات بالتعاون مع عدد من المنظمات الدولية والإقليمية والهيئات المحلية والحكومية والخاصة، وعقب افتتاحه تفقد معالي الشيخ نهيان بن مبارك معرض التمور الذي قدم أحدث منتجات التمور والأساليب العلمية والتقنية المستخدمة في زراعة وتطوير نخيل التمر. ■

الإمارات

إنجاز جديد لفريق السباحة بالنادي



البعثة عند عودتها إلى مطار أبوظبي

أكاليل الورود كانت في استقبال بعثة السباحة بنادي تراث الإمارات لدى عودتها من مشاركتها في بطولة جنيف الدولية للسباحة الـ ٣٩ التي أقيمت في سويسرا في آخر شهر يناير الماضي.

الورود أحاطت أعناق السباحين لتصنع مع الميداليات التي تقلدوها أغنية فرح للسباحين وإدارة الأنشطة وجميع منتسبي النادي.. لأن ما حققوه يعتبر إنجازاً دولياً يضاف إلى الإنجازات التي حققها السباحون في البطولات المحلية والدولية التي شاركوا فيها.. رغم صغر أعمارهم.

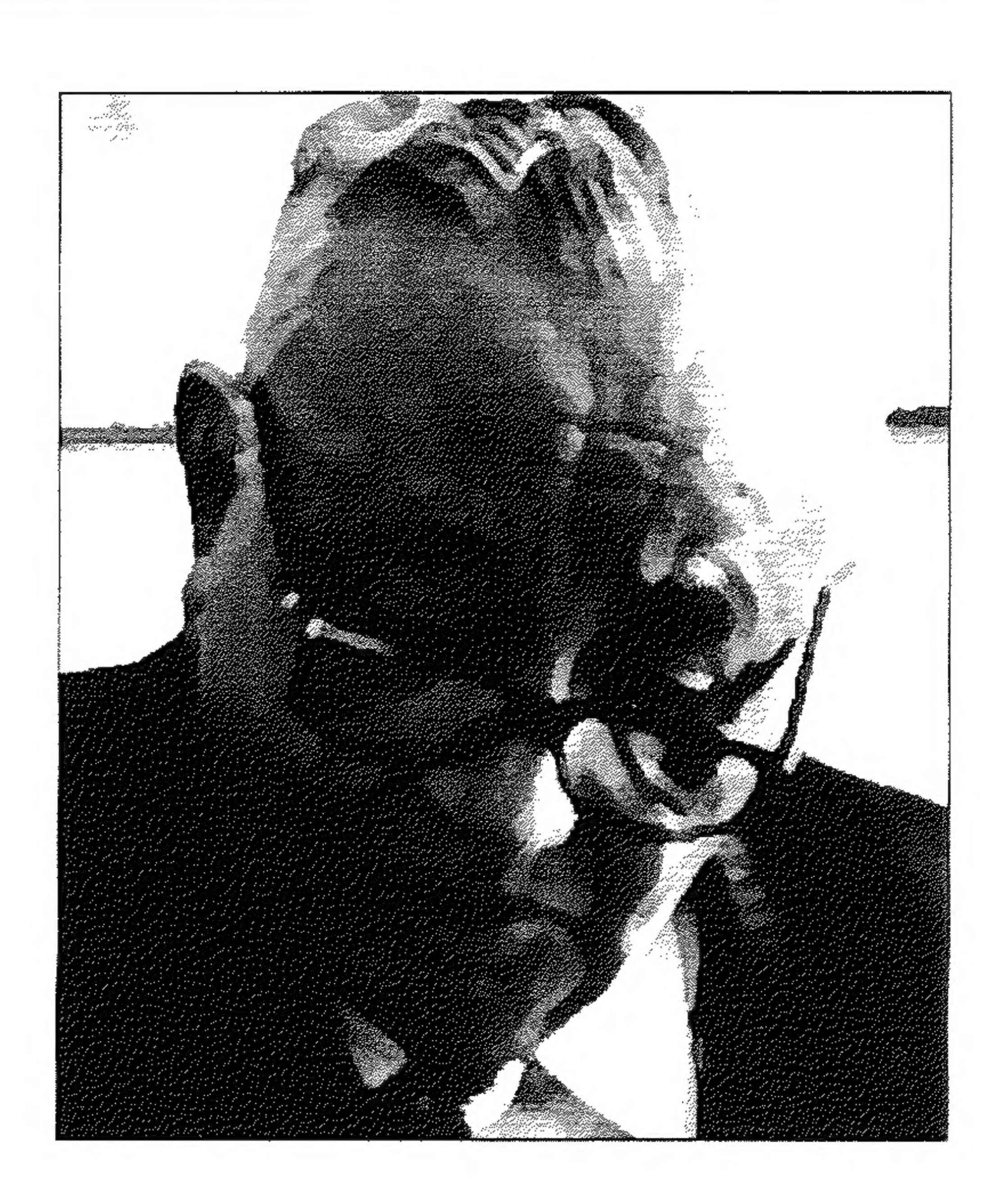
البطولة شارك فيها ٣١١٥ سباحاً من ٦٩ نادياً في العالم، وكانت بعثة النادي تضم السباحين: ماجد عبد الله الحمادي في فئة ١٢ عاما، وغيلان جمعة صالح الغيلاني لفئة ١٣-١٤ عاما، وقد استطاع ماجد أن



أكاليل الورود تعانق أعناق أمل الوطن

يحقق ميدالية فضية في مسابقة (١٠٠م حرة)، وثانية في مسابقة (١٠٠ متر ظهر)، وميدالية برونزية في مسابقة (٢٠٠م فراشة متنوع).

إسماعيل الحوسني مدرب السباحة بنادي تراث الإمارات ورئيس البعثة قال: إن ماجد حقق بالميداليات التي حصل عليها إنجازاً يضاف إلى إنجازاته السابقة التي حققها محلياً منها: أفضل سباح لمرحلة ١٠ سنوات عام ٢٠٠٣م، وتحت ١١ سنة عام ٢٠٠٤، وحاز مع فريق ١٠ سنوات كأس المركز الأول في بطولة صاحب السمو رئيس الدولة عام ٢٠٠٥م، وحصل على ٨ ميداليات ذهبية في بطولة كأس صاحب السمو رئيس الدولة للسباحة والبطولة العامة للسباحة، أما على المستوى الخليجي فقد حقق الميدالية الفضية عام ٢٠٠٣م في بطولة دول مجلس التعاون الخليجي للسباحة، و٣ ميداليات برونزية عام ٢٠٠٤م في المسابقة نفسها، إضافة إلى الميدالية الفضية و٣ ميداليات برونزية عام ٢٠٠٥م. ثم جاء إنجازه في بطولة سويسرا ليضيف إلى إنجازاته بعداً جديداً وعالمياً. وتمنى إسماعيل الحوسني رئيس البعثة ومدرب السباحة بنادي تراث الإمارات المزيد من التوفيق للسباحين اللذين شاركا في البطولة الدولية، ولكل سباحي النادي في المشاركات المحلية والخليجية والعالمية القادمة.■







ثروت عكاشة.. ولقب الإنجاز الثقافي

منحت مؤسسة سلطان بن علي العويس الدكتور ثروت عكاشة جائزة الإنجاز الثقافي والعلمي، وقد تم اختياره من بين ٨٤ مرشحاً لنيل الجائزة، وذلك تقديراً لدوره الفاعل في الحياة الثقافية العربية والعالمية.

وقد أصدر الدكتور عكاشة أكثر من ٥٨ كتابا باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، تعد من المراجع الرئيسية في الثقافة والفن على مستوى العالم، وتتناول تلك الكتب التاريخ الثقافي والفنون العربية والفارسية والتركية والرومانية والفرنسية، إضافة إلى الموسوعات والمعاجم التي لا تزال مرجعا للباحثين.■

تراثنا.. نشرة كل شهرين

«تراثنا» نشرة بدأت في الصدور عن بيت الموروث الشعبي في إدارة التراث بالشارقة.. تهتم بأخبار الإدارة وتبرز نشاطاتها، النشرة تصدر كل شهرين ومدير تحريرها هو عبد العزيز عبد الرحمن المسلم، وسكرتير التحرير محمد عبد السميع يوسف، المسلم تحدث في افتتاحية العدد الأول عن الغرض من النشرة ودور الإعلام في حماية التراث وحفظه باعتباره «له الدور الهام في تربية الأجيال وإبراز هويتنا وحضارتنا»، ثم اختتم مقاله بقوله: «أليس من حقنا أن نحمي هوية أبنائنا وأن يهتم إعلامنا بالموروث الشعبي، ويخصص له مساحات تليق بما يستحق من اهتمام وتقدير، ونأمل أن تكون لنشرتنا دور فاعل ومؤثر في هذا الجانب».■

يسافرون إلى الماضي.. بجوازات سفر

مع بداية شهر مارس الحالي.. ولمدة ثلاثة أيام.. يسافر عدد من طلاب إمارة الشارقة إلى الماضي بجوازات سفر خصيصا لهذه السفرة.

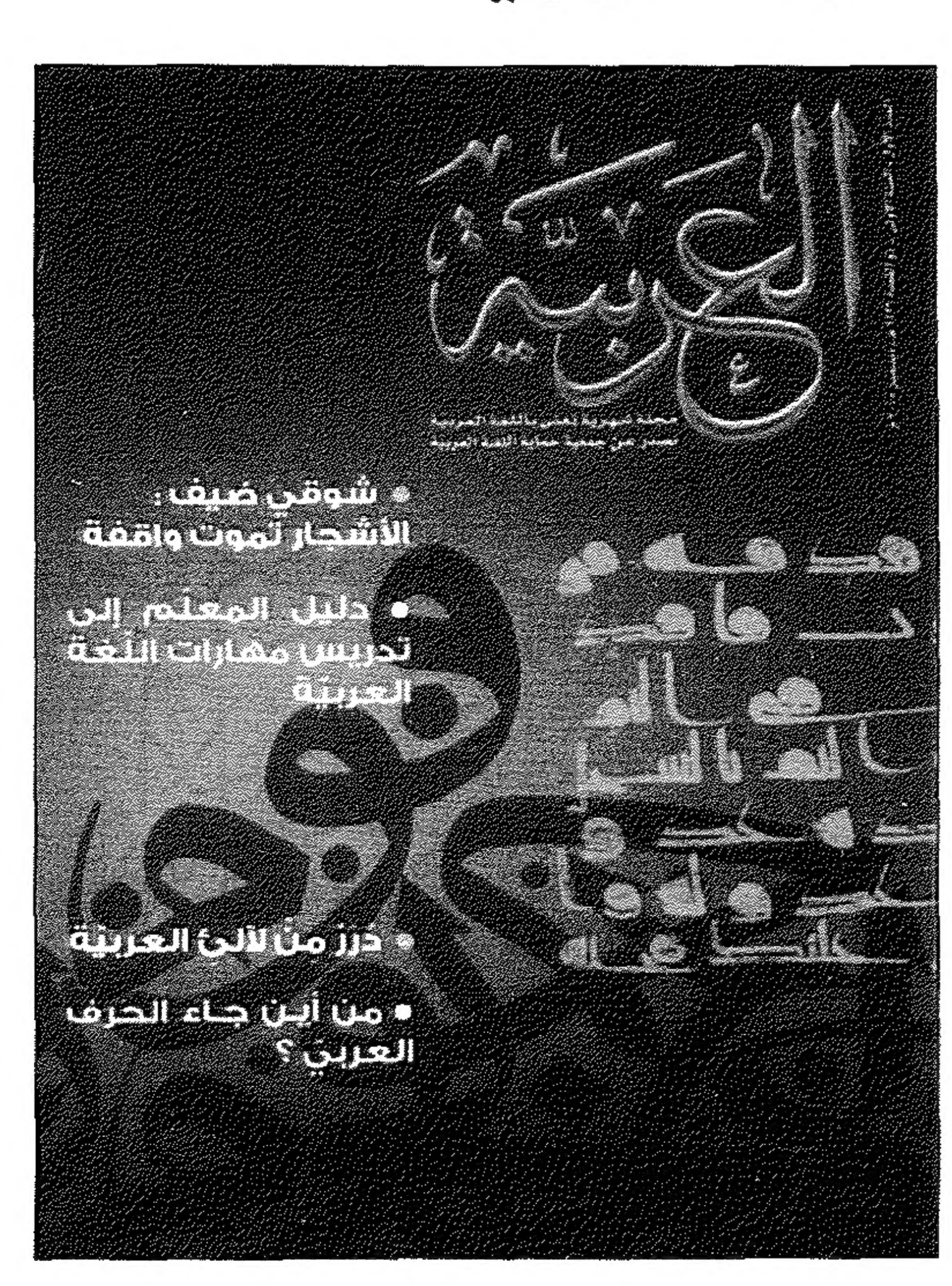
المشروع الذي يحمل اسم «جواز سفر للماضي» يتيح الفرصة لهؤلاء الطلاب الغوص في الماضي بكل تفاصيله من منطلق أن المعايشة الطبيعية والممارسة الفعلية هي خير سبيل لتعلم التراث والتمسك به والحفاظ عليه.

وحول قصر الرحلة قال عبد العزيز المسلم مدير إدارة التراث بالشارقة التي تنظم هذه الرحلة، أنها تحتاج إلى وقت أطول للاستفادة منها.. لكنها فرصة لتدارك ما يمكن تداركه من مفردات وقيم تراثية.■

و.. (العربية) مجلة شهرية

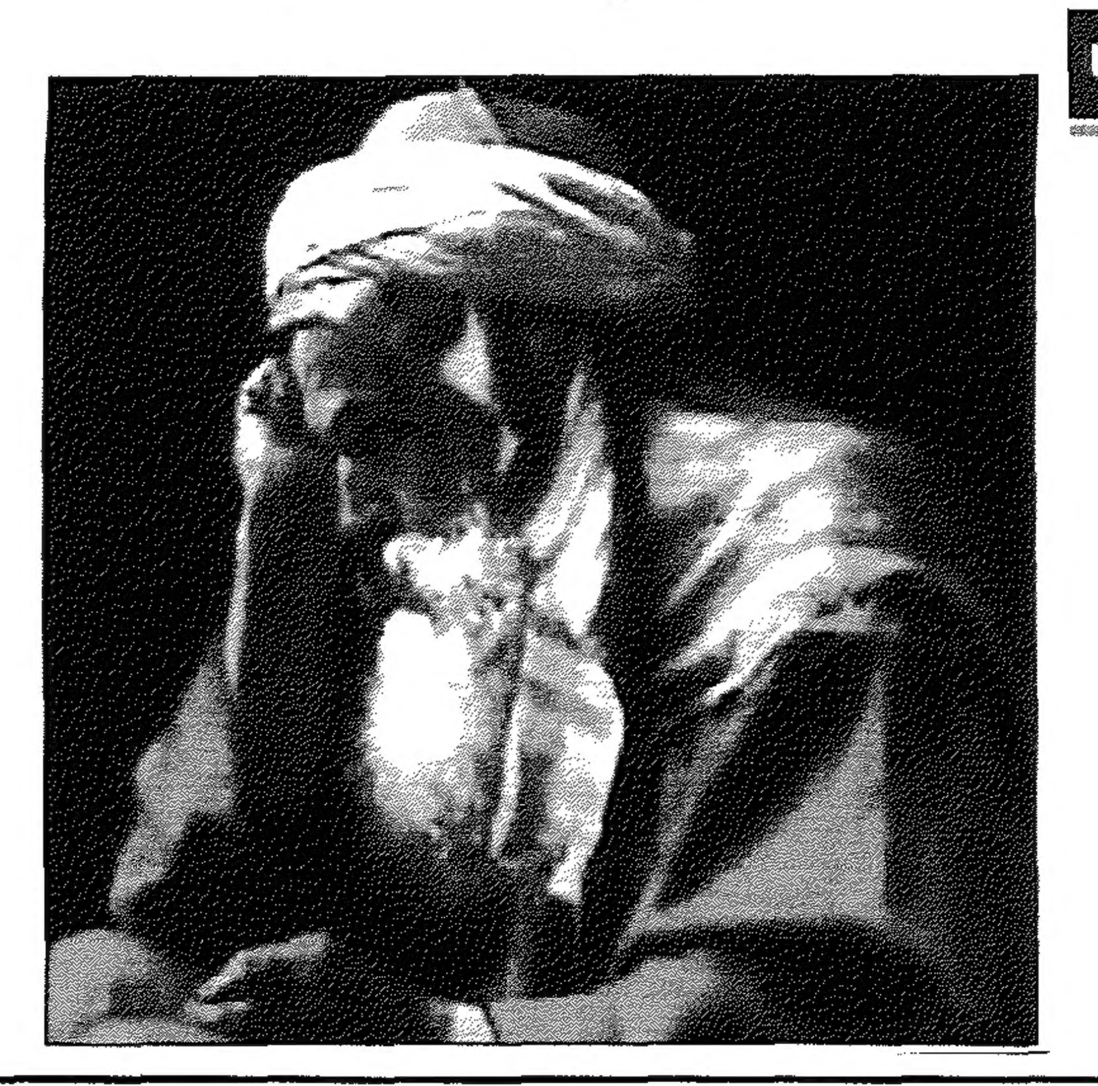
الإمارات

عن جمعية حماية اللغة العربية بالشارقة، صدر العدد الأول من «العربية» المجلة التي تهتم باللغة العربية وتعبر عن آمال وطموحات وخطط وأهداف الجمعية، وتساهم في الدفاع عن اللغة العربية وإبراز جهود الجهات التي تدافع عنها وتدعمها. رئيس تحرير المجلة علي عبد القادر، ومدير التحرير الدكتور رضوان الدبسي، وأمين التحرير محمد السيد إبراهيم، وقد تضمن العدد الأول: استطلاع العدد وكان عن ضرورة حماية اللغة العربية وأهميتها، وجهود جمعية اللغة العربية، كما تضمن موضوعات عن: مخطوطات تحت التحقيق، الهندسة اللسانية، دليل المعلم لتدريس مهارات اللغة العربية، لآلئ العربية، الكفاية اللغوية والكفاية التخاطبية، الحرف العربي، شوقي ضيف، الأشجار تموت واقفة، شذرات لغوية، الخليل بن أحمد ، لغتي شمس اللغات. المهندس عبد الله بن إبراهيم المدفع رئيس مجلس الإدارة قال في افتتاحية العدد وهو يتحدث عن ضرورة حماية اللغة العربية: «إن مشروعنا الحضاري العملاق الذي نطمح إليه مؤملين من ورائه النهوض بالأمة ينبغي أن يضع على رأس قائمة الاهتمامات والأولويات غرس الاعتزاز باللغة العربية وإصلاح اللسان العربي، والارتقاء بمستوى الأداء تحدثاً وكتابة على جميع المستويات، فهذا هو الطريق، ومن هنا يجب أن ننطلق منه واضعين في الاعتبار أن هذا العمل مطلب حضاري وضرورة حتمية من أجل البقاء والحفاظ على الذات ضد معاول الهدم ومحاولات التخريب والتغريب».■



المتنبي في دار الكتب والوثائق ببغداد


العراق

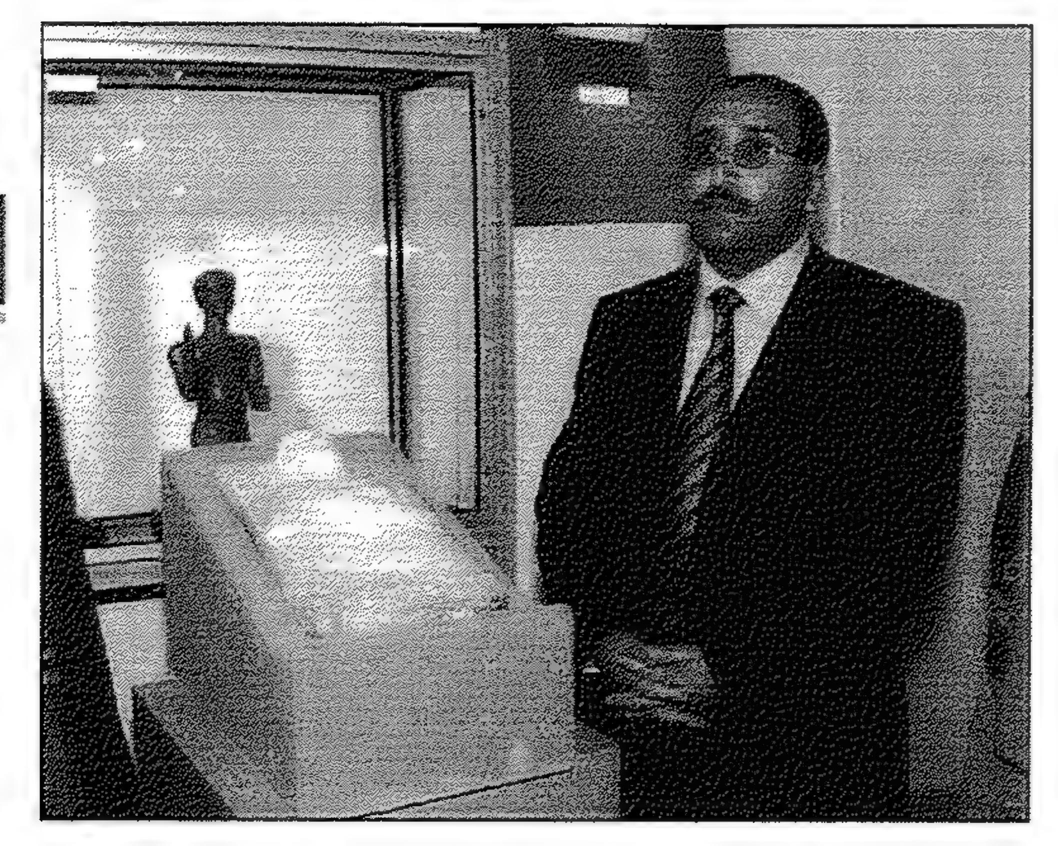


أعلنت ميسون الدملوجي الوكيل الأقدم لوزارة الثقافة العراقية عن رفع تمثال الشاعر العربي الكبير أبي الطيب المتنبي بالاتفاق مع أمانة بغداد في منطقة الكسرة بالاعظمية وإعادته إلى مكانه الأصلي في الساحة المطلة على دار الكتب والوثائق لوزارة الثقافة.

وأكدت الدملوجي أن رفع التمثال قد جاء من أجل ترميمه ووضعه في مكانه الخاص الذي تمّ الاتفاق عليه مع أمانة بغداد، وبالفعل تمّ رفعه بالكامل ويقوم الكادر الهندسي الآن بعملية الترميم. يذكر أنّ تمثال الشاعر المتنبي من أعمال النحات حكمت عبد الغني، ومصنوع من معدن البرونز ويبلغ طوله ثلاثة أمتار ونصف وعرضه مترين ونصف.

عودة تمثال (إله الخصوبة)

اليمن



وزير الثقافة اليمني أمام التمثال الذي تمت استعادته

استعادت اليمن تمثال إله الخصوبة (ذات حميم) الذي يُمثل أحد أهم القطع الأثرية المفقودة، حيث يعود تاريخه إلى القرن الرابع الميلادي، وذلك بعد أحد عشر عاماً من نهبه من متحف عدن بجنوب اليمن وتهريبه إلى خارج البلاد.

وقال خالد عبد الله الرويشان وزير الثقافة والسياحة اليمني في تصريح لـ (تراث): إن التمثال تعرض للسرقة من متحف الآثار بعدن أثناء حرب الإنفصال صيف ١٩٩٤م حيث قامت السلطات اليمنية على الفور بالإبلاغ عن فقدان هذه القطعة الأثرية الهامة عبر المنظمات الدولية المعنية، وتم تسجيلها في حينه ضمن المنهوبات الأخرى من القطع الأثرية، كما دونت أوصافها في سجل وزع على مستوى العالم، وظلت مختفية حتى تم ضبطها من قبل أجهزة الأمن الأمريكية في مطار نيويورك بحوزة تاجر كان يحاول إدخالها لبيعها في أمريكا.

وأشار إلى أن اليمن خاطبت السلطات الأمريكية لتسليمها التمثال الأثري، حيث لبت الطلب أثناء الزيارة الأخيرة للرئيس اليمني علي عبد الله صالح لأمريكا، الذي تسلم شخصياً هذه القطعة النادرة وأعادها معه إلى الأراضي اليمنية ديسمبر من العام الماضي ٢٠٠٥م.

يُذكر بأن التمثال الأثري منحوت من الرخام لإمرأة يمنية من العهد السبئي، الذي يعد من أبرز عهود الحضارات اليمنية القديمة، فضلاً عن كونه العهد الذي تبوأت فيه حكم اليمن الملكة بلقيس وخصها الله بالذكر في محكم كتابه الكريم في قصتها مع النبي سليمان عليه السلام.

الملتقى الثالث للترجمة في القاهرة



مصر

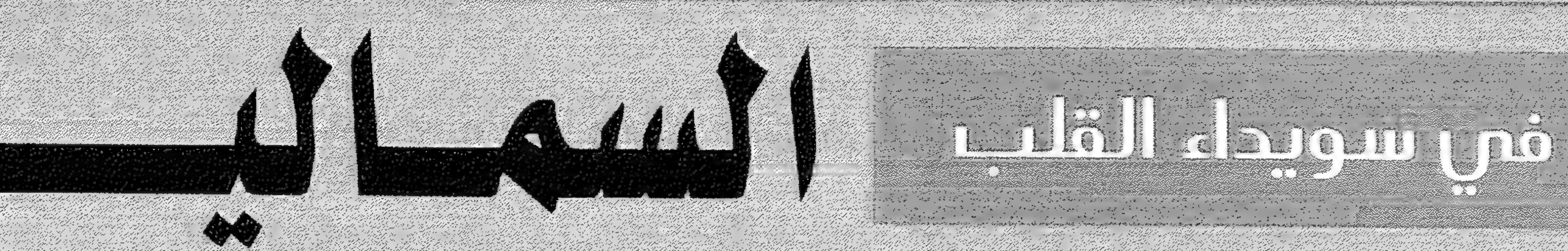
اختتمت في القاهرة منتصف الشهر الماضي أعمال الملتقى الثالث للترجمة الذي شارك فيه أكثر من مائتي باحث ومترجم عربي وأجنبي للبحث في محاور عدة متعلقة بالترجمة وهي «المشروع القومي والترجمة»، «الشعر والترجمة»، «اللغة العربية والترجمة»، «مشكلات الترجمة»، «العلاقات الثقافية والترجمة»، «الملكية الفكرية والترجمة» و«الترجمة الآلية».

وبحث المشاركون مشاكل نشر وتوزيع كتب الأدب العربي في الغرب وعدم إقبال القارىء الأوروبي عليها.

وعلى طاولة مستديرة، اعتبر الباحث والمترجم ماهر شفيق إن عدم الإقبال الأوروبي والغربي بصورة عامة على المؤلفات العربية المترجمة إلى اللغات الأجنبية، رغم الجهود المبذولة، سببه «اكتفاء الغرب بالنتاج الأدبي الذي يملكه منذ فترة طويلة».

وقد أوضح الأديب السوداني الطيب صالح صاحب رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» التي اعتبرت من أشهر الروايات العربية وترجمت إلى عدة لغات أوروبية أن عدم انتشار الرواية العربية في الغرب يعود إلى «غياب حب الإطلاع لدى شرائح واسعة من الشعوب الأوروبية».

بينما قال أستاذ الأدب العربي الباحث والمترجم الألماني هارتموث فاندريش: إنّ حكايات ألف ليلة وليلة التي حققت انتشاراً واسعاً في العالم الغربي وخصوصاً في ألمانيا قد تكون إحدى العوائق التي أثرت على عدم إقبال القارىء الغربي على الأدب العربي الحديث. وأضاف فاندريش قائلاً: إنّ حكايات «ألف ليلة وليلة» قد لاقت صدىً كبيراً في السوق الألمانية والأوروبية والأمريكية بشكل عام، وهذا الصدى ساهم في انتشارها الواسع وسمح بتعرف عدد كبير من الغربيين على أحد إبداعات العالم العربي والإسلامي الأدبية.



■ استطلاع: حمدي نصر

■ تصوير: نجيب محمد

السمالية.. هي جزيرة الأحلام الوردية.. ولأنها تشعر بذلك.. فقد استرخت بدلال على مياه الخليج قريباً من مدينة أبوظبي.. تستيقظ في الصباح على تغريد الطيور وهمس القادمين.. وتغفو في المساء على تثاؤب الأحياء المائية.. و«خروفة النوم» التي توشوش بها أمواج البحر رمال «السيف».

السمالية.. كانت مجرد نتوء على وجنة الخليج، فعمل فيها مبضع الجراح البارع سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء رئيس نادي تراث الإمارات، فكانت عملية التجميل التي حولتها إلى عروس البحر.. وجزيرة الأحلام الوردية التي غدت منتجعاً يزخر بالحياة والمتعة والجمال.

تجولنا في السمالية فوجدنا كل شيء فيها يتنفس عبق التراث.. ويتدثر بعباءة العمارة التقليدية.. حتى محولات الكهرباء المنتشرة وضعت على أكتافها دثار تلك العمارة فشكلت لوناً شجياً في لوحة زاهية القسمات.

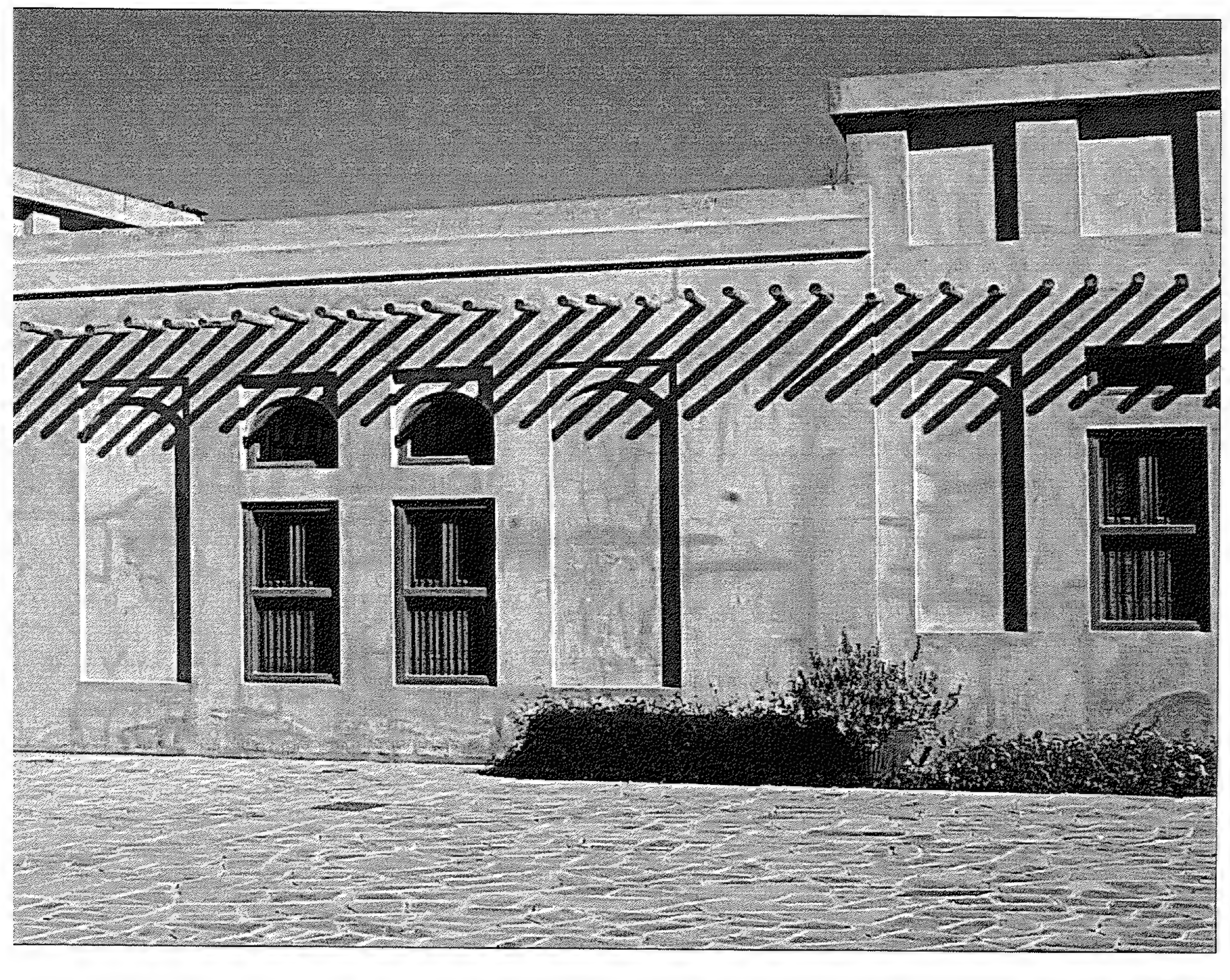
ــة.. جزيرة الأحلام

عندما هممنا بالذهاب إليها سألنا خميس بن زعل الرميثي الخبير التراثي بنادي تراث الإمارات عن سبب تسميتها بالسمالية فقال: كان الآباء والأجداد يسكنون بعائلاتهم في جزيرة قصار الصل وهي تجاور السمالية الحالية من ناحية الغرب.. وكانوا بالطبع يعملون في صيد الأسماك بعدة طرق منها طريقة السكار التي تحتاج لعدة أطوال من الشباك.. وكانوا كل سنة يجددون شباكهم التي تتأثر بعمليات الصيد.. والشباك كانت من خيوط القطن.. ولأن جزيرة قصار الصل كانت ضيقة بعض الشيء.. لذلك كانوا يستخدمون الشباك الجديدة.. أما الشباك القديمة والتي يسمونها «سمل» فكانوا يودعونها في الجزيرة المجاورة لجزيرتهم قصار الصل.. بعيداً عن الأغنام حتى لا تأكل منها أو تمزقها لأنها كما قلت كانت مغزولة من خيوط القطن.. وكلما احتاجوا لزيادة في شباكهم الجديدة قالوا : هاتوا من «السمل».. لذلك أطلقوا عليها السمالية التي كانوا يحتفظون فيها بالسمل.

وقال بو راشد: كانت الجزيرة لها عدة أطراف.. الطرف الغربي الشمالي يسمونه السمالية كما أسلفت، والطرف الشمالي الشرقي كانوا يسمونه «أم اليحال».. واليحال جمع يحلة.. وهي الآنية الفخارية التي كانوا يحفظون فيها ماء الشرب ليبرد لكونها فخارية، والطرف الشمالي الشرقي من الجزيرة به ما يشبه الأحواض، وكانوا في القيظ بعد تعبهم وكدهم من الصيد يذهبون إلى تلك الأحواض التي كانت تمتلئ من مياه المد، وعندما يحدث الجزر يتجمع فيها الماء فيكون بارداً كماء اليحال.. لذلك سموها بهذا الاسم.. أما الطرف الغربي من الجزيرة فكانوا يسمونه «غبي».

السمالية تقع على بعد ١١ كيلومتراً بعد مغادرة جسر المقطع الذي يصل جزيرة أبو ظبي باليابسة.. أمامها مباشرة الآن فندق شاطئ الراحة الجميل والجديد.. والوصول إليها يحتاج





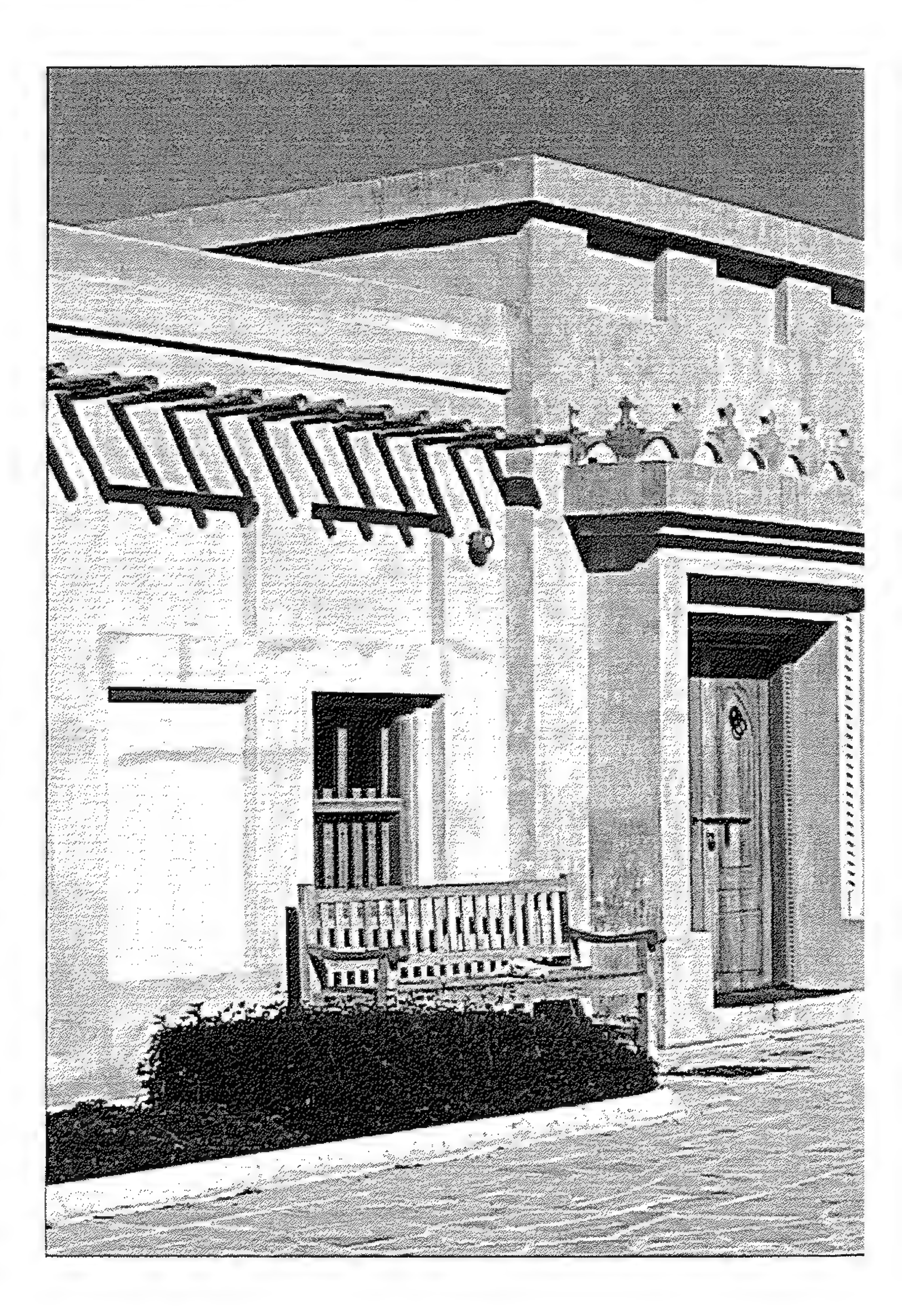
مبنى الإدارة

إلى رحلة بحرية باللنشات من مرفأ صغير على كاسر الأمواج بالقرب من الفندق.. وهذه الرحلة لا تتعدى دقيقتين فقط بالتمام والكمال!!.

عندما تجولت في السمالية أذهلني بساطها الأخضر الجميل والذي جعلها تشبه الغابة وسط لجة البحر.. وقبل أن أفتح فمي دهشة همس لي حميد الرميثي مدير الجزيرة: لا تتعجب.. فمساحتها الإجمالية ٢٤ كيلومتراً مربعاً منها ٨ كيلومترات مربعة مزروعة بأشجار القرم فقط.. طبعا غير الأشجار الأخرى المحلية المزروعة في باقي المساحة وأبرزها النخيل وهذه الأشجار تشكل غابة كما تراءى لك.

وقبل أن ألتفت إليه قال: أعرف ماذا ستقول.. هي مساحة كبيرة فعلا.. فقد كانت السمالية في البداية عبارة عن ست جزر متقاربة هي: السمالية، قصار الصل، قصباه، زبارة، قصار المشق وأم اليحال، وعندما بدأت عمليات توسيع قناة أم النار في عام ١٩٩٣م، كانوا ينقلون الرمال الناتجة من عملية التوسيع إلى الجزيرة ويردمون بها المناطق المنخفضة فاندمجت الجزر الست تحت اسم السمالية.. وفي العام نفسه تقريبا بدأ الاهتمام بالسمالية لتصبح ملتقى للتراث يتعلم فيه الشباب ويمارسون تراث وعادات وتقاليد وأنشطة أجدادهم وآبائهم، ولتكون السمالية بالنسبة لعشاق التراث.. جزيرة للأحلام الوردية.

الجراح البارع سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان بسعة أفقه ومهارته جعل من السمالية غرفة عمليات كبيرة على اتساعها.. ولأن العملية الجراحية التي تبناها كبيرة ومرهقة.. فقد لازم غرفة العمليات ليل نهار حتى أصبح بالإمكان أولاً السير في الجزيرة بعد أن كانت تتخللها الوحول والسبخات والرمال



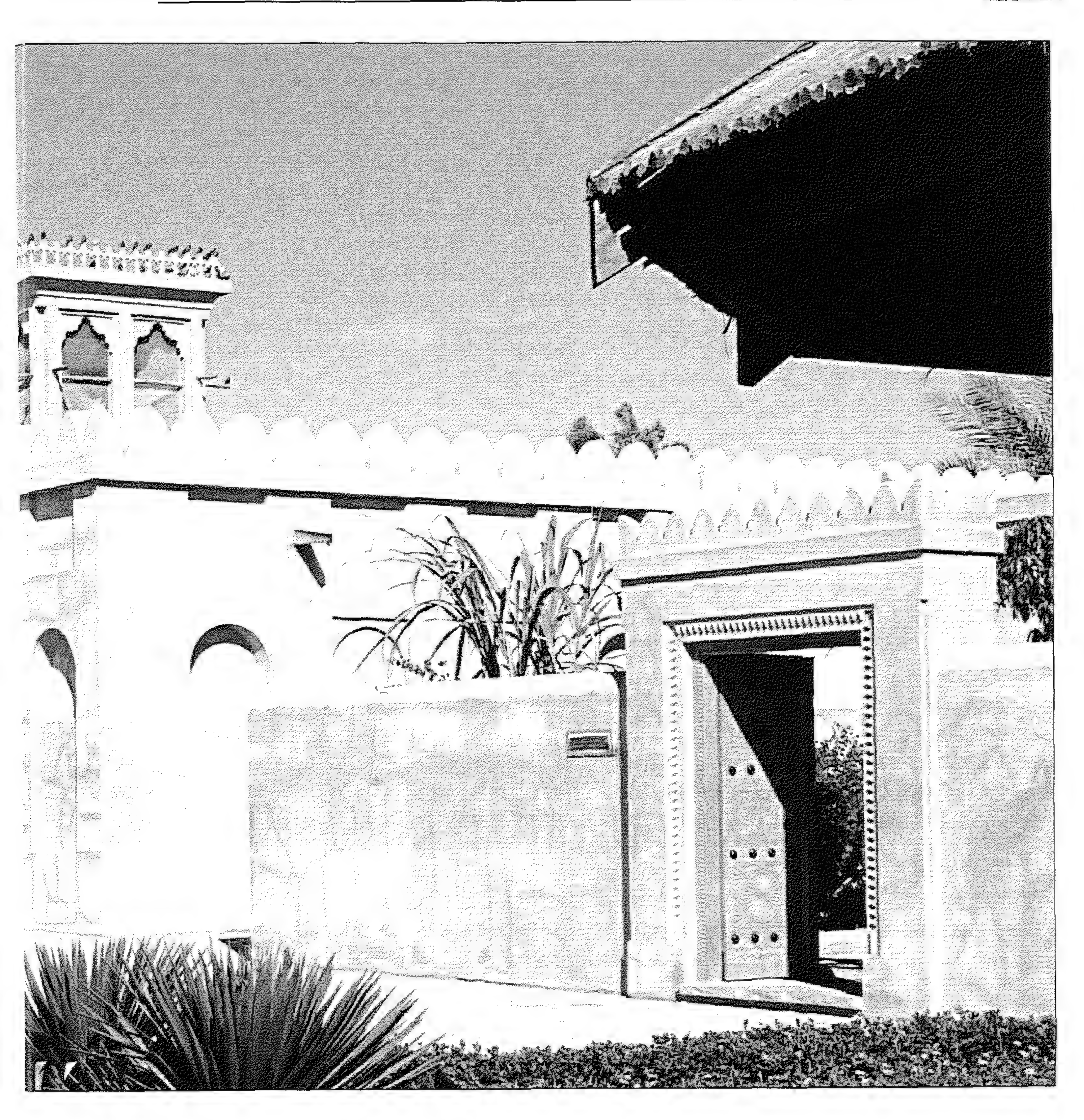
والمرتفعات والمنخفضات.. ولم تكن جاهزة لإقامة أي مشروع.. فشق الطرق ومهد الأماكن التي تحتاج إلى تمهيد.. والشيء اللافت للنظر أن العمل كان يتم في الجزيرة على اتساعها دفعة واحدة وفي كل الاتجاهات مما يعني أنه كان يحتاج إلى متابعة دقيقة وواعية وصبورة.. ففي بادئ الأمر أمر سموه بإنشاء ميناءين كانا مفتاحي التواصل البري مع الجزيرة وبوابتي دخول المعمار لها وتحولها من أرض يابسة لا حياة فيها إلى حديقة غناء بمعنى الكلمة.. في موضوع الزراعة مثلا.. يوجد حاليا في الجزيرة ما بين ٨ إلى ٩ ملايين شجرة قرم، كان سموه وراء زراعة ٩٧٪ منها، سواء بالقرم المحلي البحري أو البري، أو بأشجار القرم التي جلبت من عدة دول خارجية أوروبية وآسيوية، وأمر سموه أن تكون الجزيرة محمية برية وبحرية ترتادها الطيور المهاجرة والأسماك.. فحاليا توجد حول الجزيرة كميات كبيرة من أسماك: الهامور، الليلي، الكيسوان، البدح، الشعري، الحمر، القابض، الشعم، البياح، الحواجيل، العيفا، الصافي، النقرور، وهناك أسماك موسمية مثل: الجش، الدردمان، العومة، القرفا، البيب، القفدار، السين، الضلع، الجد، الكنعد، الخباط، أما الروبيان فبكميات كبيرة جداً.

عبد المنعم درويش مدير إدارة البحوث البيئية التقط الحديث قائلا: وأمر سموه بإنشاء مزارع لإنتاج أسماك البلطي والبياح وقد بعنا منها ١٤٠٠ كيلو بلطي العام الفائت، وهناك مزارع أخرى للبدح والروبيان.. لكنها لم تصل بعد إلى حد بيع الانتاج.. وعلى ذكر المزارع.. ولأن الشيء بالشيء يذكر.. فقد أمر سموه بإنشاء مفقس للسلاحف البحرية على شاطئ السلاحف حيث تم انتاج ١٥٦ سلحفة خلال الفترة الماضية.

التأمل على أبواب التراث

تجولت بالجزيرة.. ووقفت على أبواب قريتها التراثية أقرأ ما خطه الأجداد بجَلَدهم وصبرهم.. وأتأمل فنهم وخبرتهم ومهاراتهم.. وإبداعاتهم التي جاءت متوافقة تماما مع إمكانياتهم ومتطلبات حياتهم.. هذه البيوت المتراصة المتكاتفة كما تكاتف الآباء والأجداد ضد عوادي الزمن.. وهجمات البحر وهبوب البر.. ولفح الحر ولسعات البرد.. وعلى كتف القرية مسجدها الذي بني على صورة مسجد البدية التراثي في الفجيرة بقبابه المتعددة.. أدينا فيه صلاة الظهر جماعة.. وعندما انتهينا سرحت بفكري في معماره التقليدي الجميل وقسماته التي تحمل تجاعيد الزمن رغم أنه شاب يافع.. مما يوحي بمهارة الباني ودقة البِناء.. وبراعة المرشد وحرفية البَناء.

خلف القرية وقفت مجموعة من الشاليهات متشابكة الأيدي كأنهن غيد حسان يلعبن لعبة «أم العيال» مع أمواج البحر التي تقترب منهن وتبتعد.. تبلل أقدامهن.. فيردد الموج صدى ضحكاتهن.. ونسيم الصبا يداعب براجيلهن اللواتي انتصبت فوق رؤوسهن.. تماما كما كانت فوق بيوتنا التقليدية القديمة.



ناي الراعبي

لم يترك لي صوت الراعبي الذي انساب يدغدغ الأعصاب فرصة لأستمع إلى سوالف المد وهو يوشوش «السيف».. التفت إلى الراعبي وفي نيتي أن أسأله عن نايه الشجي الذي داعب به أوتار قلبي المتلهف حباً وشوقاً.. فإذا بالورقا تقطع علي الطريق وترد عليه وكأنها تناجيه.. فخفق قلبي بكلمات شاعرنا سالم الجمري عندما قال:

وَرْقٍ لِعَي بَصْواتِه | في أغصونه | أرَقّ نِظيْر الْعَين
أونْ مِن وَنَّاتِه | وْلُحونِه | وَنّةْ قَلْبِ حِزين
يَنْسُقي بِحْسَراتِه | مِنْ بُونِه | مَا وَقّفْ مِ الْوِنين



القرية التراثية

ويبدو أن جمري سالم الجمري لا يزال ينوح على فنه من سنين طويلة عندما أثار مشاعر سالم فقال:

لَجْلَجْ الْجَمْري عَلَى فَنّه
وارَّقْ اعْيُونِي تِلَجْلِيْجِه
بِتْ أجيبْ إلونّه إبْوَنّه
وارْضِفْ الْحَنّه مِنَ الضّيجِة
بي هوىَ بي حِب مِخْفِنّه
كَاتِمِنّه عَنْ مِطَافِيجْه

وتساءلت في أعماقي عندما سمعته: هل صوت الراعبي هذا هو نفسه الذي حرّك مكامن الشجن عند شاعرنا ربيع بن ياقوت حين قال:

على ربْوعْ الْموسميّات
شدْوى الْبلابلْ والتّغرَيد
يا زينْ صوتْ الرّاعبيّات
في الدَربْ وامْروَحْ تبا الذّيد

بينْ المغـــــاني ردَد أصــــــوات
وأنـــا بَـعْــد صـغْــت المتـاشيـد

التفت إليه فأجابني جابر محمد بن يعروف المنصوري الرجل العارف بأنواع الطيور المحلية قائلا: ليس الورقا والراعبي بأنواعه المتعددة، والجمري فقط هي التي استوطنت الجزيرة من طيورنا المحلية.. فهناك العديد منها التي طاب لها المقام وتكاثرت بأعداد لا تحصى ولا تعد.

– مثل؟

– مثل الحمام البلدي والبري والزاجل، الخصيفي، القشار، الدرحيان، وبو الدسيس وهو من الطيور الصغيرة والنادرة ويعيش فوق أشجار القرم، وأيضا اللوه، وبوعلعال، والفتير، الطليلي بأنواعه مثل العقم والدرعي والنقد وبغالي وبوطويج وبومفتيح وشويري وطبيخة قار، وهذه الطيور استوطنت الجزيرة لأنها وجدت فيها الماء والهواء والغذاء والأمن والأمان فاستقرت وتكاثرت.

انفلونزا الطيور

عبد المنعم درويش مدير إدارة البحوث البيئية أضاف: وهناك الطيور المهاجرة التي جاءت بأعداد كبيرة أيضا وطاب لها المقام في الجزيرة، وكان سمو الشيخ سلطان بن زايد –حفظه الله– قد أمر بتهيئة المقام لها لتستقر في الجزيرة وذلك بتوفير الطعام والأعشاش والمياه العذبة الطبيعية التي تنساب على شكل شلالات في بحيرة جميلة لتكون مكاناً آمناً وملاذاً طيباً لها، كل ذلك طبعا بالإضافة إلى الطيور التي نربيها هنا أصلاً مثل: النعام، الأيمو، الريا، الحبارى الأفريقية (الحبرو) والحباري، والحجل، والقطا، والفزن، الصفرد، ودجاج الوادي، والديك الحبشي، والبجع، ومجموعة كبيرة من البط البحري.

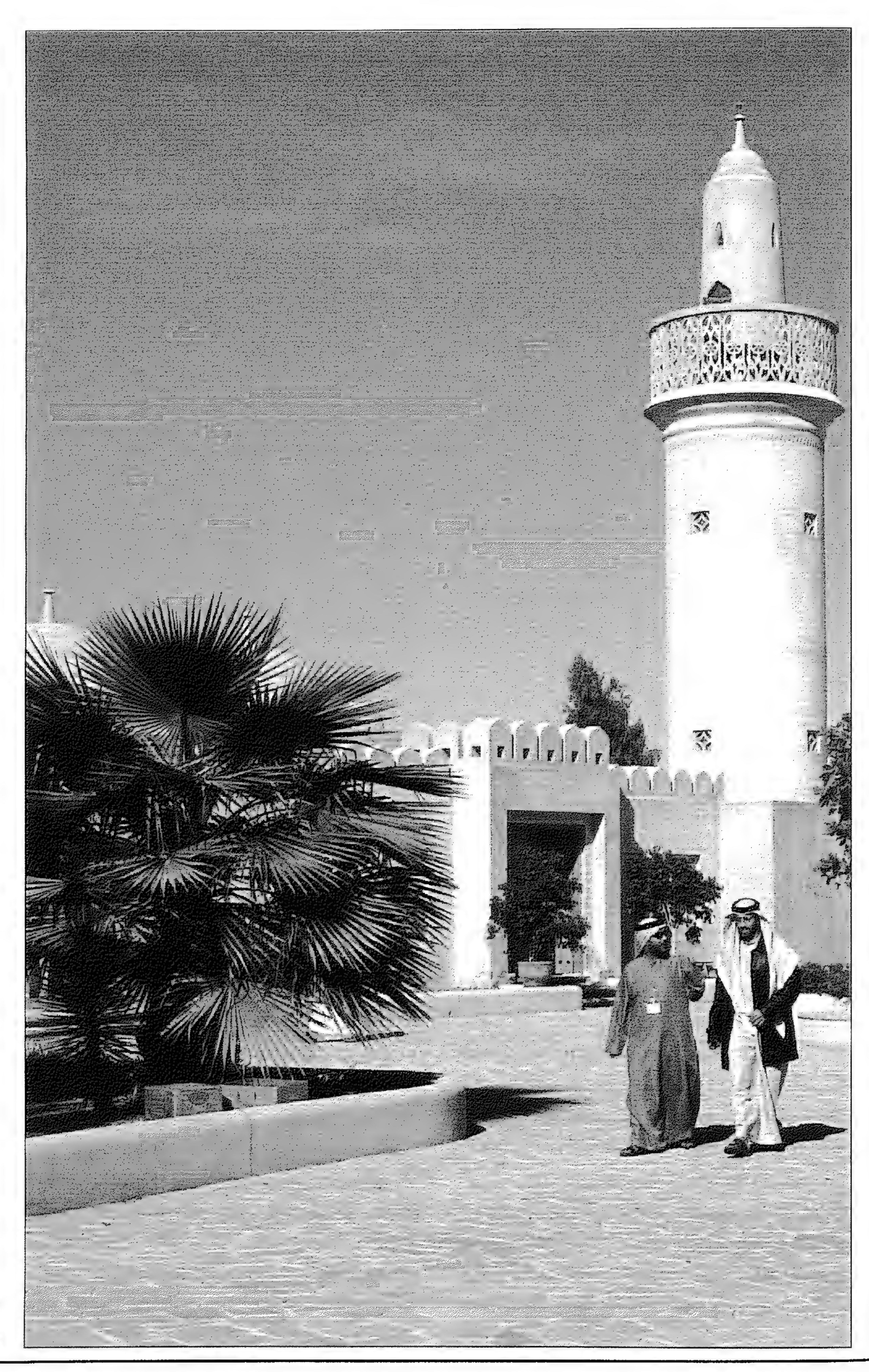
وقبل أن أسأله أجاب مبتسما:

– الحمد لله.. لقد اتخذنا كافة الاحتياطات اللازمة لمواجهة خطر انفلونزا الطيور.. وأولها أننا لم نعد نضع طعاما يغري الطيور المهاجرة بالنزول إلى الجزيرة حتى نتجنب إنتقال العدوى، واحتجزنا الطيور الموجودة في أقفاصها، وشكلنا دوريات مراقبة على مدار الساعة. ودربنا فرقاً متخصصة وأرشدناهم إلى ما يجب عمله عند رؤية أي طائر غير طبيعي، يتعثر في مشيته، أو مصاب بالدوار، أو تبدو عليه أي علامات مرضية.. كما دربناهم على كيفية الطريقة السليمة في التعامل معه.. ونطبق الآن مشروع المراقبة البيئية لتشمل البيئة البرية والبحرية، ومن بين ما قمنا به على سبيل المثال تغيير مسار أحد الشوارع الحيوية لنحافظ على البيئة الطبيعية في ذلك المكان.

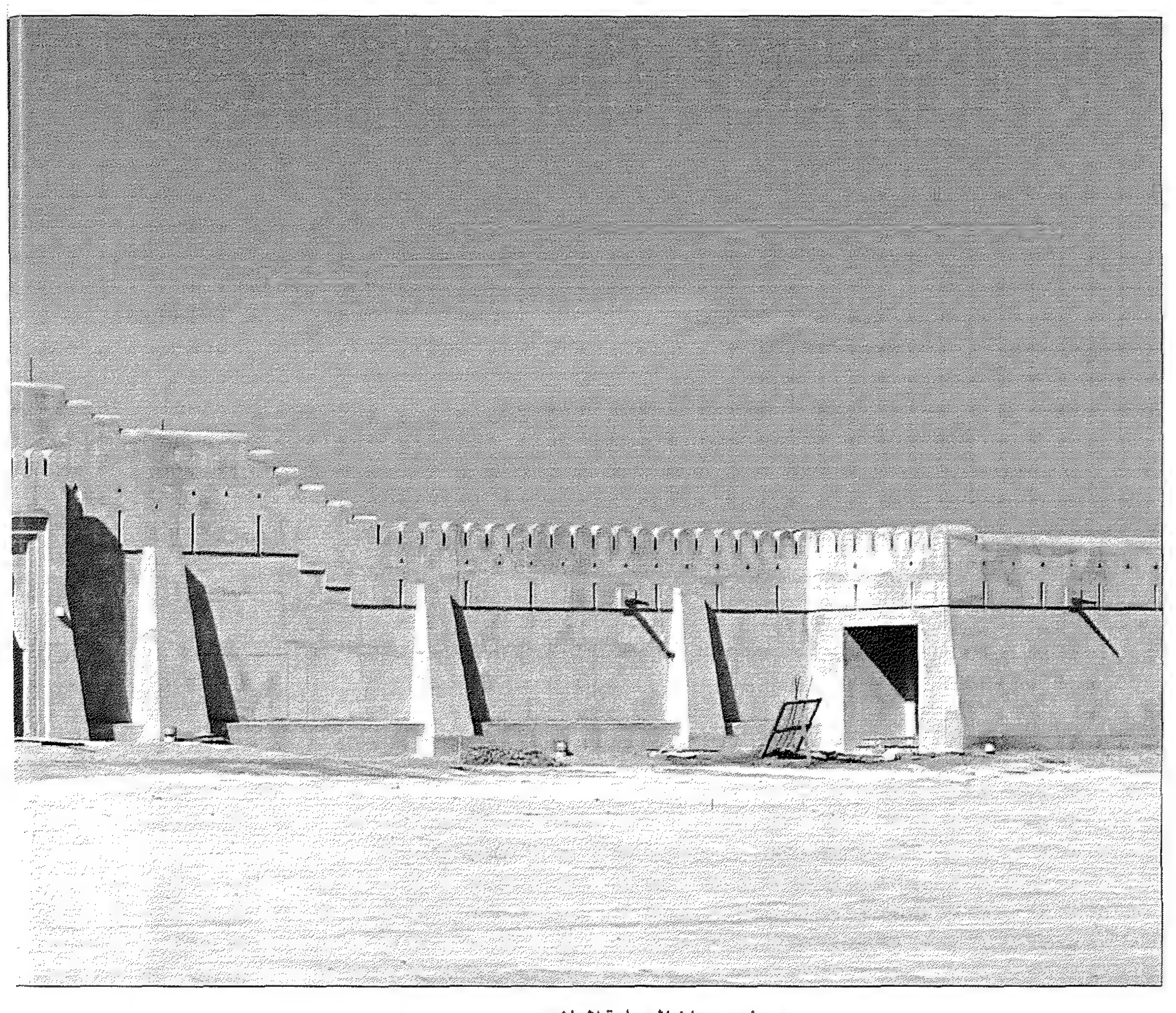
العمل لا يتوقف

القرية التراثية حركة لا تهدأ رغم مظهر الهدوء الذي تكتسي به.. قلت لحمد غدير سويد المنصوري الذي كان يصحبني في جولة التصوير: هذا الهدوء.. ألا يشعرك بالملل؟ قال: أبدا، فنحن في عمل مستمر ولا وقت لدينا للشعور بالملل، إضافة إلى أن جو الجزيرة صيفاً وشتاءً يعتبر مشجعاً على العمل لجماله وسحره.. خاصة وأننا عشاق البر، ونحب الهدوء والانطلاق بلا حدود.

حميد الرميثي مدير القرية قال: لا يمكن أن نشعر بالملل لأن الأنشطة مستمرة طوال العام وهي متنوعة بين الفروسية والرماية والهجن والأنشطة الشراعية.. والعمل في تطوير الجزيرة لا يتوقف.. فكما ترى.. هناك مشاريع اكتملت منها القرية التراثية ببيوتها ومجالسها وقد اتخذتها إدارة القرية مكاتب لها.. مدرسة ركوب الخيل المكيفة وتهتم بتدريب الطلاب المشاركين في الأنشطة وتعريفهم بالخيل وكيفية التعامل معها، ثم ركوبها والتجول بها، وهناك مفقس السلاحف البحرية، مباني الألعاب اللاسلكية، وهذه فيها ذكاء شديد، فكل طعام مهما كان مشهياً فلابد أن يضاف إليه بعض المقبلات، بل يشار إلى جمال الأكل بمقبلاته، والألعاب اللاسلكية ليست تراثية وهو الاهتمام الأول والرئيس للأنشطة في الجزيرة، لكنها موجودة لمزيد من التشويق والترغيب للطلاب باعتبار أن مثل هذه الألعاب هي شغلهم الشاغل خارج الجزيرة، ووجودها في الجزيرة لا يشعرهم بأي انفصال بين ما يمارسونه فيها أو خارجها، وهذا هو الهدف، وفيها يتم التدريب



مسجد القرية في
جزيرة الأحلام



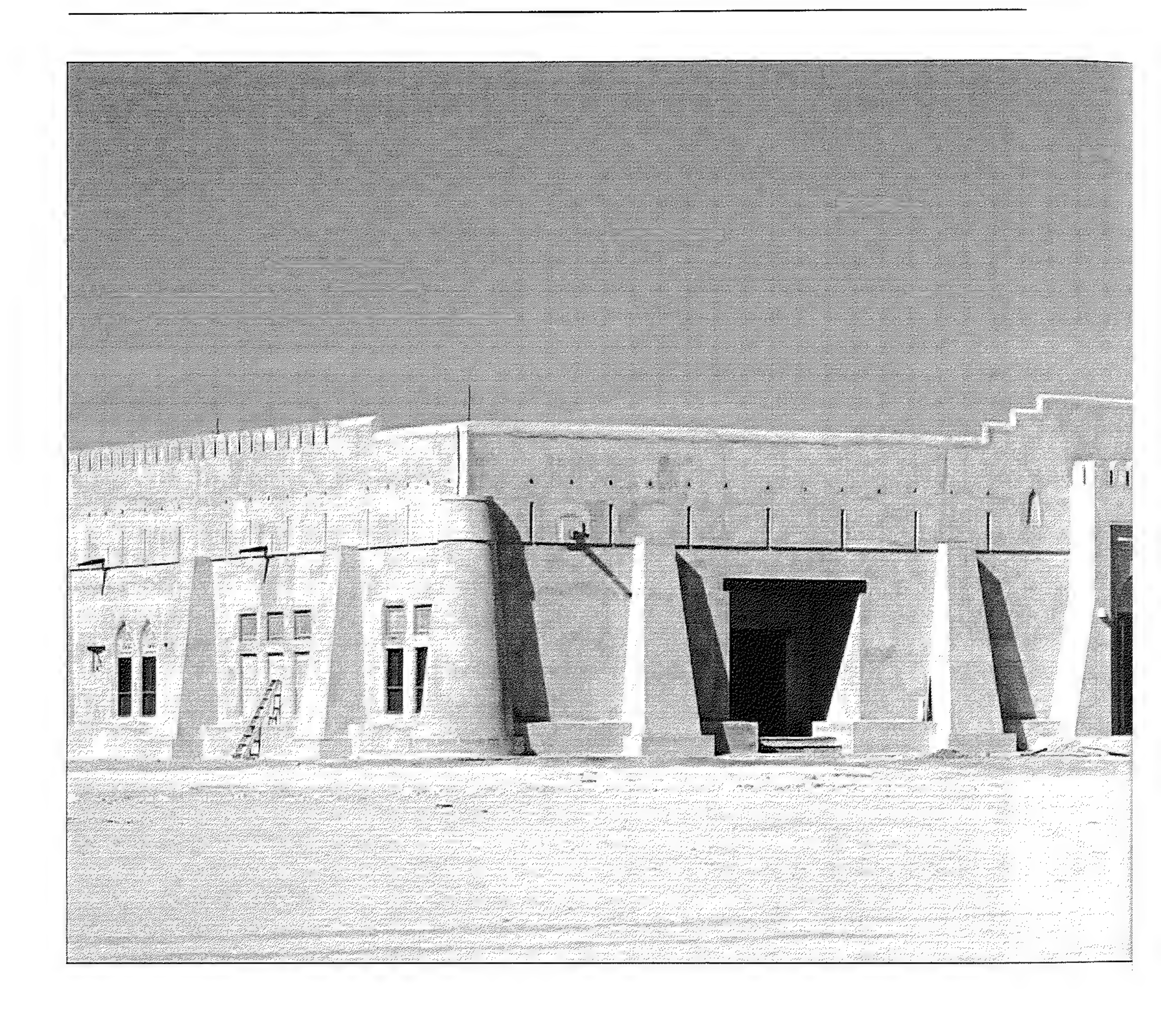
مبنى ميدان الرماية العالمي

على الطيران اللاسلكي والسيارات وإجراء منافسات شائقة بين الشباب تدخل السعادة على نفوسهم وتحببهم أكثر في التعامل مع الأنشطة الأخرى، أيضا من الأعمال المنتهية: المارينا، وهو ميناء مدخل الجزيرة.

ميدان رماية عالمي

توقفنا في جولتنا أمام مبنى شكله جميل.. وبوابته تجسد هيبة التاريخ عندما يعتز بنفسه.. خاصة وأن الشكل العام يشبه الحصن الشرقي في مدينة العين.. وقفنا.. وتأملنا.. وأعجبنا المبنى فصورنا.. ثم سألنا: ما هذا؟.. قالوا إنه من المشاريع التي هي تحت الانجاز.. وهو ميدان رماية عالمي، يمكن أن تقام عليه المسابقات الاولمبية وبه جزء مغلق وآخر مفتوح ويلبي جميع الاحتياجات، وبه ميدان للتدريب وآخر للرماية بالقوس.

واصلنا الجولة والكاميرا لا تتوقف عن التصوير.. مبنى آخر تحت الانجاز.. مضيف لحوالي ٢٠٠ شخص من المشاركين في الأنشطة على شكل موتيل، والعمل حاليا يجري في المسبح الأولمبي المتكون من عشر حارات، ومسبح آخر للتدريب، وصالة ألعاب متعددة الأغراض، والشاليهات العشرة السابق الحديث عنها وهي على ثلاثة قياسات مختلفة، وتمثل البيوت التقليدية القديمة المتناسقة مع البيئة البحرية،

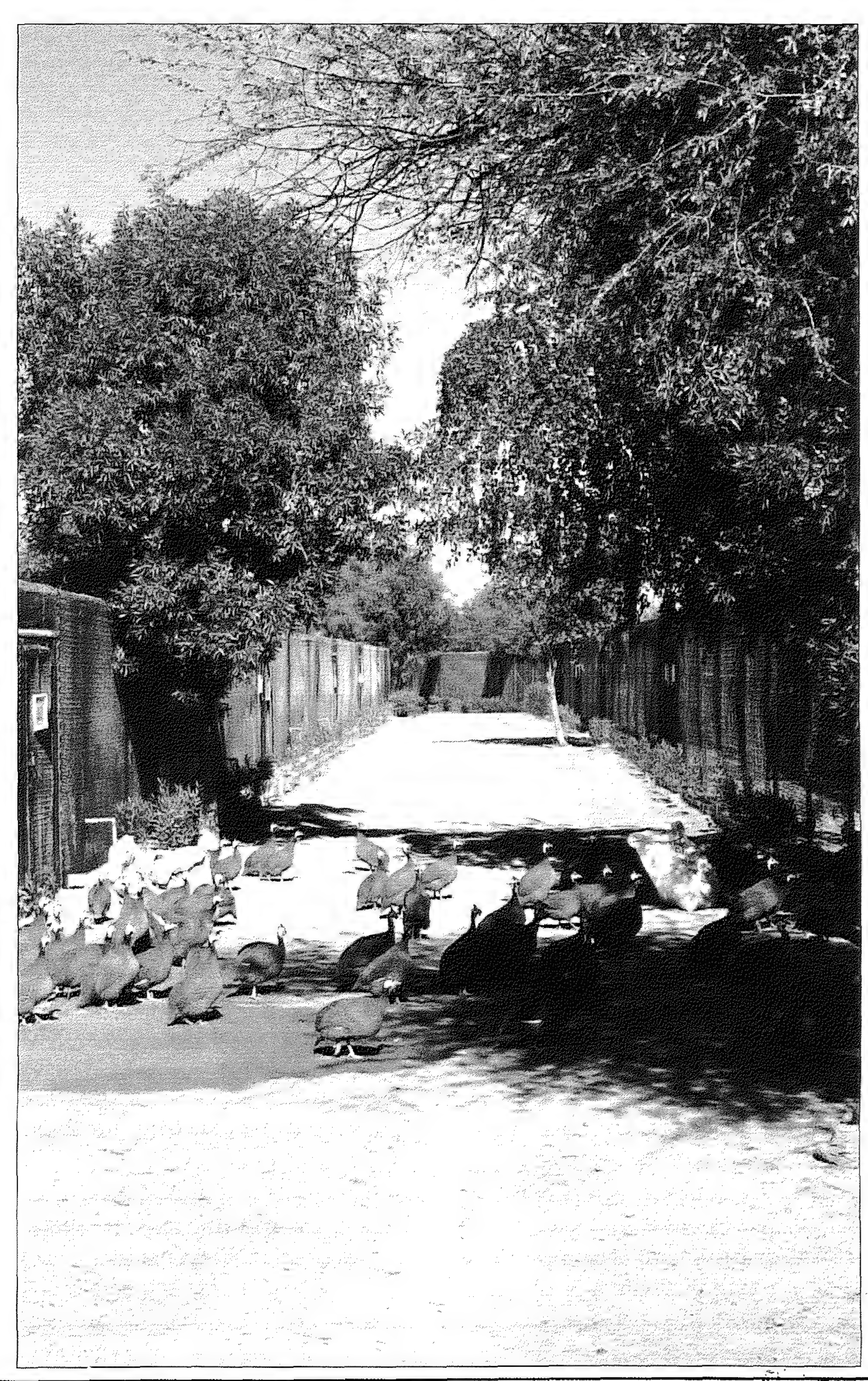


وتحت الانجاز أيضا مبنى ومكاتب إدارة البحوث البيئية، واسطبلات الخيول، ومزرعة الأسماك، والممر العائم داخل منطقة القرم، ومبنى مراقبة الطيور، وحظيرة طيور الايمو، وتشكيل الأرض في حديقة الحياة البرية بعمل تلال ووديان لتأخذ شكلها الطبيعي، أيضا عمل شبكة طرق حديثة، والجزء الثاني من المارينا، ومبنى المخزن المركزي.

طموحات بلا حدود

والطموحات كبيرة جداً، فهناك مشاريع طرحت فعلا للمناقصات منها: الميناء التراثي للجزيرة، ومدرسة الإمارات للشراع، ومشاريع أخرى جاهزة للطرح منها: متحف الخيول، الاسطبلات الإضافية، صالة للألعاب التراثية، ومبنى مفقس للطيور ينتج أربعين ألف طير شهريا، ومضيف لكبار الزوار يحتوي على ٢٠ غرفة نوم.

ولأن الطموحات كبيرة في أن تكون الجزيرة منتجعا سياحيا عالميا، فهناك أفكار بإنشاء مشاريع مستقبلية تتضمن مدرسة ركوب الخيل بمقاسات عالمية، والمستشفى البيطري، ومنطقة الهجن التي تحتوي على متحف وحظائر للهجن إضافة إلى مبانٍ إدارية وسكنية، ومنصة للمتفرجين على ركوب الخيل، وشاليهات خشبية داخل البحر في منطقة القرم، ومطعم يتسع لـ٤٠٠ شخص، ثم القرية التراثية التي تتكون من فندق على شكل قلعة ومجموعة من الفلل، والمتحف



الطيور بلا قيود في
جزيرة الأحلام



غزلان تمرح بحرية .. في محمية السمالية

الوطني للأحياء المائية.

أنشطة بعبق التراث

عندما هممنا بالرحيل.. كانت أفواج الطلاب المشاركين في الملتقى الربيعي العاشر قد بدأت تتوافد على الجزيرة للاستمتاع بالأنشطة التراثية التي قال عنها سعيد المناعي رئيس قسم الانشطة: إنهم يمارسون أكثر من ١٣ نشاطاً تراثياً وثقافياً محبباً للنفوس.. يعايشون فيها تراث آبائهم وأجدادهم.. ويتعلمون منه الجدية والصبر ويتعرفون على الجَلَد ومتعة التراث.. فهم يمارسون الرماية والسباحة وركوب الخيل والهجن، ويلعبون الألعاب الشعبية المختلفة، ويعيشون التقاليد والعادات العربية الأصيلة، يأكلون الأكلات الشعبية ويمارسون نشاطاً ثقافياً مصاحباً للألعاب، ويشاركون في نشاط كشفي للتعرف على الجزيرة وأقسامها ومحتوياتها، والمسير الليلي والمشاركة في برنامج «الرحالة المغامرون»، إضافة إلى برامج البيئة التي يتعرفون خلالها على بيئة بلادهم وكيفية الحفاظ عليها والاهتمام بها.

جزيرة السمالية بدايتها كانت حباً في التراث.. ومشوارها يحث الخطى نحو التراث.. وغدها وتطلعاتها أن تكون.. جزيرة للأحلام الوردية.. ومحمية طبيعية.. للأنشطة التراثية.



النفوذ العثماني في إمارات الساحل المتصالح

■ خليفة سيف الطنيجي*

ترجع علاقة العثمانيين[1] بالخليج العربي إلى عهد السلطان سليمان القانوني، الذي أرسل حملة بحرية بقيادة محمد فروخ باشا، استطاع بها انتزاع إقليم الإحساء من أيدي البرتغاليين، وسيطر على القطيف وساحل الخليج عام ١٥٥٥م، ثم دخل الأسطول العثماني بالتعاون مع أهالي المنطقة في صراع مع الوجود البرتغالي في القرن السادس عشر، إلى أن تم لهم طرد البرتغاليين من المنطقة بدعم من اليعاربة في عمان عام ١٦٥٠م، وعلى الرغم من ذلك فإن التواجد العثماني بمنطقة الخليج كان متقطعاً خلال الفترة من عام ١٥٥٥م إلى عام ١٩١٤م، وهو العام الذي غادر فيه العثمانيون المنطقة نهائيا.

* باحث في التراث و التاريخ
altunaiji1@yahoo.com

وقد بدأ التوجه العثماني نحو الخليج العربي بحملات محمد علي[٢] وأبنائه على الحجاز ونجد في القرن التاسع عشر، والتي استمرت خلال الفترة من ١٨١١-١٨١٨م. حيث أعلنت الدولة العثمانية ضم الحجاز إلى مملكتها بعد أن تم لها غزو مصر عام١٥١٧ م، لكن حقيقة الأمر أن هذا التواجد كان شكليا فقط، إلى أن نجح الأمير سعود الكبير في تخليص منطقة مكة المكرمة من النفوذ العثماني عام ١٨٠٣م، ثم المدينة المنورة في عام ١٨٠٦م.

أما منطقة نجد فلم تدخلها قوات عثمانية أصلاً، حيث لم يكن بها ما يغري العثمانيين على اقتحامها، بسبب طبيعتها الصحراوية وسيطرة النظام القبلي عليها، بالإضافة إلى كونها منطقة داخلية لا توجد بها تجمعات سكانية، وقد ظلت نجد تعيش في ظل نزاعات قبلية وعدم استقرار حتى نجح التحالف بين محمد عبد الوهاب ومحمد بن سعود في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي (١٧٥٠م) في توحيدها تحت حكم آل سعود، بينما سقطت الدرعية في أيدي العثمانيين عام ١٨١٨م.

وبالنسبة للإحساء، فقد دخلها جيش عثماني قادم من البصرة عام ١٥٥٥م في عهد السلطان سليمان القانوني، ثم استخلصها من العثمانيين براك بن عريعر بن عثمان بن سعود آل حميد من بني خالد عام ١٦٧٠م، وطرد الحامية العثمانية منها، وظلت السلطة في أيدي بني خالد حتى دخلت الإحساء تحت حكم آل سعود في ظل دعوة التوحيد والإصلاح عام ١٧٩٢م.

لم تكن الدولة العثمانية تهتم بما يحدث داخل الجزيرة العربية، حيث لم تكن لها ممتلكات هنالك، ولكن عندما امتد نفوذ الدولة السعودية الأولى إلى شواطئ الخليج العربي وجنوب العراق، بدأ القلق يحرك الدولة العثمانية نحو طموح الدولة السعودية، فكلفت سليمان باشا الكبير والي العراق بمحاربة السعوديين، فأرسل حملتين على الإحساء عام ١٨٠٢م، و حملة ثالثة إلى القصيم، وجاء التوسع السعودي على حساب الوجود العثماني لانشغال الباب العالي بحملة نابليون بونابرت على مصر.

وعاد التوجه العثماني نحو الجزيرة العربية والخليج مرة أخرى على يد محمد علي باشا وأسرته، ليس لإعادة السيطرة العثمانية على المدن المقدسة في الحجاز والموانئ الهامة على سواحل الخليج فقط، بل لبناء دولة أو إمبراطورية إسلامية، وكانت بلدان الخليج ضمن قائمة البلدان التي تنوي أن تؤسس عليها الدولة العثمانية تلك الإمبراطورية بقيادة محمد علي باشا، خاصة بعد فشل ولاة بغداد ودمشق والبصرة في القضاء على نفوذ الدولة السعودية الأولى، فلجأ العثمانيون إلى محمد علي باشا والي مصر لكي يقوم بتلك المهمة في عام ١٨٠٦م، لكنه لم يتمكن من إرسال حملته إلا في أغسطس من عام ١٨١١م بعد أن تخلص من خطر المماليك.

وقد استمرت حملات محمد علي باشا وولديه طوسون وإبراهيم على الحجاز ونجد في الفترة من عام ١٨١١-١٨١٨م، وانتهت بسيطرة محمد علي على كل الحجاز ونجد، وسقوط الدرعية على يد إبراهيم باشا، وانتهاء الدولة السعودية الأولى التي استمرت قرابة ٧٥ عاما.

اتسمت سياسة الدولة العثمانية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بمحاولة استعادة نفوذها الإسمي على السواحل الشرقية للجزيرة العربية إداريا وسياسيا وعسكريا ، وذلك باختيار ولاة ذوي كفاءة عالية في البصرة، ومنحهم صلاحيات واسعة، واعتبارهم مسؤولين مسؤولية كاملة عن شؤون الخليج العربي، فأصبحت البصرة وفقا لذلك القاعدة العسكرية والسياسية للنشاط العثماني الموجه إلى منطقة الخليج العربي، ومع ذلك فإن سلطات والي البصرة كانت تتعرض لتقلبات كثيرة وشديدة، فأحيانا يكون مسيطراً على قطر ويتدخل في البحرين ويصدر الأوامر إلى الإحساء، وأحيانا أخرى يتقلص نفوذه إلى درجة كبيرة في المنطقة ذاتها.

وظل العثمانيون على اهتمامهم بالخليج العربي حتى بعد انسحاب إبراهيم باشا عام ١٨١٩م، فتم تنظيم حملة مدحت باشا عام١٨٧١م، لإعادة النفوذ العثماني إلى المنطقة، مما أدى إلى تدخل ولاة بغداد والبصرة في أحداث الخليج، غير أن الوجود العثماني الفعلي في مناطق خارج ولاية البصرة لم يكن سهلاً، لأن بريطانيا[٣] كانت صاحبة الكلمة العليا في الخليج العربي منذ عام ١٨٢٠م مع معاهدة السلام، لهذا كانت الدولة العثمانية لا تمتلك غير السيادة الإسمية على بعض مناطق الخليج العربي منذ ذلك الحين، حتى توقيع اتفاقية عام ١٩١٣م لتحديد الحدود ومناطق النفوذ بين بريطانيا والعثمانيين .[٤]



مناطق نفوذ الدولة العثمانية

سلطان بن صقر القاسمي والعثمانيون

تفيد بعض الدراسات أن الشيخ سلطان بن صقر القاسمي القائد القاسمي الكبير، استطاع الخروج من الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى عام ١٨١٢م، حيث كان يحتجزه فيها الإمام سعود بن عبد العزيز، وبخروجه حاول طوسون باشا قائد الحملة العثمانية في الحجاز الاتصال به لمساعدته في تولي القيادة من جديد في إمارة الشارقة، التي استعادها بفضل مكانته ودوره القيادي كزعيم للقواسم وتعاون القبائل معه فيما سمي بحلف القواسم.

على الرغم من الموقف السابق للإمام سعود بن عبد العزيز من الشيخ سلطان القاسمي الكبير.. إلا أن الأخير أرسل قوات من إمارات الساحل محمولة على ١٧ سفينة ووصلت إلى ساحل الإحساء فعلا لفك الحصار الذي فرضته القوات العثمانية على الدرعية سنة ١٨١٨م[٥]، لكن وصولها كان متأخراً بعض الشيء، فعادت إلى بلادها عن طريق البحرين، وحين وصلت قوات إبراهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر إلى القطيف على ساحل الخليج العربي في نهاية ١٨١٨م، وجدت في تلك البلدة حامية من القواسم، ورغم علم العثمانيين أن وجود تلك الحامية كان لفك الحصار عن الدرعية، إلا أنهم سمحوا لها بمغادرة الميناء إلى البحرين.

ولم تقف بريطانيا موقف المتفرج على تلك الأحداث وكانت لها اليد الطولى في المنطقة.. بل شاهدت ودرست وتصرفت بذكاء كي تستفيد من تتابع الأحداث، فأرسلت الحكومة البريطانية الهندية الكابتن جورج فورستر سادلير يوم ١٤ إبريل ١٨١٩م للاجتماع بإبراهيم باشا بعد وصوله إلى القطيف لاستطلاع نواياه السياسية، ثم التعاون معه في الهجوم على ما كانت تسميه بريطانيا «موانئ القراصنة»، وتعني بها موانئ القواسم على ساحل الإمارات، ولكن ذلك التعاون لم يكتب له النجاح لانسحاب إبراهيم باشا من المنطقة في العام نفسه.

مراسلات خورشيد باشا مع إمارات الساحل

شهدت منطقة الساحل المتصالح في أعقاب سقوط الدرعية (١٨١٨م)، عملاً حربياً قامت به بريطانيا ضد القواسم، حيث نجح قائد الحملة البريطانية الجنرال

كير، في احتلال رأس الخيمة عام ١٨١٩م، وفي الوقت نفسه تمكن القائد العثماني خورشيد باشا من السيطرة على مناطق ساحل الخليج العربي في الإحساء ونجد وقطر والبحرين، وبسط نفوذه على القطيف، وعقد وكيله اتفاقاً مع أمير البحرين الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة، وتطلع إلى بسط نفوذه على منطقة البريمي وإمارات الساحل، فأرسل سعيد بن مطلق المطيري إلى شيوخ الإمارات حاملاً إليهم رسائل خورشيد باشا للحصول على الولاء لخالد بن سعود حاكم نجد المتعاون مع الدولة العثمانية، وكذلك حول تنصيب سعد بن مطلق المطيري أميراً في البريمي بدلاً من حمد بن يحيى.

وحينما كان المطيري في طريقه لتولي الإدارة في البريمي، التقى حمد بن يحيى في رأس الخيمة الذي أخبره بأن قبائل البريمي ثارت عليه، وطردته هو والحامية الموجودة، فتوجها إلى الشارقة حيث استقبلهما حاكمها الشيخ سلطان بن صقر القاسمي، ووضع تحت إمرتهما بيتاً حصيناً وقلعة ليقيما فيها، وفي محاولة منه لاستعادة الوضع، أرسل سعد بن مطلق المطيري إلى خورشيد باشا طالباً منه تزويده بقوة من «فداوية الفرسان» والمشاة، وحينما وصلت الإمدادات وجه الشيخ سلطان رسالة إلى سعد بن مطلق المطيري، يطلب فيها منه مغادرة الشارقة بناء على طلب وبضغط من هنيل المقيم البريطاني في المنطقة، لإخلاله بشروط معاهدة الصلح المبرمة بين شيوخ الساحل والحكومة البريطانية عام ١٨٢٠م، فانسحب سعد المطلق إلى الإحساء عام ١٨٣٩م. بعد أن مكث نحو سبعة أشهر في المنطقة.

مدحت باشا ومحاولاته مد نفوذه إلى أبوظبي

بعد احتلال مدحت باشا لقطر عام ١٨٧١م، أخذ يوسع سلطاته في المنطقة مما أثار حفيظة السلطات البريطانية، فأخذ حليفه الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني المعين من مدحت باشا قائم مقام في قطر، يرسل مندوبين يحملون أعلام الدولة العثمانية إلى شيخ القبيسات بطي بن خادم ليرفعها على منطقة العديد التي كانت تتبع الشيخ زايد بن خليفة حاكم إمارة أبوظبي(١٨٥٥-١٩٠٩م) ، وقبيلة القبيسات هي فرع من حلف بني ياس الذي يشكل العمود الفقري لإمارة



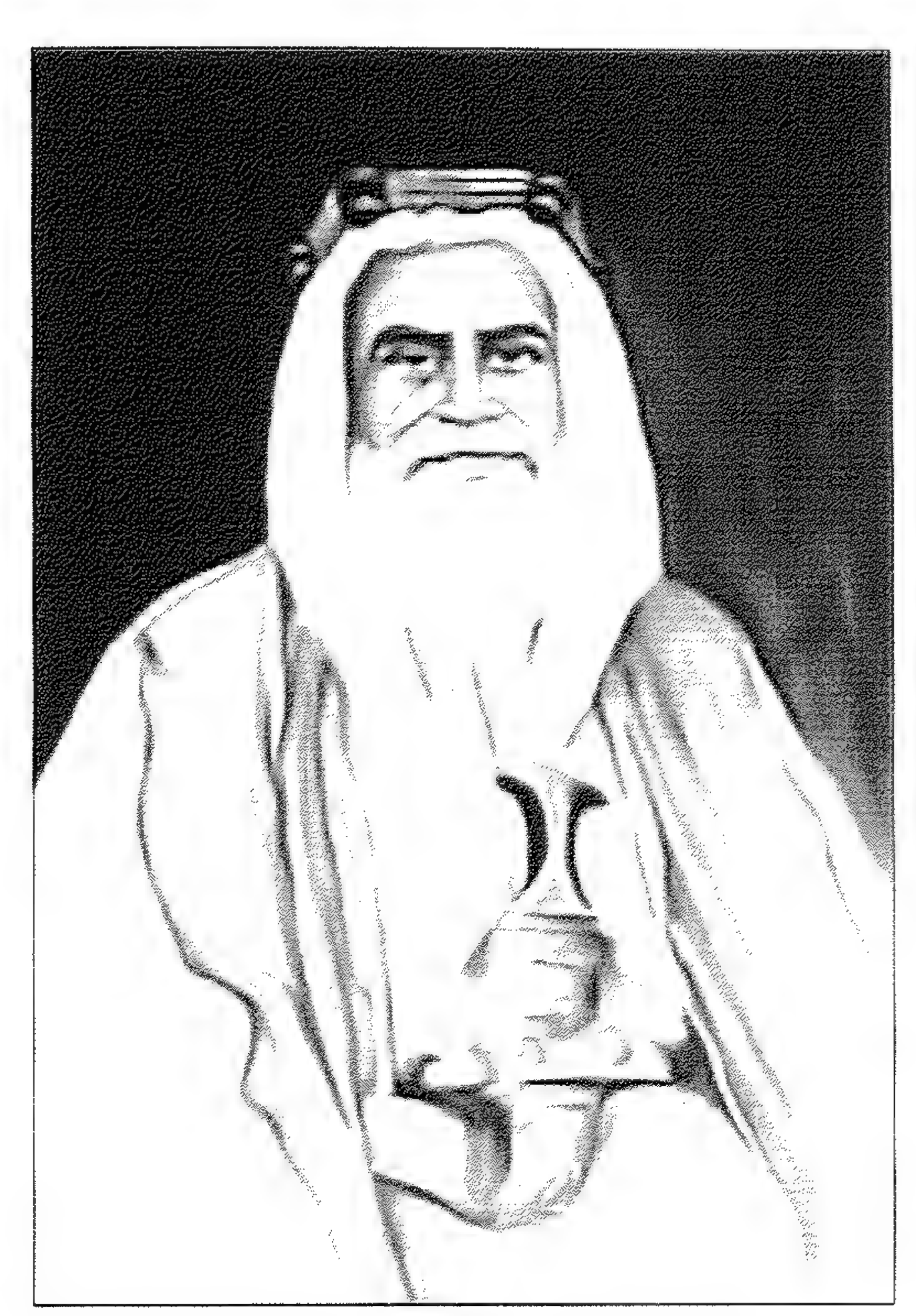
مدحت باشا

أبوظبي، وقد نزلوا (القبيسات) في منطقة العديد التابعة لإمارة أبوظبي بعد انفصالهم عن بني عمومتهم عام ١٨٣٥م، وكانت الخلافات تسري بين أبناء العمومة بطريقة أو أخرى، واستمر القبيسات يتركون العديد ويرجعون إليها ردحاً من الزمن، فقد سكنوا المنطقة عام ١٨٤٩م، ثم تجدد الخلاف فتركوها ثم رجعوا إليها عام ١٨٨٩م.

العديد ومحاولات السيطرة العثمانية

في عام ١٨٩٢م أرسل وزير خارجية الدولة العثمانية سعيد باشا برسالة إلى المقيم البريطاني في بوشهر المقدم تابوت، يطالب فيها ببلدة العديد، وجاء في الرسالة: «إنه إذا كانت الحكومة العثمانية قد تغافلت في السنوات السابقة عن تعيين مدراء عثمانيين في الزبارة والوكرة والعديد، فإن ذلك لم يكن إلا بصفة مؤقتة وبقصد عدم الاحتكاك بين الدولتين الصديقتين، ولكن الحكومة العثمانية لا تزال تتمتع بحقها على هذه المديريات».

فما كان من الحكومة البريطانية إلا أن أرسلت نسخة من المعاهدة المانعة [1] إلى الحكومة العثمانية للإطلاع عليها و تحذيرها من التدخل في شؤون الإمارات


زايد بن خليفة الأول

مستقبلاً.

في عام ١٨٩٦م حاولت الدولة العثمانية إنشاء مخافر عسكرية في منطقة العديد وغيرها من الموانئ الواقعة على ساحل الخليج العربي، وهنا عارضت بريطانيا إنشاء تلك المخافر بناء على معاهدة عام ١٨٥٣م ومعاهدة عام ١٨٩٢ التي أعطتها التمثيل الخارجي نيابة عن إمارات الساحل المتصالح، لذا عارضت بريطانيا نيابة عن إمارة أبوظبي ذلك الأمر، وأبلغت الباب العالي للدولة العثمانية، بأن السلطات البريطانية تعتقد أن إنشاء مناطق عسكرية في العديد أمر يتعارض مع موقف شيخ أبوظبي(زايد الأول)، الذي له حقوق هناك.

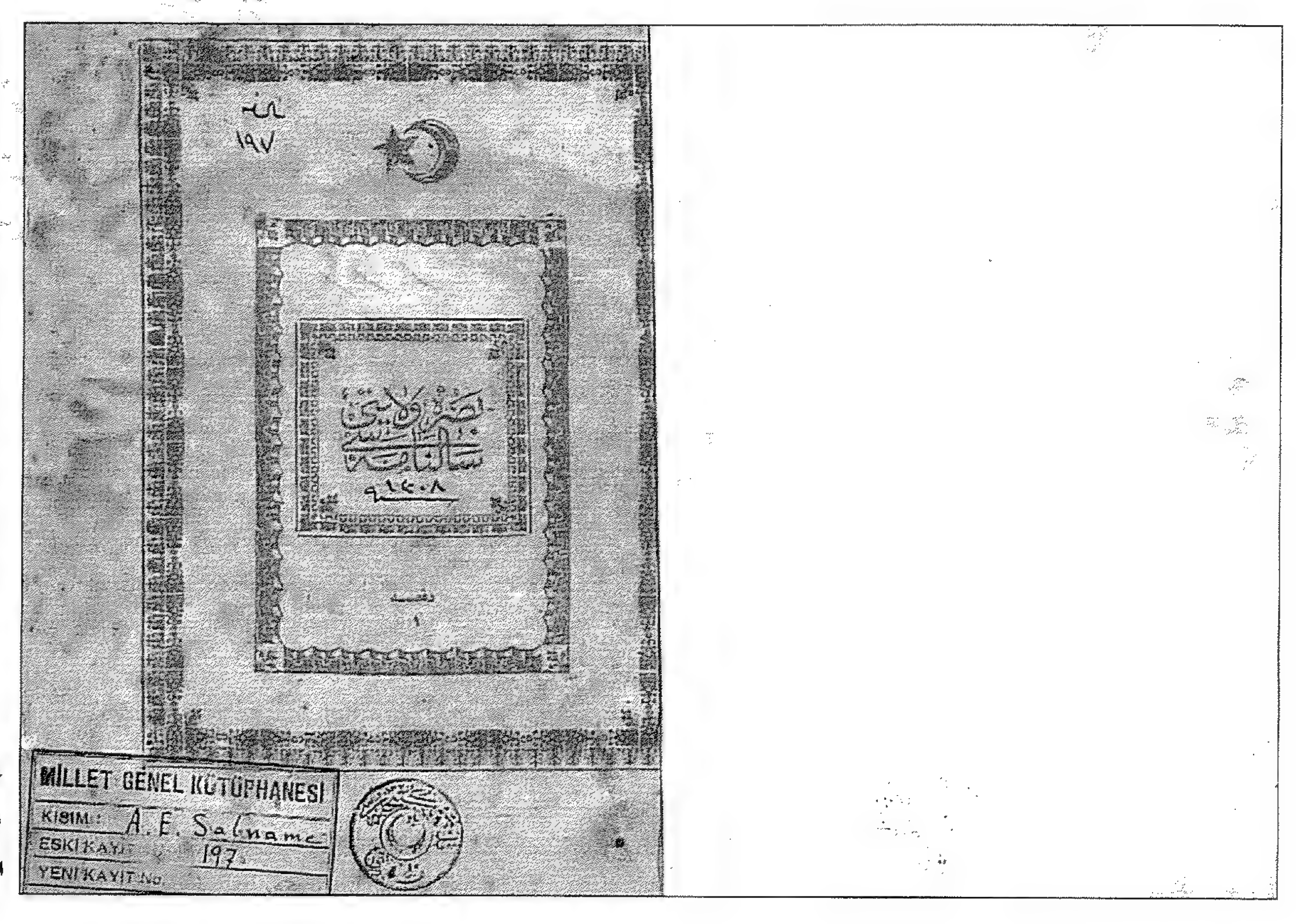
ومما يلفت النظر، أن العديد ظلت موضعا للمباحثات بين الحكومتين البريطانية والعثمانية حتى السنوات الأولى من القرن العشرين، ففي عام ١٩٠٢م أعلنت الدولة العثمانية عزمها على ضم العديد إلى إمارة قطر، غير أنها عدلت عن ذلك لاحتجاج بريطانيا، وفي عام ١٩٠٥م أبلغت الحكومة البريطانية الدولة العثمانية بأن العديد تدخل ضمن المقاطعات الإقليمية لإمارة أبوظبي، التي تدخل ضمن الحماية البريطانية، وتعهدت من جانبها بالحيلولة دون أن تجعل أي قوة من الخارج تمتلك هذه المنطقة، وإن كان ذلك لم يحل دون عودة العثمانيين إلى السيطرة على العديد عام ١٩١٠م، أي بعد عام واحد من وفاة زعيم أبوظبي زايد الأول، مما كان مبعث اعتراض شديد من الحكومة البريطانية على هذه السيطرة، حتى جاء اتفاق عام ١٩١٣م لينهي بشكل كامل الوجود العثماني في المنطقة مع بوادر الحرب العالمية الأولى.

زايد بن خليفة الأول والعثمانيون

كانت طبيعة الوجود العثماني في المنطقة تختلف أيديولوجيا عن طبيعة الوجود الاستعماري لبريطانيا، فشيوخ المنطقة جميعهم بمن فيهم الشيخ زايد بن خليفة حاكم إمارة أبوظبي وأهل الرأي فيها كانوا يعدون الإنجليز أمة وافدة للهيمنة على المنطقة بالقوة الصريحة، بينما ينظرون إلى القوة العثمانية في إطار من الرابطة الإسلامية بحسبانها دولة الخلافة.

لذا اعتمد الشيخ زايد الأول في تعامله مع هاتين القوتين الدوليتين، سياسة توازن مرنة للحفاظ على وحدة إمارته، مستغلا هامش المناورة التي قد تتيحها له الظروف الدولية من جانب، وعلاقة الدولتين البريطانية والعثمانية بعضهما ببعض من جانب آخر، حيث عمد زايد إلى توظيف المد العثماني في الخليج، بما يحمل من مؤثرات إسلامية لتخفيف قيود الهيمنة البريطانية على بلاده، كما عمل على الاستفادة من تعارض أهداف القوتين المذكورتين في الخليج العربي لخدمة أهدافه في تحقيق التكامل والاستقلال الوطني، وإعادة ربط القبائل والجماعات والمناطق التي تخرج عن سلطته إلى سابق عهدها من الولاء، وقد أفلحت سياسته في هذا المجال رغم ضيق حيز التحرك المتاح له، ولاقت نجاحا ملحوظا في تحقيق غاياتها.

كان الشيخ زايد بن خليفة حاكم إمارة أبوظبي (١٨٥٥-١٩٠٩م)، أسبق شيوخ الساحل المتصالح اتصالا بالعثمانيين في الإحساء، فبادر بالكتابة إليهم منذ أوائل ١٨٧٢م، مرحبا بظهورهم في المنطقة، وهنا عبرت السلطة البريطانية في منطقة الخليج العربي، حين علمت بهذا الاتصال، عن خوفها من أن يخترق العثمانيون منطقة الساحل المتصالح ومنها إلى عمان، رغم إدراكهم أن الشيخ زايد وإن كان قد مد يده إلى العثمانيين فإنه لم يصافحهم، لأنه يدرك أن هنالك ثوابت سياسية، وأن هذا الخط السياسي يتميز بالثبات في سياسة شيوخ آل نهيان تجاه أصدقائهم في عمان، وكذلك تفهم أسس السياسة



غلاف السنامة (الحولية أو الكتاب السنوي)

البريطانية في المنطقة.

وفي عام ١٨٧٤ قام ضابط من رئاسة الأركان العثمانية، وهو القائد فريق باشا بزيارة الإحساء، ويبدو أنه اقتنع بوجهة نظر الضباط بأن هنالك ضرورة للتحرك جنوباً على ساحل الخليج نحو الإمارات وعمان، وإثارة المشاعر الدينية الإسلامية عند الحكام لإبعاد النفوذ البريطاني عن المنطقة، وبالفعل وصلت إلى كل من الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبوظبي والشيخ حشر بن مكتوم حاكم دبي، رسائل موقعة من يوسف أفندي قائد الحامية التركية في قطر، يؤكد لهما فيها رغبة الحكومة العثمانية في التفاهم مع كافة مشايخ وحكام المنطقة لتنظيم علاقات جديدة في الأمور السياسية و التجارية.

في ذلك الوقت، كانت علاقة الدوحة وأبوظبي مغلفة بالدعم العثماني لسياسة الدوحة أثناء تواجده في قطر، وقد ازدادت تعقيداً لثبات الشيخ زايد بن خليفة على سياسة الحفاظ على وحدة أرض إمارته، ففي ٢٦مارس١٨٧٨م توجه الشيخ زايد نحو العديد فوجدها خاوية على عروشها، فاستعادها إلى إمارته، وهنا احتجت الأستانة العثمانية على ما قام به شيخ أبوظبي في منطقة العديد، وادعت المذكرة العثمانية أنها تابعة لقطر، وجاء رد الحكومة البريطانية الهندية بأن «العديد من توابع شيخ أبوظبي الذي تربطنا به علاقات تعاهديه منذ بضع سنين، ومع اعترافنا بأن الشيخ بطي بن خادم القبيسي كان في بعض الأحيان يرفع العلم العثماني، ويدعي الحماية العثمانية، ويدفع الضرائب للبدع(٧)، إلا أننا لم نعترف له بذلك أبداً، فإعلان الحماية العثمانية على هذه المنطقة التابعة لأبوظبي فيه اعتداء على حقوقها وانتقاص لأراضيها، أما إذا سلمنا بوضع شيخ العديد وقبلنا بإسباغ الحماية العثمانية عليه فسنجد أن هنالك شيوخاً عديدين سيعتبرون أن من مصلحتهم الخروج على حكامهم، فأكثر من قرن والعديد من ممتلكات أبوظبي ويمارس شيوخها فيها حقوق السيادة».

تلقى الشيخ زايد بن خليفة في٢٢ / ٦ / ١٨٨٦م رسالة من قبطان المدمرة العثمانية (زحاف) يبلغه فيها بأن قطر تعتبر جزءاً من نجد، وأن نجد تعد أحد أقضية متصرفية البصرة في العراق، وأن والي البصرة علي رضا باشا أصدر أوامره إلى الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني قائم مقام في قطر باستعادة العديد، إلا أن سرعة بديهة الشيخ زايد وفطنته حالت دون ذلك، إذ أسرع بمراسلة المقيم البريطاني في بوشهر الذي أرسل سفناً



النقود المحمودية (العملة العثمانية التي كانت تستخدم في المنطقة)

حربية لمنع وصول الشيخ جاسم إلى العديد.

فقد نجح الشيخ زايد بن خليفة في دبلوماسية عدم معاداة السلطات العثمانية التي لها حماية بالقرب من أراضيه حتى رحيلها عن المنطقة، ومحاولة كسب القوة البريطانية في المنطقة إلى جانبه.

نهاية الوجود العثماني في المنطقة

لم تبد الدولة العثمانية اهتماماً كبيراً بمنطقة الساحل المتصالح إلا على فترات متباعدة، تحسباً للوجود البريطاني في المنطقة وانشغال الدولة العثمانية بالحروب في كافة مناطق نفوذها، إلى جانب قوة وتماسك إمارات الساحل المتصالح بقيادة حكامها العظماء، إلا أن ذلك لم يقف عائقا أمام أهل المنطقة في أن يحملوا لها تقديراً خاصاً، بوصفها دولة إسلامية كبيرة، يمكنها الوقوف إلى جانبهم في مواجهة الاستعمار كما كان في بداية اتصالها بالمنطقة لطرد الوجود البرتغالي بالتعاون مع أهل المنطقة، إلا أن الدولة العثمانية كعادتها لم تلب النداء عند كل استغاثة، ففي أعقاب اعتداء جنود سفينة هياسنث البريطانية في ديسمبر ١٩١٠م على بعض منازل أهل دبي بحثاً عن السلاح، وإطلاق السفينة النيران على دبي، اتصل شيخها (بطي بن سهيل ١٩٠٦-١٩١٢) بالدولة العثمانية طالبا مساعدتها، ولكنها عجزت عن تقديم المساعدة إليه، ورغم موقف الدولة العثمانية هذا فإن أهل الساحل المتصالح وشيوخه جمعوا إعانات

(١٣٩)
(نجد لواسنك جغرافيای طبیعیی)

(جغرافيا لوآ نجد الطبيعيه)

(تركی)	(عربی)
برده قطره يومی معين اولميدرق عند الا- قتضا كيدر برساعی مخصوص واردر لواده برطابور ضبطيه ايله برطابور پياده وبر مقدار سواری عساكر شاهانه موجوددر ارالقده بندر بوشهردن اخذ وعطا ايچون كلكده وجزوی مدت قالقده بولنان برايكی نفر ايرانلودن بشقه تبعه اجنبيه و بناء عليه قونسلو- سلر يوقدر اهالی لوا كافة اسلام اولوب ايچلرنده طوايف شيعيده واردر برلی اولهرق ورادده خرستيان ويهودی واديان سائره دن كيمسه كورلمشدر مركز لوانك جنوب جهتنده ابنيه وشجرلری وانهارينك اثاری موجود بيرلشامنده بربلده قديمه واردر كه بوندن بش يوز سنه اول خراب اولمشدر مركز لوانك شرق طرفنده وبر ساعتلك مسافه ده اجوددينی زمانك مسكنی اولان بنی شائع امنده بر بلده نك اثاری باقی ايسه ده بلده مذكوره اوچيوز سنه اول خراب اولمش و ابتدء سندن دولت عليه نك اوحواليه استيلاسنه قدر بر مناره سی بنا اتديسه ده موخرا منهدم اولمشدر بونك برچشمه سی اولوب صوی اليوم جاريدر مركز لوانك درت ساعت قربنده واقع جوانا نامنده بر بلده نك اثاری حالا موجود وايچنده صحابه كرام حضرتلرينك قبور منورهلری	اما القطر فليس فيه بريدا معينا بل برسل ساعي مخصوص عند مس الحاجه وليس في اللوآء من الاجانب سوى بعض من ياتي من بوشهر من العجم للتجارة فيبقون اياما فلائلا فيرجعون و بناء على هذا فليس من القناصل الاجنبية في اللوآء احد واهالي اللوآء كلهم اسلام وفيهم من الطوائف المتشيعة وليس فيه غير الاسلام من النصارى واليهود وسائر الاديان وملل وفي جنوب اللوآء بلدة تسمى برلثو قد خربت من خمسماية سنة واثار الابنية فيها والانهار والبساتين هي باقية للان وفي شرق مركز اللوآء على مسافة ساعة البلدة التي كانت مسكنا الاجوداين زمالة المسماة بني شائع وقد خربت من الثماية سنة واثارها باقية حتى الآن وكانت فيها منارة قائمة الى استيلاء الدولة على نجد ثم انهدمت وفيها عين لما وهي تجري حتى الان وعلى مسافة اربعة ساعات من مركز اللوآء بلدة يقال لها جوانا وهي الان خربة وفيها قبور بعض الصحابة رضوان الله عليهم وقد بقي من آثارها الان بعض النخيل والابنية ويقال ان اول بلدة اقيمت الجمعة فيها بعد المدينة المنورة هي هذه البلدة واهاليها اول من اطاع النبي صلعم وقال عليه السلام

وصف لمنطقة الخليج في السنامة باللغة التركية وترجمتها إلى العربية

لمساعدة جنود الدولة العثمانية أثناء حربها مع إيطاليا في ليبيا عام ١٩١٢م.

فالعثمانيون كانوا قوة بحرية وسياسية و اقتصادية تميل إلى الأفول، ولا ننسى هنا أن الإنجليز أنفسهم أطلقوا على تلك الإمبراطورية مسمى «الرجل المريض»، وكان المريض يحاول أن يتعافى في بعض مراحل المرض، واستجابة لتحدي البقاء والمنافسة مع قوى الغرب المتكالبة عليه من كل اتجاه، وذلك عبر محاولة التحديث في بعض الأحيان للأجهزة العسكرية والسياسية والإدارية، لكنها محاولات قصيرة الأجل، لم تلامس جذور المشكلة فجاء العلاج سطحياً لمرض أعمق مما يبدو ظاهراً.

وجاء خروج الدولة العثمانية وتقلص نفوذها في المنطقة عقب اتفاق عام ١٩١٣م بين الدولة العثمانية والإنجليز، وكذلك اتفاقية ٩مارس ١٩١٤م التي حددت مناطق النفوذ البريطاني في المنطقة، وكانت بمثابة تخلي العثمانيين عن المطالبة بنفوذهم على مناطق في قطر والبحرين، وكذلك الاعتراف بالحرية الإدارية في الكويت.■

الهوامش:

١- ينتسب العثمانيون إلى قبيلة قاتي التركمانية عند بداية القرن السابع الهجري الموافق الثالث عشر الميلادي و التي كانت تعيش في كردستان وتزاول حرفة الرعي، وأثناء الغزو المغولي انتقلوا إلى آسيا الصغرى.

٢- وصل محمد علي باشا عن طرق الزعامة الشعبية إلى سدة الحكم في مصر ١٣ مايو ١٨٠٥م.

٣- في إطار منافسة الوجود البريطاني في منطقة الخليج العربي، أنشأت الدولة العثمانية أسطولا تجاريا باسم شركة «إدارة عمانية عثمانية» في عهد والي بغداد نامق باشا (١٨٦١-١٨٦٩م).

٤- على الرغم من العودة، فقد كان عدد الجنود المتواجدين قليلاً خلال الـ٤٤ عاماً الأخيرة من التواجد العثماني في المنطقة، ففي قطر٦٠ جنديا، وفي القطيف٩٦، والعقير٥٦، وذلك للاعتماد على القوة المحلية في الحماية.

٥- بلغ عدد جيش إبراهيم باشا المحاصر للدرعية نحو ٧٥٠٠ جندي، بينهم١٩٠٠ من الفرسان و ٥٦٠٠ من المشاة، وكانوا خليطاً من الألبان والأتراك والعرب، واستمر الحصار ستة أشهر.

٦- تعهد الحكام بألا يتخلوا أو يهدموا أو يرهنوا أو يسمحوا باحتلال أي جزء من أراضيهم إلا للحكومة البريطانية.

٧- وهو ميناء واقع على الساحل الشرقي لشبة جزيرة قطر، ومقر الحامية العثمانية.

المراجع

١- أحمد مصطفى أبو حاكمة، تاريخ الكويت، الجزء الثاني القسم الأول،الكويت١٩٧٣.

٢- رأفت غنيمي الشيخ، التواجد العثماني في الخليج العربي من خلال محمد علي، مجلة الوثيقة، العدد السادس عشر يناير ١٩٩٠م.

٣- جمال زكريا قاسم، دراسة لتاريخ الإمارات العربية١٨٤٠-١٩١٤م، دار البحوث العلمية الكويت، ١٩٧٤م.

٤- جون لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي الجزء الثاني، الديوان الأميري القطري ٢٠٠٢م الطبعة الثالثة.

٥- زكريا قورشون، العثمانيون وآل سعود في الأرشيف العثماني (١٧٤٥-١٩١٤م) العربية للموسوعات - ٢٠٠٥م.

٦- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، من وثائق شبة الجزيرة العربية في عصر محمد علي ١٨١٩-١٨٤٠م، دار المتنبي للنشر والتوزيع قطر ١٩٨٢م.

٧- عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، أبوظبي توحيد الإمارة وقيام الاتحاد، مركز الوثائق و البحوث ٢٠٠٤م.

٨- عبد القوي فهمي محمد، مشيخات ساحل عمان، رسالة دكتوراه غير منشورة ١٩٨٨م.

٩- عويضه بن متيريك الجهني، أثر الحملات العثمانية المصرية على نفوذ الدولة السعودية الأولى في عمان، مجلة الدارة، العدد الرابع السنة الثلاثون ٢٠٠٥م.

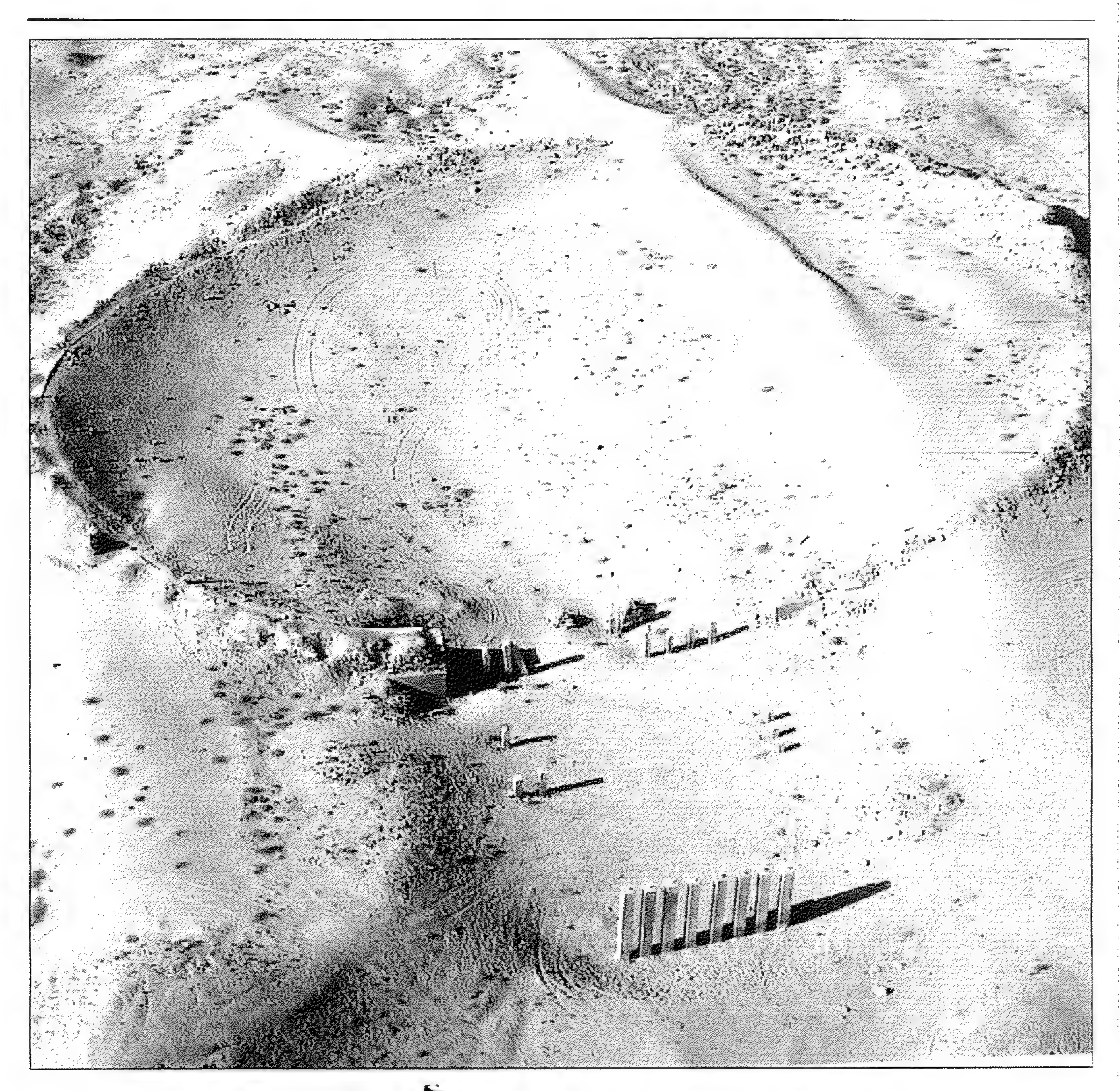
١٠- فائق حمدي طهبوب، الحملة العثمانية على شرق الجزيرة العربية عام ١٨٧١م ودورها في تشكيل القوى السياسية في المنطقة، مجلة الوثيقة، العدد ثلاثون يوليو ١٩٩٦.

١٠- فالح حنظل، المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة، الجزء الثاني، لجنة التراث و التاريخ، دار الفكر للطباعة ١٩٨٣.

١١- محمد مرسي عبد الله، محمد علي في الجزيرة العربية وعلاقاته بالخليج العربي١٨٠٧-١٨٤٢م ، مجلة الوثيقة، العدد السادس عشر يناير١٩٩٠.

١٢- محمد مرسي عبد الله، إمارات الساحل و عمان و الدولة السعودية الأولى ١٧٩٣-١٨١٨م، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، ١٩٧٨م.

١٣- مجلة الواحة، العدد ٣ السنة الثانية ١٩٩٠م.:



صورة للمعبد من الجو

معبد أوام

هل يُصبح أعجوبة الدنيا الثامنة؟!!

■ صنعاء/ محمد السيد - تصوير/ فؤاد الحرازي

أكد خبراء آثار غربيون وعرب أن اليمن على موعد في غضون السنوات القليلة القادمة مع تفجير «قنبلة أثرية» بامتياز، ربما غيرت مسار كتابة تاريخ المنطقة.

كل ما يطلبه هؤلاء هو فقط، الانتظار نحو عشر سنوات يتم بعدها أو قريباً من نهايتها إزاحة الستار عن مفاجأة أثرية مثيرة تشد إليها القلوب والأنظار، يُجمع أكثر من ٤٠ خبيراً وباحثاً عالمياً يعملون اليوم على كشف حقيقتها على أنها ستمثل أعجوبة جديدة من عجائب العالم، تصبح الثامنة إلى جانب العجائب السبع المعروفة سلفاً.

فبعد عقود من أعمال الحفر والتنقيب حقق علماء الآثار الأوروبيون واليمنيون إنجازاً أثرياً مُلفتاً تمثل في الكشف عن معبد «أوام» الذي يُعرف تاريخياً بـ (محرم بلقيس) -ملكة سبأ المذكورة في القرآن الكريم - والذي يخفي الكثير من الأسرار والمفاجآت.

وبحثاً عن الحقيقة طارت (تراث) على جناح الشوق واللهفة إلى محافظة مأرب اليمنية الواقعة على بعد ١٧٠ كم شرق العاصمة صنعاء، وعادت بهذه الحصيلة.

فإلى ما قبل شهر نوفمبر من العام ٢٠٠٠، لم يكن شيء من طموح خبراء الآثار الذين ينقبون في ذلك المكان قد برز إطلاقاً نحو هدف واضح يُرشح المعبد العتيق لاعتلاء المنصة الثامنة بين عجائب الدنيا. فآثار المعبد وأسراره لم تكن قد ظهرت حتى ذلك التاريخ، لكن بعثة آثار ألمانية كانت السباقة للكشف عن مفاجأة مثيرة تمثلت في المعبد الذي يطلق عليه أيضاً (محرم بلقيس) فقد أظهرت التنقيبات - حينها- أساسات المعبد الشهير والرئيسي للإله (المقة) إله الدولة السبئية.

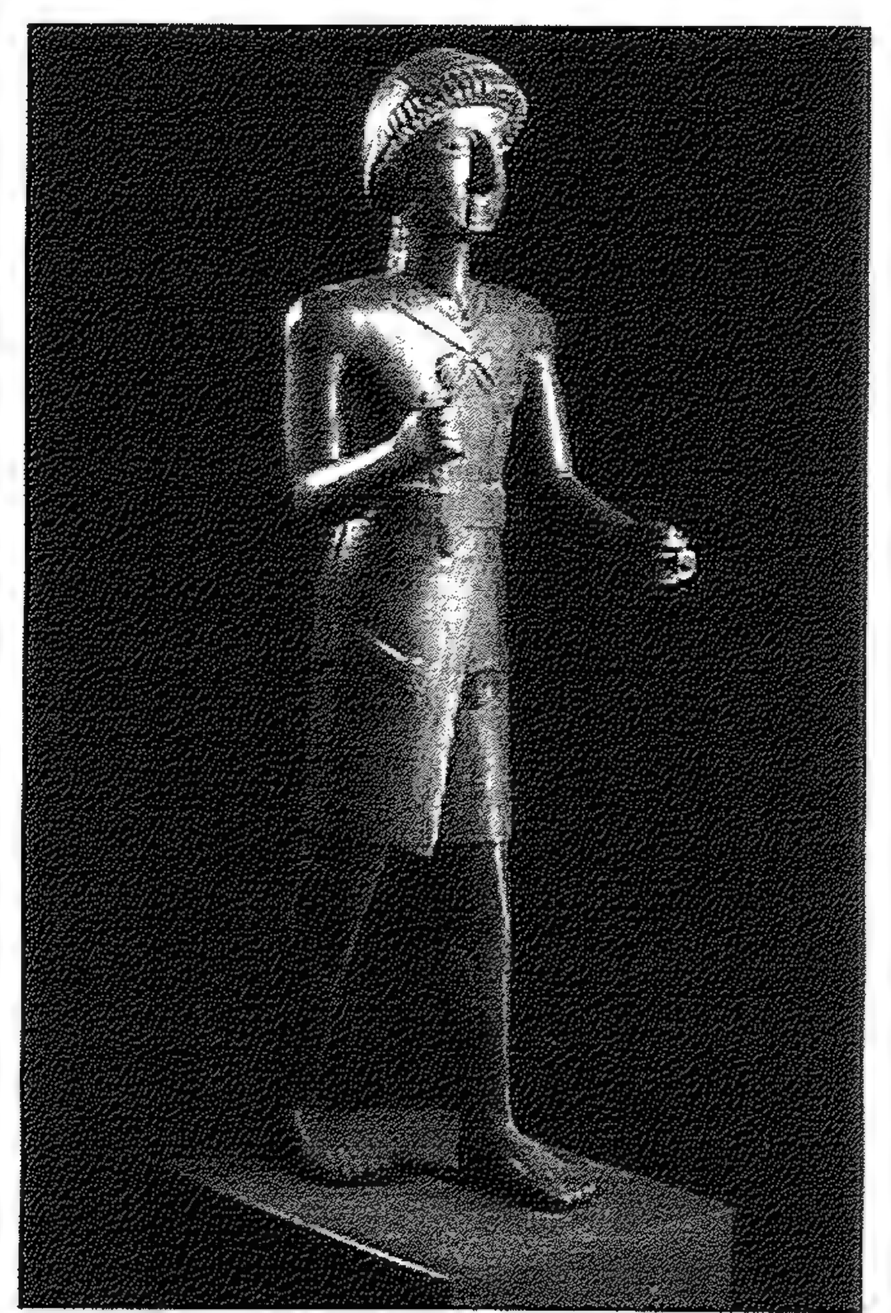
الطريق إلى الحقيقة!

لا يزال معبد «أوام» لغزاً مُتشعباً لدى البعثات الأثرية الغربية الوافدة إلى اليمن، في محاولات مستمرة للكشف عن أسرار المكان الذي مثّل بوابة مملكة سبأ الشهيرة، أعرق حضارة قديمة عُرفت في جنوب الجزيرة العربية وورد ذكرها في الكتب السماوية ومثلت في حينها المرتكز الأساسي للحضارات اليمنية القديمة، إذ اعتبر الحميريون امتداداً متكاملاً لملكة سبأ التي سادت كامل منطقة جنوب الجزيرة العربية، والبحر الأحمر، حتى مناطق إريتريا وأثيوبيا الشرقية في القرن الأفريقي.

لقد ظلت مأرب مهداً لحضارة إنسانية عظيمة يزيد عمرها عن ثلاثة آلاف سنة، كما ظلت أرضاً للأساطير والحكايات ، وجدناها اليوم تعيش حالة مخاض حقيقية، تحب أن تضع حملها وتكشف عن كنوز سبأ وحمير التي توارت منذ آلاف السنين في باطن أرضها، حيث امتزجت الحقيقة بالأسطورة.

معبد «أوام» الواقع إلى الجنوب من مدينة مأرب القديمة ،أحد الشواهد الهامة على عظمة هذه الحضارة الإنسانية، وأحد ألغازها الذي يرفض الإفصاح عن جميع أسراره بسهولة.

في المكان وجدنا أكثر من ٤٠ عالماً عربياً وأوروبياً يخوضون سباقاً محموماً مع الرمال التي تزحف على المعبد دون هوادة، مُصرة على دفن أسراره في باطن الأرض!



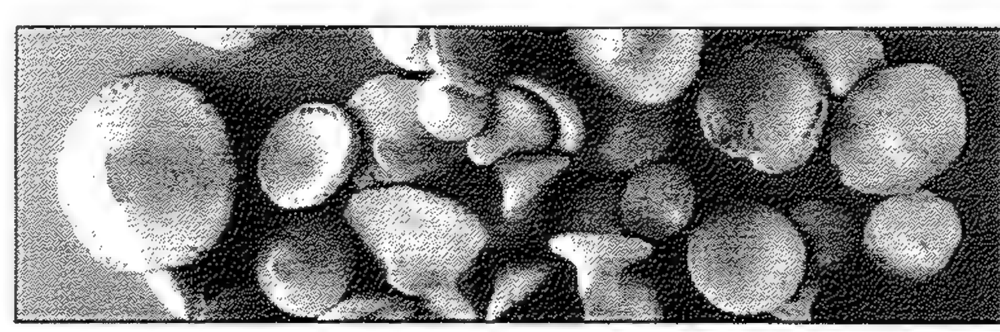
لقى أثرية عثر عليها في المعبد

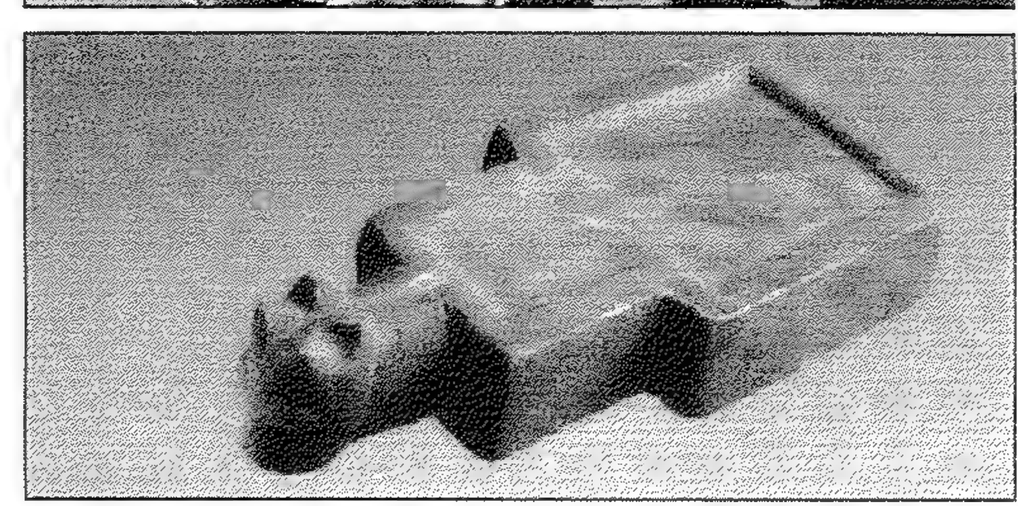
الشهرة العالمية للمعبد

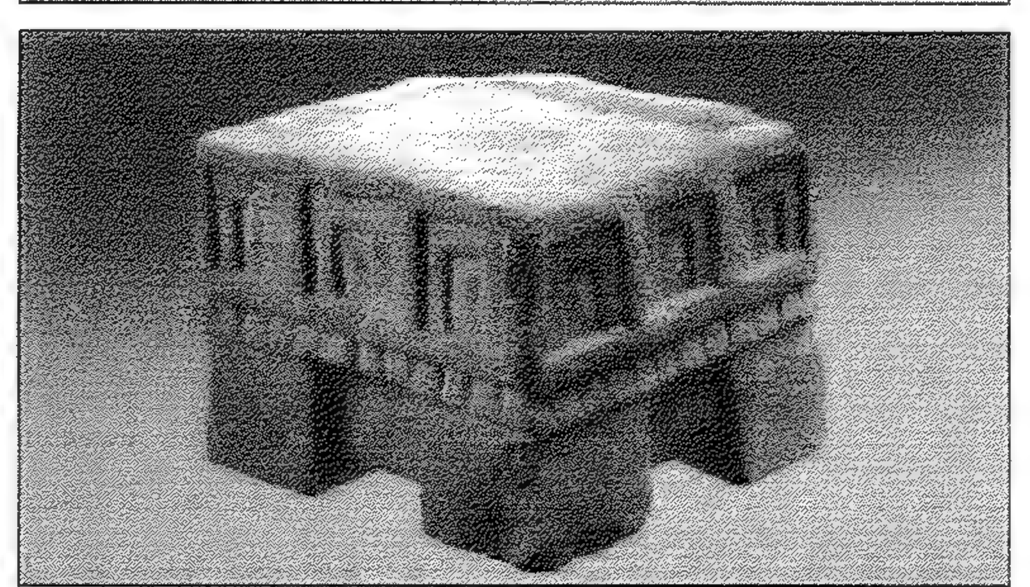
تعتبر نتائج الزيارات الاستطلاعية التي قام بها كل من (ادوارد جلازر) و(هيلفي) و(نزيه العظم) و(أحمد فخري) -جميعهم باحثون وعلماء آثار- وكذلك الدراسات والحفريات التي أجرتها المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان، من أهم المصادر التي جعلت معبد «أوام» مركز اهتمام علماء النقوش اليمنية والمؤرخين والأثريين والمستشرقين المهتمين بالدراسات اليمنية القديمة.

ففي عام ١٨٨٨م زار المعبد عالم الآثار الألماني جلازر وقام بوصف ما أمكن رؤيته من المنشآت المعمارية للمعبد ورسم مخططاً تقريبياً له، ونسخ أربعة نقوش سبئية عُثر عليها في الجزءين الجنوبي والشرقي لسور المعبد الدائري.

أما خبير الآثار نزيه العظم فيعد أول من قام بأخذ صور فوتوغرافية للمعبد الذي زاره عام ١٩٤٣م. وأعطى بدوره عالم الآثار أحمد فخري وصفاً دقيقاً للمعبد، مُصححاً بعضاً من ملاحظات (جلازر) آخذاً بعض الصور الفوتوغرافية للمكان، وقام بنسخ بعض النقوش السبئية عام ١٩٤٧م. أما المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان، فتعود أول حفريات لها هنا إلى الفترة (١٩٥١- ١٩٥٢م)، وذلك بقيادة الأمريكي ويندل فيليبس.. ونتج عنها تنظيف مدخل المعبد، والكشف عن البهو المعمد والمدخل الشمالي المؤدي إلى المباني







قطع أثرية من
معبد أوام



محافظة مأرب اليمنية تعيش مخاضاً عسيراً لميلاد مفاجأة أثرية تغير تاريخ المنطقة



الخارجية الملحقة بالمعبد والقريبة من الأعمدة الثمانية الكبيرة. كما كشفت عن البوابة المؤدية إلى فناء المعبد ذي السور الدائري ، بالإضافة إلى العثور على عشرات النقوش السبئية.

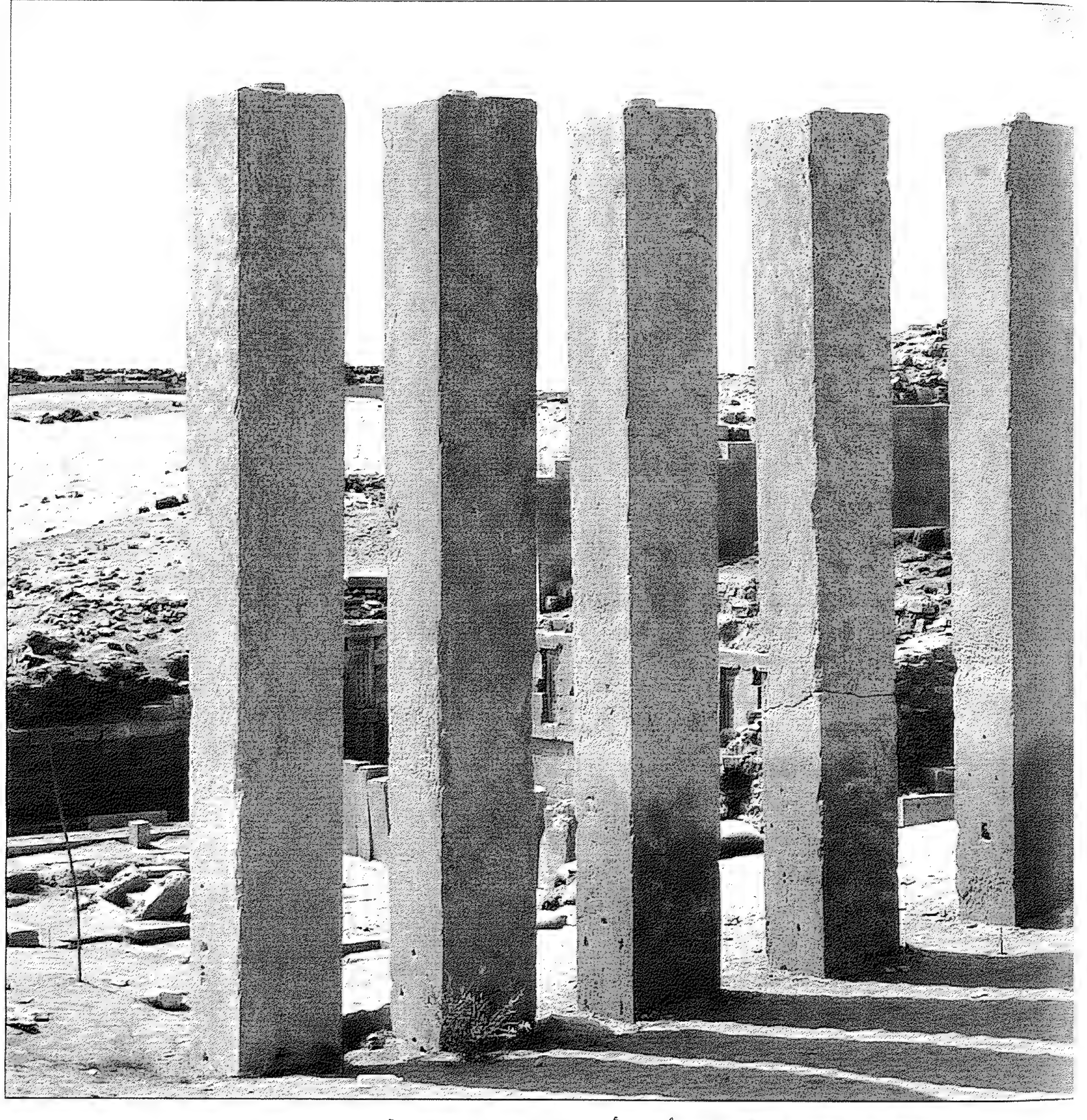
إلاَّ أن أعمال الحفر تلك توقفت حتى عام ١٩٧٧م، حينها توصلت الحكومة اليمنية إلى توقيع إتفاق مع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان للتنقيب عن المعلم المذكور، إمتداداً لعمليات تنقيب بدأت منذ ٥٥ عاماً بحثاً عن آثار مملكة سبأ.

ويقع معبد (أوام) في إطار مدينة مأرب القديمة التي تقع على الضفة اليسرى لوادي أذنة في مشارف صحراء صهيد، التي كانت تتحكم بطرق التجارة القديمة.

الشكل العام

وطبقاً لنتائج أعمال المسح فقد كشفت أن الشكل العام للمعبد دائري بمحيط يبلغ ٣٠٠ متر، فيما تبلغ المساحة الكلية له مع منشآته الملحقة بنحو (٦٠) ألف متر مربع.

وأظهرت نتائج مسح المؤسسة الأمريكية ارتفاع المبنى إلى حوالى ١٦ متراً، وتصل مجموع صفوفه المبنية من الأحجار المنعمة إلى ٤٦ صفاً متوسط ارتفاع



معبد أوام

الصف الواحد منها ٣٠ سم. ويُعتقد أن بناء المعبد استغرق حوالي ١٠٠٠ عام على مرحلتين.

وتقول المصادر الأثرية: إن سور المعبد الذي يبلغ طوله نحو ٢٥٧ متراً بسمك ٤ أمتار قد بُني من صخور كلسية من حجر البلق نقلت إلى الموقع وأضيفت لها كتل البازلت.

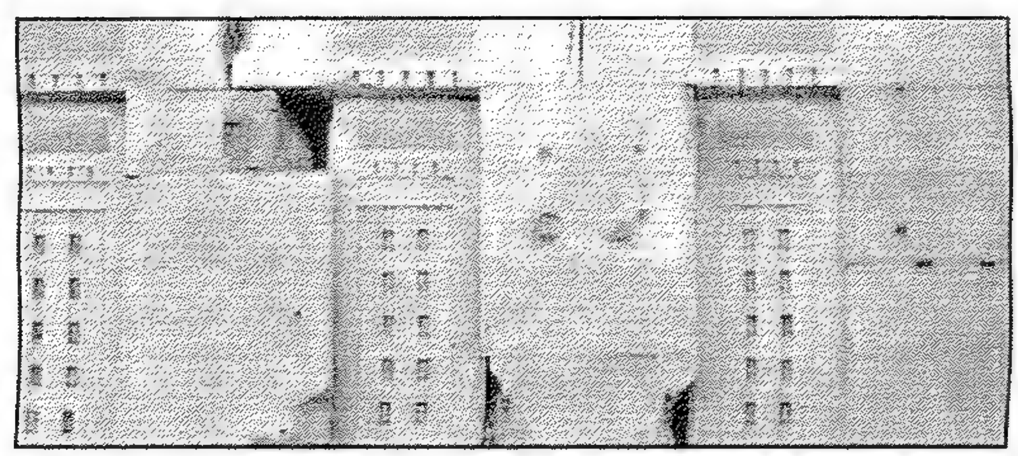
فقد استخدم في تشييد السور نظام المعاصم والمداميك للربط بين الواجهتين الداخلية والخارجية للسور الذي يبلغ عمقه ١٦ متراً تحت مستوى سطحه الحالي.

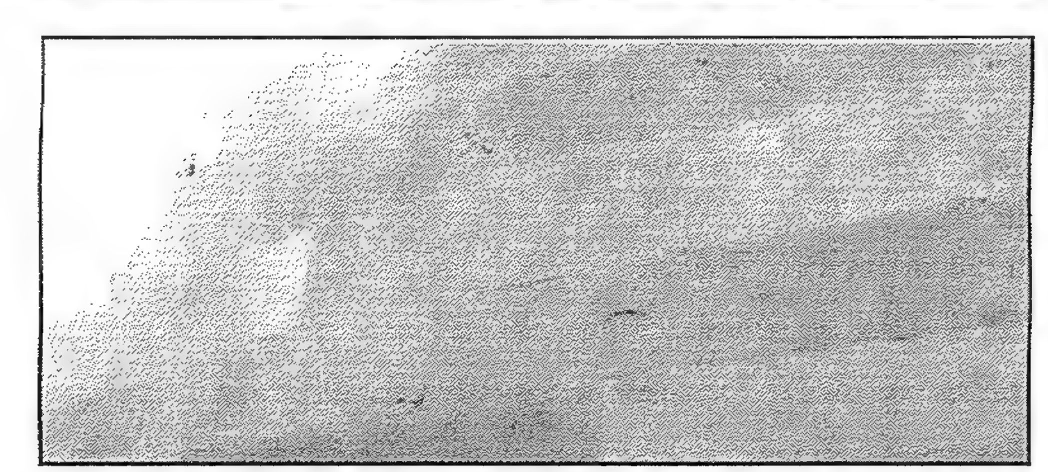
مفاجآت!

لقد تميزت مواسم التنقيبات الأثرية السابقة التي شهدها معبد «أوام»، بالكثير من المفاجآت والاكتشافات على يد الفريق الأثري التابع للمؤسسة الأمريكية، فخلال الموسم الخامس (٢٠٠٢) كشفت المؤسسة عن شواهد أثرية مثيرة وغير مسبوقة، تمثلت في ٦٠ نقشاً أثرياً يحتوي بعضها على ٤٥ سطراً دونت بخط المسند تتضمن معلومات متكاملة عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في اليمن القديم.

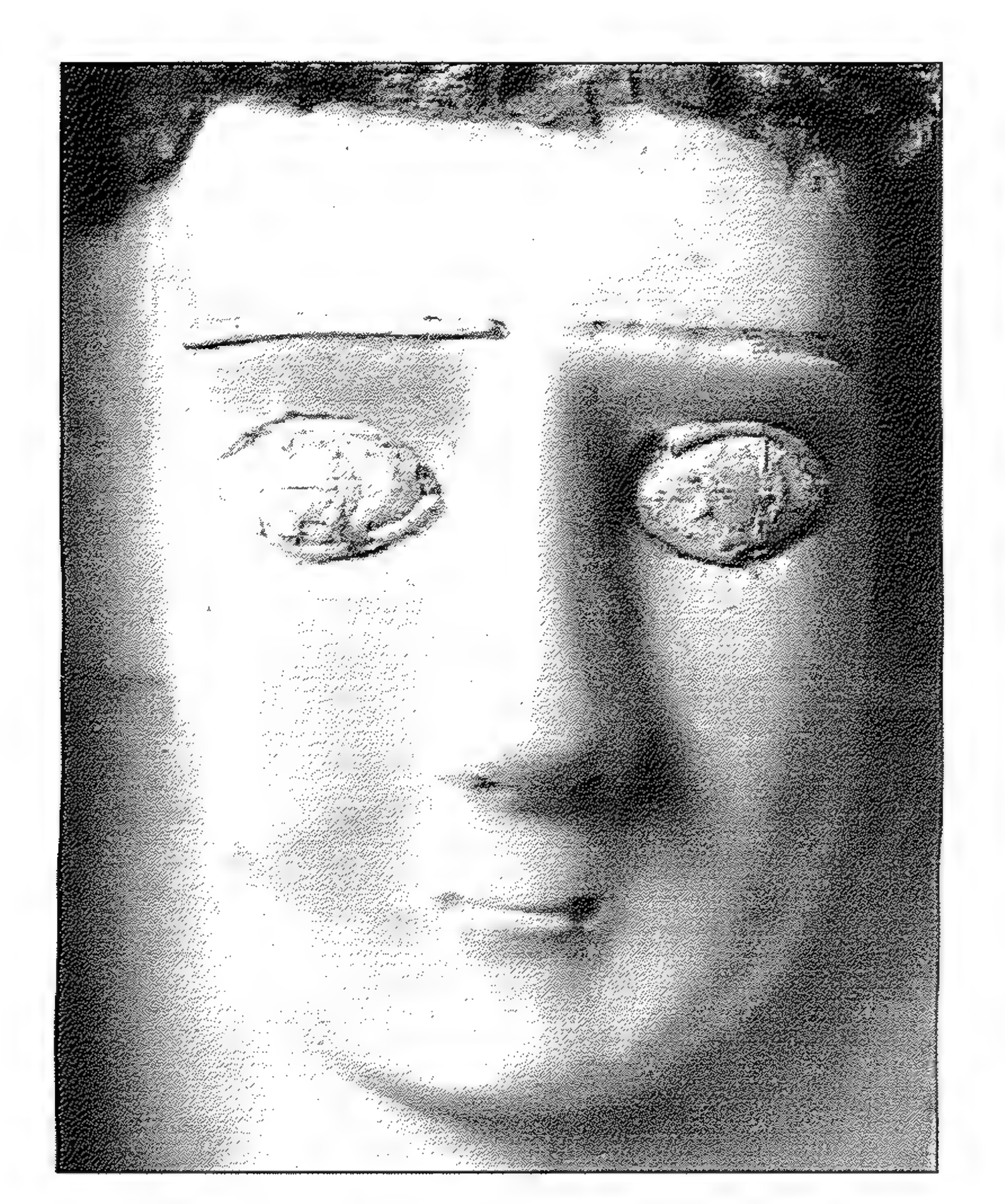
يعود معظم هذه النقوش إلى الفترة ما بين القرن الأول قبل الميلاد وبداية القرن الرابع الميلادي حيث أوضح







جانب من معبد أوام



إحدى القطع التي عثر عليها في المعبد

اكتشاف (٢٠) ألف مدفن وأرشيف نقوش يمثل أكبر المكتبات التاريخية في الشرق القديم

مسؤولون في البعثة -حينها: أن هذه الاكتشافات بإمكانها أن تشكل أساساً لإعادة كتابة تاريخ اليمن القديم، بما كشفت عنه من معلومات جديدة تجلي الغموض عن فترات تاريخية مهمة في تاريخ أهم الممالك اليمنية القديمة.

ثم توالت الاكتشافات الأثرية بعد ذلك، ففي إطار الموسم الأثري السادس (٢٠٠٤م) عثرت البعثة على عدد من المباني الأثرية الهامة التي يصل ارتفاع جدرانها إلى ١٦ متراً مبنية بأحجار ضخمة من البلق المهندم عليها نقوش مسندية، إضافة إلى مكتبة أثرية أكد خبراء آثار أنها تُمثل واحدة من أكبر المكتبات التوثيقية التاريخية في الشرق القديم، تحتوي على وثائق هامة مدونة بالخط النبطي وغيرها من الاكتشافات الأثرية.

أضف إلى ذلك اكتشاف ما يقارب من (٢٠) ألف مدفن يعود تاريخها إلى ما بين القرن التاسع والرابع قبل الميلاد، وغيرها من الاكتشافات الأثرية الأخرى.

اكتشاف مذهل!

هذه المفاجآت المثيرة جعلت خبراء الآثار اليمنيون والأجانب يتوقعون أن تعمل تلك الاكتشافات الأثرية على تغيير الخارطة التاريخية للجزيرة العربية، حيث تُشير معظم تلك الاكتشافات إلى قيام حواضر إنسانية عريقة ازدهرت في جنوب الجزيرة العربية (اليمن).

فقد أكد العديد من الباحثين وعلماء الآثار العاملين في المكان لـ (تراث) أن هذه الحواضر كانت تتمتع بقدر عال من الإنجاز البشري الحضاري، فمثلما حولت الصحراء البور إلى حواضر غنّاء عامرة، فقد كان لها أهمية قصوى بالنسبة للاقتصاد العالمي القديم الذي ساهمت حضارات اليمن السعيد في ازدهاره إلى جانب دول وحضارات منيفة مثل مصر واليونان وبلاد

الرافدين وروما.

رئيسة المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان مارلين فيليبس العاملة في محرم بلقيس منذ منتصف القرن الماضي بقيادة شقيقها ويندل فيليبس أكدت بدورها أن المعبد اكتشاف مذهل لم يره الناس منذ آلاف السنين.

وأوضحت بأن نتائج الموسم المنتهي (٢٠٠٥) للفريق الأثري الأمريكي كشفت عن نتائج مهمة تضمنت حقائق جديدة تؤكد أن المعبد كان عبارة عن مركز ديني وقومي للجزيرة العربية.

وأشارت إلى أن من الأهداف الرئيسية للمؤسسة الأمريكية في اليمن مواصلة التنقيبات الأثرية العلمية المنظمة في معبد «أوام» للكشف عنه كاملاً وإبرازه كمعلم أثري هام، ومجمع للزوار من أرجاء المعمورة.

وأكدت السيدة مارلين فيليبس بأن معبد «أوام» يعتبر من أهم المعالم الأثرية في العالم إن لم يكن الأعجوبة الثامنة، وإنه سوف ينافس عند الانتهاء من أعمال الحفر والصيانة والترميم له الأهرامات ومعابد أثينا.

وقالت: يستطيع الدارس للاكتشافات الأثرية المستجدة في اليمن أن يتبين الدرجة المتقدمة للحالة الحضرية التي كانت تعيشها تلك الممالك في ذلك الزمن البعيد، فقد تم العثور على نماذج أولية لمحركات هيدرو ليكية تعمل على طاقات المياه، استخدمت في استصلاح الأرض القابلة للزراعة، وكذا السدود المنيعة بتشكيلها المعماري الفريد في عصره، وفي مقدمتها سد مأرب.

لقد امتدت ظلال هذه الحضارة الوافرة من بلاد الأندلس غرباً إلى تخوم إندونيسيا في الشرق.

أعجوبة الدنيا!

لم تتوقف مفاجآت المكان عند ذلك فقط، بل نجد البروفيسور الكندي بيل جلانزمان أستاذ الآثار بجامعة كالجاري الكندية والمدير التنفيذي لمشروع الحفر والتنقيب لمعبد «أوام» سابقاً، يؤكد في تصريح له أن محرم بلقيس (أوام) يعد أكبر معبد تاريخي قديم في الجزيرة العربية، ظل منسكاً للسبئيين منذ أوائل الألف الأول قبل الميلاد وحتى القرن الرابع الميلادي.

وأضاف: نعتقد أن الاكتشاف ينطوي على احتمالات سياحية عالية، قد يُعادل في الأهمية أهرام الجيزة في مصر والأكروبوليس في اليونان ومعابد أثينا، فالموقع مُتخم بالقطع والنقوش والمنحوتات والرسوم الأثرية، مما قد يفتح باباً جديداً إلى الحضارة السبئية والحضارة القديمة عامة في جنوب الجزيرة العربية، ومن المتوقع أن يُصبح أعجوبة الدنيا الثامنة.

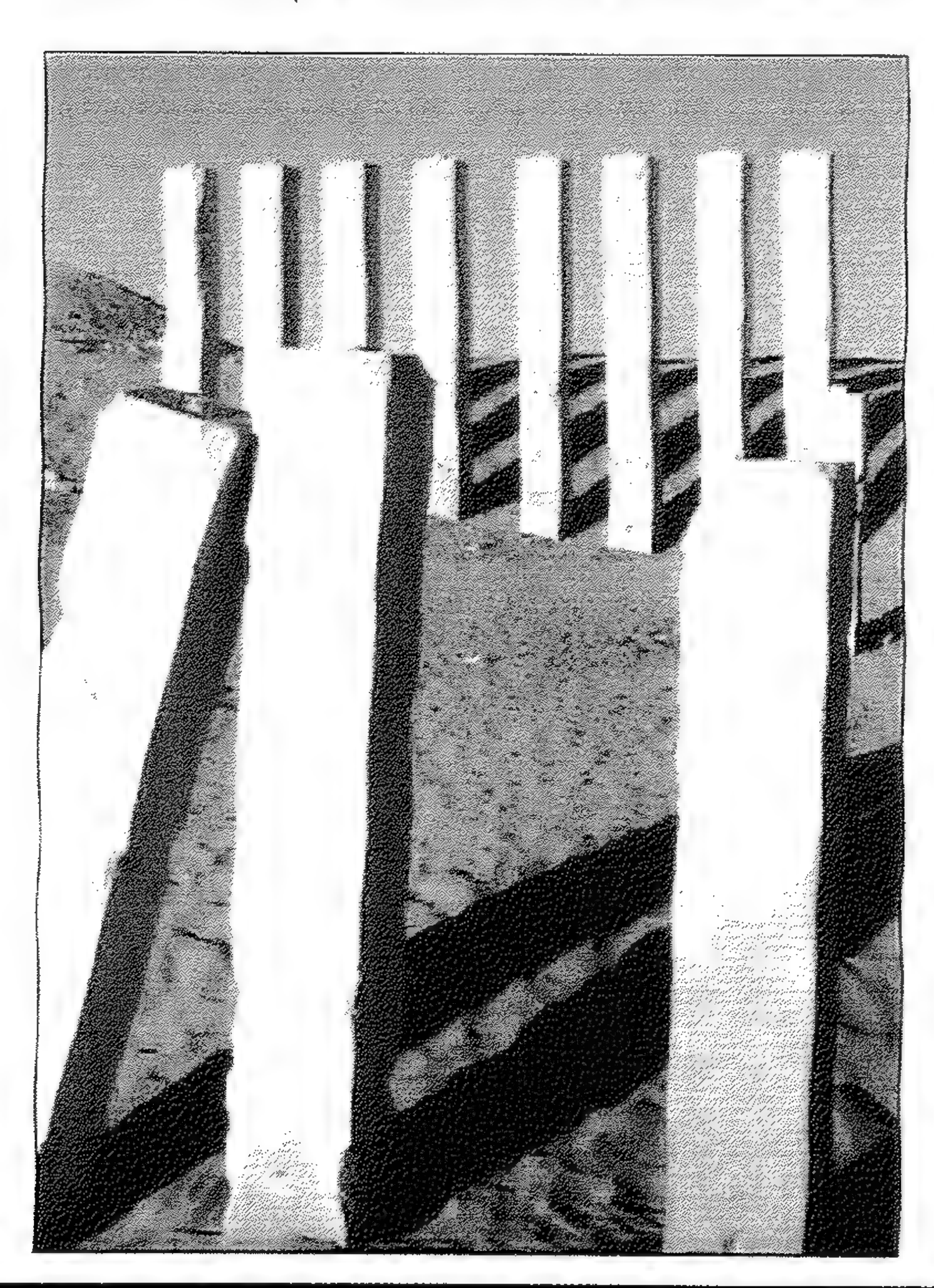
إعادة كتابة التاريخ

الدكتور عبده عثمان غالب مدير حفريات معبد «أوام»، أستاذ آثار الجزيرة العربية واليمن بجامعة صنعاء، يؤكد بأن المعبد يختزن تاريخ اليمن القديم، حيث سيكتب من هذا المكان بعد انتهاء أعمال الحفر تاريخ جديد للمنطقة ومن هنا سوف تعاد كتابة التاريخ اليمني. مشيراً إلى أنه تم اكتشاف أكثر من (٣٠٠) نقش حتى الآن تكتسب أهمية كبيرة ما بين نقوش قانونية واقتصادية واجتماعية ودينية وعسكرية.

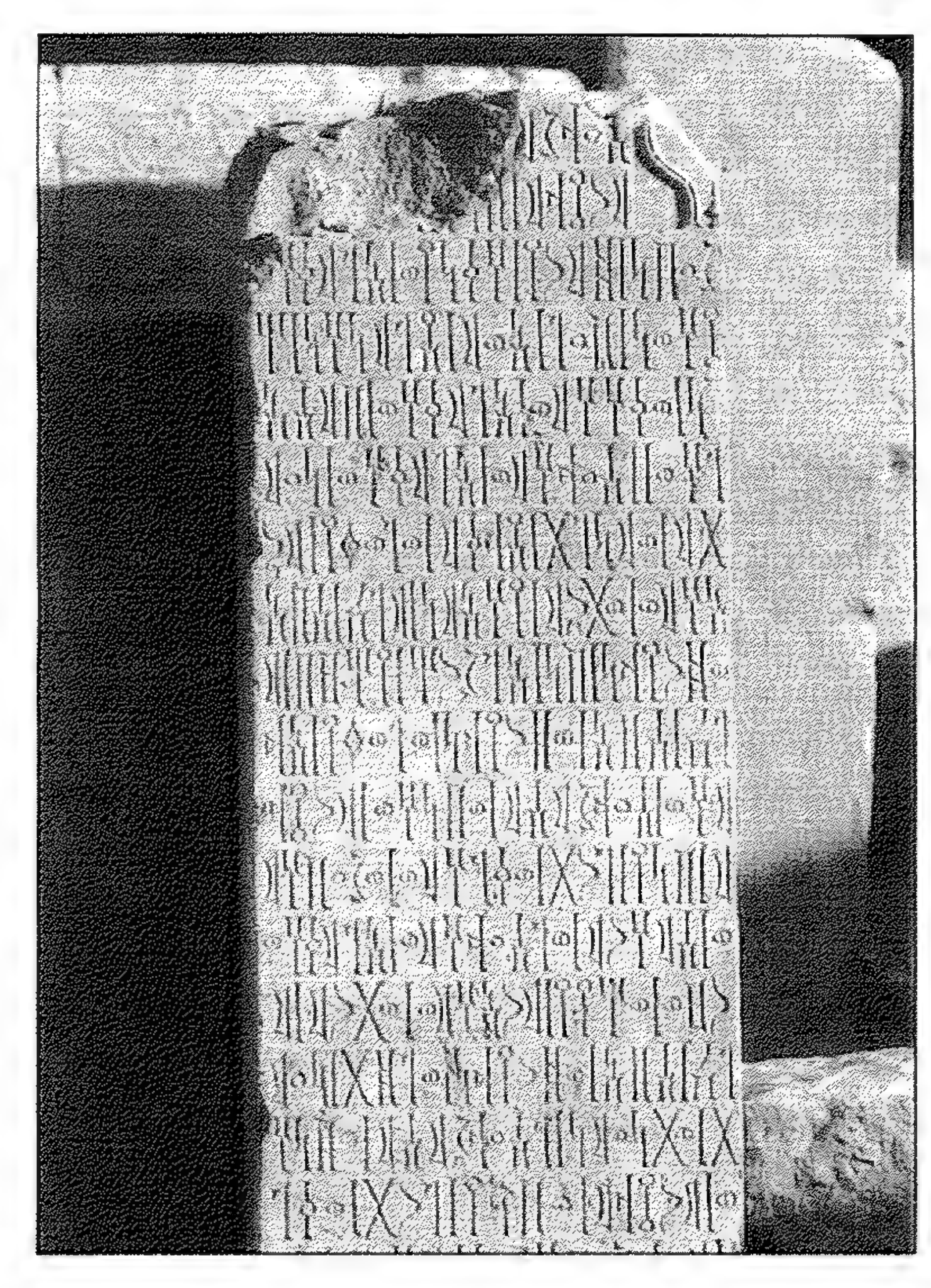
ويقول الدكتور عثمان، هناك الكثير من الدلائل والمعلومات الهامة التي توصلنا إليها خلال الفترة الماضية وتلك التي ستحملها لنا الأيام القادمة، تجعلنا نتوقع ارتقاء محرم بلقيس -بعد انتهاء أعمال التنقيبات الأثرية- إلى مصاف أعجوبة الدنيا الثامنة.

فالفريق الأثري العامل في المعبد الذي يتكون من ٤٠ خبيراً وباحثاً يحملون تخصصات علمية وأكاديمية عليا، منهم ٢٥ خبيراً أوروبياً وأمريكياً يتفقون على أن معبد «أوام» لا يزال يخفي تحت رماله الكثير من الأسرار والمفاجآت التي لا تُرشحه فقط لأن يحتل الأعجوبة الثامنة، بل إن هذه الأسرار يتوقع أن تلقى الضوء أيضاً على الملكة بلقيس التي ذُكرت في القرآن الكريم كاشفة لنا عن اسمها وفترة حكمها ونوع نظامها وغيرها.

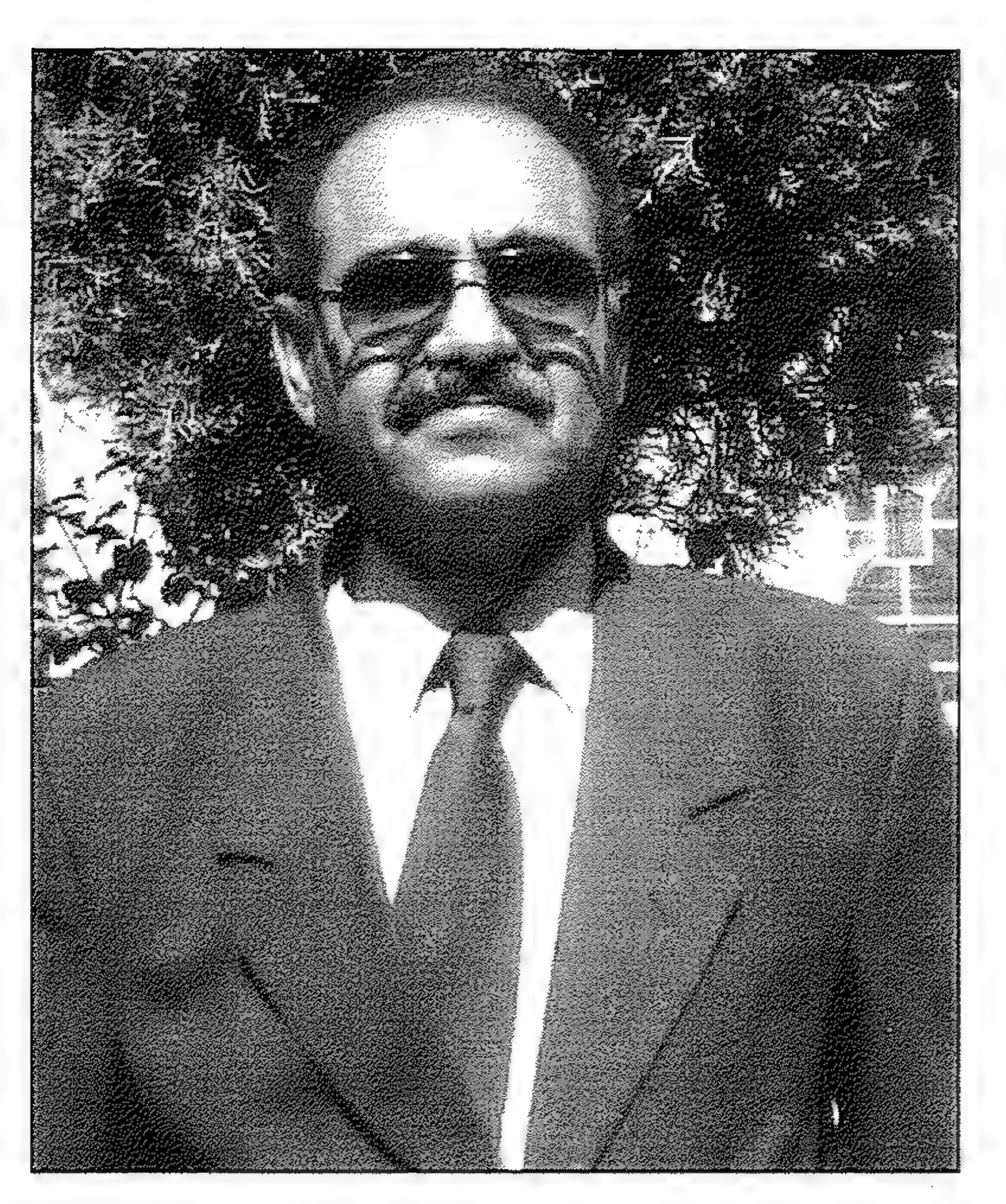
ويضيف مدير حفريات معبد «أوام» قائلاً: عندما



معبد أوام



كتابات قديمة عثر عليها في المعبد



الدكتور عبده عثمان مدير حفريات معبد أوام

د. عثمان:
إعادة كتابة تاريخ اليمن

الصلوي:
أهم معابد الجزيرة العربية

نشير إلى أن الاكتشافات الأثرية التي تم التوصل إليها أو تلك التي ترد تباعاً، سوف تغير من تاريخ المنطقة، فإن ذلك مرده إلى جملة من الخصائص والمعلومات الهامة التي انفرد بها المعبد. فمن خلال الحفريات التي أجرتها المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان خاصة موسمي (٢٠٠٤- ٢٠٠٥) تبين أن هناك سلسلة من التغيرات التي حدثت في معبد «أوام» يعود أقدمها إلى حوالى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، وهي البداية الأولى للمعبد، تلى ذلك تغير في نمط العمارة وتغير في تخطيط المعبد، مما يدل بأنه كان هناك تطور فكري وديني لدى هؤلاء الناس الذين كانوا يمارسون العبادة هنا، وهذه تُمثل الخطوات الأولى نحو المعلومات التي نسعى لمعرفتها واكتشافها من خلال الحفريات.

مميزات

فخلال الفتره الماضية توصلنا إلى العديد من النتائج المثيرة، أهمها أن المعبد كان يشكل مقصداً للكثير من الزوار الذين كانوا يحجون إليه سنوياً ليس فقط من داخل اليمن، بل من مختلف مناطق الجزيرة العربية، وقد ثبت ذلك من خلال الأسماء التي عُثر عليها في المعبد والتي تعود لشخصيات تنتمي لشمال وشرق الجزيرة العربية.

الجانب الآخر يتمثل في أسلوب البناء والتخطيط المعماري والمواد المستخدمة في البناء وهي (المعاصم) وهذا نمط خاص بجنوب الجزيرة العربية فهذه الأنماط المعمارية وتخطيطاتها تكشف عن وجود تفرد، يضع المعبد في مصاف ومقدمة المعابد في منطقة الشرق الأدنى القديم.

فهو من حيث الشكل يأخذ الشكل الدائري والشبه بيضاوي، وهذه خاصة يتفرد بها المعبد، كونه لا يوجد أي معبد يشاركه هذه الميزة في المنطقة كما لا يوجد- في ذلك الوقت - أي معبد في منطقة الشرق الأدنى القديم تصل مساحته مع الملحقات إلى (٦٠) ألف متر مربع، سوى معبد «أوام».



صادق الصلوي مدير عام مكتب الآثار بمحافظة حضرموت اليمنية

مارلين فيليبس رئيسة المؤسسة الأمريكية لدراسات الإنسان

بالإضافة إلى تعدد وظائف المعبد، فإلى جانب كونه مكاناً لممارسة العبادات، كان مكاناً مقدساً يحج إليه الناس على مستوى الجزيرة العربية، وهو أيضاً مقر يجتمع فيه الحكام والناس يناقشون فيه قضايا الحرب والسلم وتتخذ فيه القرارات كما كانت تعلق داخل المعبد جميع النصوص والقوانين وذلك حسب ما تفيد النقوش المكتشفة حيث كان المكان عبارة عن مكتبة تضم جميع القوانين التي تنظم حياة المجتمع اليمني لما قبل الإسلام.

وهذه بدورها سوف تلقي لنا الضوء على نمط الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والدينية للمجتمع اليمني في تلك الفترة، وكل ذلك يوحي بمستوى التطور الفكري والرؤى المختلفة، وذلك مقارنة بما كان سائداً في وظائف المعابد بمنطقة الشرق الأدنى القديم. بالإضافة إلى ميزة إشراك المعبد في اتخاذ القرارات، وكذا التنظيم المعقد للمكان حيث هناك مجموعة من المعابد الملحقة داخل هذا المعبد نفسه، ما يعكس شعائر وطقوساً دينية مختلفة كانت تتم في المعبد وهذا ما نسعى إلى معرفته.

لذا فإن كل هذه المميزات والخصائص وتلك التي لا تزال مجهولة، هي التي تضع المعبد في مصاف الأولويات التي قد تنقله إلى مرتبة عليا لم تتحقق في أي معبد من المعابد القديمة على مستوى المنطقة.

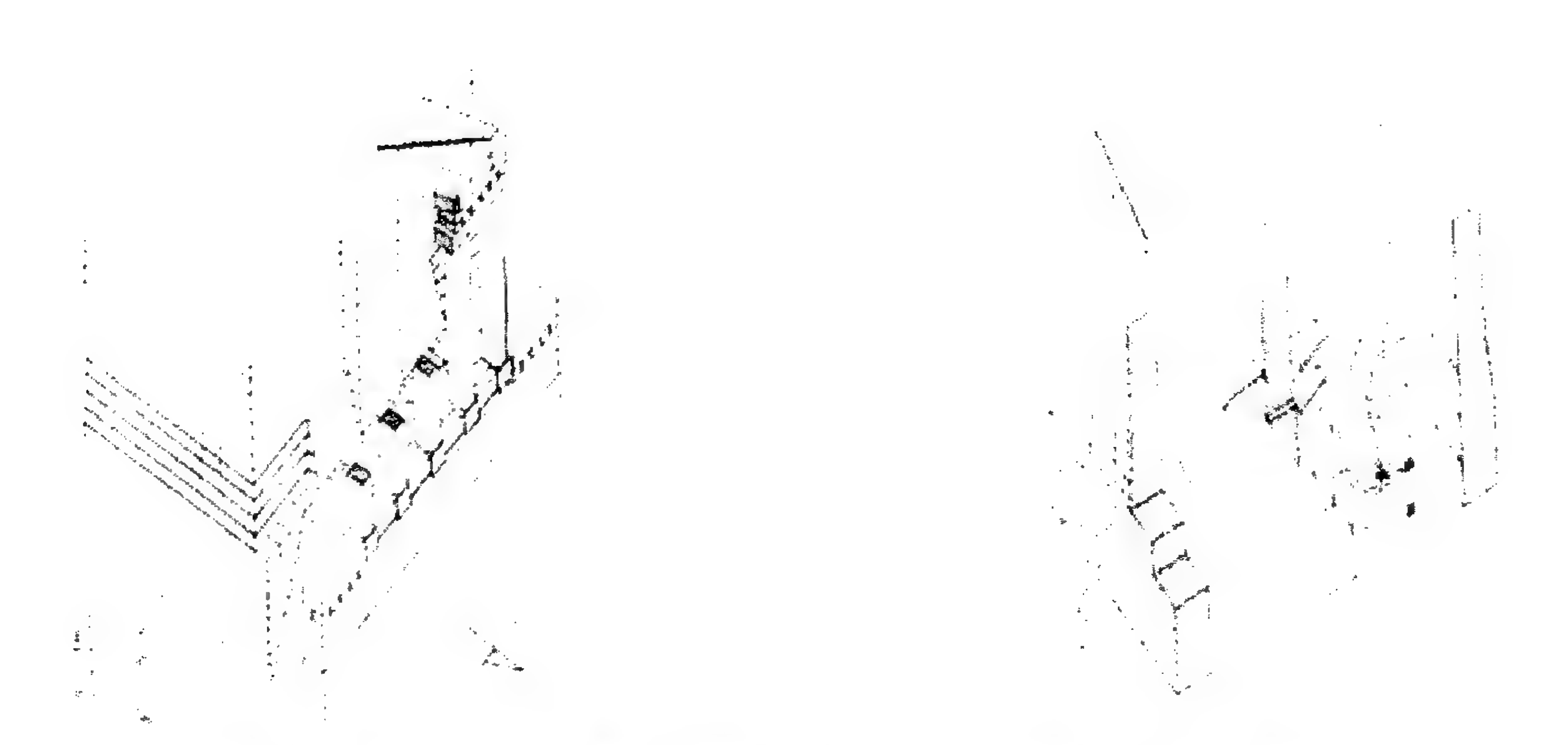
مارلين فيليبس:
المعبد.. اكتشاف مذهل

د. جلانزمان:
لا يقل أهمية عن الأهرامات

أهم معابد الجزيرة

صادق الصلوي مدير عام مكتب آثار محافظة مأرب اليمنية قال من جانبه: إن المؤشرات الأولية لدينا تؤكد بأن المعبد لا يمثل فقط أهم المعابد اليمنية القديمة، بل يعد أهم المعابد على مستوى الجزيرة العربية خلال تاريخها القديم، حيث هناك الكثير من الأدلة والنقوش التي تؤكد ذلك.

أما حول ما يتردد بأنه سيشكل الأعجوبة الثامنة، فإن ذلك الحكم لا يعد حكماً قاطعاً في الوقت الحاضر، حيث



رسم هندسي للمعبد

العلماء يحددون ١٠ سنوات لإزاحة الستار عن لغز المعبد الرافض الإفصاح عن أسراره

الأمر يتطلب منا الانتظار إلى أن تنتهي أعمال التنقيبات الأثرية، حتى نصل إلى حكم قاطع، علماً بأني هنا لا أقلل من هذا الحدث أو تلك التصريحات التي أصدرها عدد من خبراء الآثار اليمنيين والأجانب، ولكن أُشير إلى أن معبد «أوام» لا يزال يخفي الكثير من الأسرار التي لم تتكشف بعد، حيث تحمل السنوات القليلة القادمة الكثير من المفاجآت والأسرار التي ستفصح عنها أعمال التنقيبات الأثرية التي تُجريها المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان، والتي بدأت تنقيباتها أواخر عام ١٩٥١ وبداية ١٩٥٢م، وذلك برئاسة الأمريكي (ويندل فيليبس) حيث كشفت تلك التنقيبات عن مخطط المعبد وقاعة مدخله ونحو ١٠٠ قبر من قبور المقبرة التابعة له.

ثم توقف العمل في المكان حتى عام ١٩٩٧م لتستأنف من جديد أعمال التنقيبات في المقبرة من قبل بعثة المعهد الألماني للآثار.

وفي عام ١٩٩٨م استأنفت المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان نشاطاتها الأثرية، حيث عثرت تلك التنقيبات التي لا تزال تتواصل إلى اليوم على الكثير من اللقى الأثرية وعدد كبير من النقوش التي تعتبر أرشيفاً متكاملاً للكثير من الحوادث التاريخية منذ القرن الثامن قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي.

وقد عرفت من خلال محتويات هذه النقوش أهمية هذا المعبد ومكانته التاريخية، كما كشفت عن الأهمية التي تتمثل في أن معبد «أوام» كان المعبد الرئيسي للإله (المقة) إله الدولة السبئية فهو يحتل مكانة متميزة بين بقية معابد هذا الإله سواء المشيدة في مأرب أو خارجها.

وتمثلت هذه المكانة بدور المعبد القومي للإله (المقة) حيث كان رمزاً للسلطة الدينية في سبأ.

لكن تبقى أهمية تلك النتائج الأثرية، تتمثل في تأكيدات بعثة المؤسسة الأمريكية على أن معبد «أوام»، كان يُحج إليه في أيام معلومة من السنة من داخل اليمن وخارجها، ويدفن في مقبرته عليَّة القوم من كهنة وتجار وشخصيات هامة من خارج المنطقة.

وكل هذه المكتشفات تُثبت بما لا يدع مجالاً للشك، أن معبد «أوام» لا يُمثل فقط أهم المعابد اليمنية القديمة فحسب، بل وإنما أهم المعابد على مستوى الجزيرة العربية خلال تاريخها القديم. إذْ لا توجد أي منشأة دينية تضاهيه في جنوب الجزيرة العربية.

ومما يؤكد ذلك أن آلهة المعابد اليمنية القديمة التي كان يُحج إليها، طالبت القبائل والعشائر المنضوية تحت الولاية السبئية التوجه لأداء طقوس الحج المقدس لإله سبأ (المقة) في معبده (أوام) في شهر مُعين من السنة.

علاوة على ما تقدم فإن مكتبة النقوش التي عُثر عليها في المعبد تُعطينا معلومات فريدة ومتكاملة حول مختلف الجوانب السياسية العسكرية والدينية والاجتماعية.

كما إن من بين النتائج المثيرة التي كشفت عنها أعمال تنقيبات البعثة الأمريكية حديثاً، العثور ضمن الأثاث الجنائزي لبعض المدفونين في مقبرة المعبد على قطع مصرية قديمة عبارة عن تماثيل صغيرة لآدميين و(خنفساء) وهي ذات طابع ديني، وكذا قالب لإنتاج بعض القطع المعدنية يُعد ذا طابع مصري قديم، الأمر الذي يدل على العلاقات التي كانت قائمة بين مملكة سبأ -حينذاك- والحضارة التي عاصرتها في مصر.■

المتحف الإسلامي

Islamic Museum

مايو (أيار) ٢٠٠٦م

عدد خاص من تراث عن

المتاحف في العالم العربي

اللغة العربية في مهب الريح (٦٤)

دعوات التجديد اللغوي.. والتطور

■ د/ أحمد محمد سالم*

مع احتكاك العالم العربي بالحضارة الغربية – ابتداء من القرن التاسع عشر– بدأت الحضارة الغربية تفرض مصطلحاتها، ولغة المعارف والعلوم التي أبدعتها، ولهذا بدأت تظهر الدعوات إلى نقد وضعية اللغة العربية، أو الدعوة إلى تجديدها، بل وصل الأمر في فترة تاريخية إلى مناداة البعض بتغيير حروف العربية إلى اللاتينية، فنجد أن سلامة موسى يرى أن هذه: «اللغة أصبحت خرساء لا تنطق بنحو مائة علم وفن تستمتع بها جميع الأمم المتمدنة»[١] وذلك لأن لغتنا العربية لا تزال لغة بدوية تلتزم الخيال، وتقنع بالعيش في الوبر، وتحكم بالغيبيات، في حين تعيش اللغات العصرية عيشة الترف، أو البذخ بالعلوم، والفلسفات الحديثة[٢] كما أن البلاغة العربية تخاطب العواطف دون العقل، وهذا ضرر عظيم، فإننا حين ننصح أحد الشبان بأن يسلك السلوك الحسن في الدنيا، ويتخذ أسلوباً ناجحاً في الحياة نشير عليه بالعقل والمنطق دون الانفعال والعاطفة[٣].

* كلية الآداب – جامعة طنطا – مصر

وقد تمادى سلامة موسى في نقده للغة العربية حتى دعا إلى استبدال حروف العربية بالحروف اللاتينية فنجده يقول: «ليست اللغة العربية فقيرة التعبير،وإنما حروفها هي التي تعجز برسمها عن التعبير، وإننا عندما نتخذ الحروف اللاتينية ننتقل ألف سنة إلى الأمام، وذلك لأننا نستطيع أن نترجم بمتوسط كتاب في العلوم والفنون كل يوم، فلا تمضي علينا سنتان حتى نكون قد عبرنا الجسر بين القرون الوسطى والعصر الحديث»[٤] ومن الواضح أن سلامة موسى يتخذ موقفاً متطرفاً من اللغة العربية، وذلك لأننا نرى أن اللغة العربية التي اتهمها كل هذه الاتهامات قد استطاع أن ينقل بها وإليها آراء فرويد، وماركس، ونيتشه، وداروين، فاللغة العربية أداة طيعة، والأمر يتوقف على مستخدميها، وإلا فكيف نقل بها كل هذه الأفكار الغربية إن لم تكن مرنة؟!!

وقد انتقد إسماعيل مظهر وضعية اللغة العربية– ولكنه لم يكن متطرفاً مثل سلامة موسى – فرأى أن المشكلة الكبرى التي تواجهها اللغة العربية أنها تتعلق بموضوعات لاعلاقة لها بشؤون الحياة العامة تلك الشؤون التي يوجه لها الناس جُلّ اهتمامهم، ويصفون فيها أكثر جهودهم، فقد ظلت العربية واقفة، عجلة الحياة تدور، وتصارع دورانها خلال القرنين الفارطين، حتى بعدت الشقة بين الحياة الجديدة ومطلوبات العلوم والفنون وبين اللغة العربية، حتى إن الأمر ليروع كل واقف على حقيقة الهوة التي تفصل بين العلوم والآداب وبين اللغة العربية من حيث قدرتها على تأدية مدلولات المصطلحات في كلمة مضرية، أو صحيحة الاستقامة على القواعد التي احتكم بها بعض اللغويين في بناء هذه اللغة الكريمة، وأخذها عنهم كثير من أهل هذا العصر، أولئك الذين لم يفطنوا إلى أن حاجات هذا الزمان غير حاجات الأزمان السوالف[٥] ويرى إسماعيل مظهر ضرورة تغذية اللغة العربية وإنمائها عن طريق التعريب، ونحت

المصطلحات الجديدة، والقياس الاشتقاقي لمفردات جديدة وذلك حتى تستطيع اللغة العربية أن تلاحق التقدم الذي يحدث في المجتمع.

وفي ظل هذا الجدل الفكري حول ضرورة إصلاح العربية، كان هناك اتجاه آخر ينادي بضرورة المحافظة على اللغة العربية الفصحى، فكان مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠-١٩٣٧م) ينظر إلى العامية على أنها رجس يجتنب، ووباء يتقى، وأن منشأها من اضطراب الألسنة، وانتقاض عادة الفصاحة، وكان رجال العربية في وزارات المعارف العربية -إلى عهد غير بعيد- يعتبرون لغة الحياة -العامية- ذلك الاعتبار الوبائي، ويطاردونها مطاردة قاسية في محادثة التلاميذ[٦].

ويعدّ أمين الخولي أحد أبرز الشخصيات التي أعطت اهتماما بارزا لوضعية اللغة العربية، فرأى أن المتكلمين بالعربية اليوم قد فرقت بينهم عاميات مختلفة، واستبدت كل واحدة منها بجماعة منهم، وترتب على هذا أن العامية تغتصب من الفصحى أماكنها في الحياة، وتنافسها في أخص تلك الأماكن فتقصيها عن الأفواه، وتجنبها الألسنة ما استطاعت، وبذلك تحول دون قربها من القلوب، وتزيدها ضعفا على ما أضعفتها به المنافسات الاجتماعية[٧] ويرجع الخولي السبب في انتشار العامية، أنها تُلقي بقوة خفية توشك أن تكون سحرية، هي قوة الحياة. وقوة المجتمع، فهي من الحياة، وفي الحياة. وهي تستجيب لسُنن الاجتماع، مرنة طيعة، فلا تتأثر بتلك المهاجمة، بل مضت تنمو نمواً مطرداً، فتُثري في مفرداتها، وتزيد طاقاتها الفنية، وبهذه القوة تقدمت فألزمت الفصحى مكانها المحدد في الحياة الرسمية، دينية وحكومية، ومبلغ أمرها في أحسن تصوير أنها لغة قلم، والعامية لغة اللسان، وإنما اللغات صناعة الألسنة[٨].

ولقد ترتب على الصراع بين العامية والفصحى ظهور ما يعرف بظاهرة (الازدواج اللغوي). ويرى أمين الخولي أن هذه الظاهرة تجعل المجتمعات العربية تحيا، وتشعر، وتتعامل بلغة يومية مرنة، نامية، متطورة، مطاوعة، ثم هي تتعلم، وتتدين، وتحكم بلغة مكتوبة محددة، غير نامية لا تطوع بها الألسنة، وتتعثر فيها الأقلام، وهذا الازدواج اللغوي القهري يصدع وحداتنا الاجتماعية، ويفرقنا طبقات ثقافية وعقلية،ومن ثم فإن الأزمة اللسانية ليست إلا أزمة اجتماعية عملية، وعلمية تعليمية، وفنية حيوية، وهي ببعض ذلك خليقة بأن تكون أزمة وطنية سياسية تهز الكيان الاجتماعي كله»[٩].

«لقد ترتب على الصراع بين العامية والفصحى ظهور ما يعرف بظاهرة (الازدواج اللغوي). ويرى أمين الخولي أن هذه الظاهرة تجعل المجتمعات العربية تحيا، وتشعر، وتتعامل بلغة يومية مرنة، نامية، متطورة، مطاوعة، ثم هي تتعلم، وتتدين، وتحكم بلغة مكتوبة محددة، غير نامية لا تطوع بها الألسنة، وتتعثر فيها الأقلام..»

ويُشخص الخولي أزمة اللغة العربية الواضحة في العملية التعليمية، وذلك لأن الأفراد الصغار بعد تعلم اللغة العربية لمدة اثني عشر عاماً وبعد أن يحصلوا على شهادة إتمام الدراسة الثانوية، وقد تزيد، ثم لا يظفرون منها بطائل، بل يتقدمون إلى الحياة كباراً لا يحسنون استعمال هذه الفصحى والانتفاع بها، وهي أزمة إن شكاها الأفراد، فإن هذه الأزمة لتشكو من أنها تعيش بلغة، وتبذل في تعلم لغة غريبة عنها فلا تجد فيها ما لابد منه للأمة.[١٠] وقد تتلاحق الخسائر، وتتتابع الأضرار حين تكون اللغة هي وسيلة كسب المعارف وقد صارت هي نفسها مادة صعبة التعلم، سيئة النتائج يؤتمر لها كل حين، ويلتمس لها العلاج في كل موسم، فإذا بالمرحلة الأولى من التعليم الإلزامي غير موفقة بسبب صعوبة تعليم اللغة[١١]. ويرى أمين الخولي أنه من الضروري ألا يشعر متعلم الفصحى بأنه حين يبدأ تعلمها أنه يتعلم لغة أخرى أجنبية تختلف اختلافاً جوهرياً عن لغة الحياة التي يستطيع الطفل أن يعتمد عليها قبل دخوله المدرسة، يجد فيها حياته اللسانية، وحياة قومه وأهله، وذلك لأن الشعور بغرابة الفصحى وأجنبيتها هو أساس العقدة النفسية في تعلمها، ومدار الأزمة في بعد الفصحى عن الأفئدة[١٢].

وقد أرجع الخولي أزمة الفصحى إلى طريقة جمع اللغة العربية. وذلك لأن طريقة تقعيد اللغة العربية عمدت إلى التخلص من أي كلمة دخيلة في اللغة، فقد كان برنامجها في الجمع ألا يأخذوا عن حضري قط، ولا ممن خالط الحضر من أهل التخوم، وكلما أمعنت القبيلة في البداوة كانت أولى بالنقل عنها، كقيس، وتميم، وأسد، ثم هذيل، وبعض كنانة، ولكن موضع الخطأ فيهم أنهم قرروا أن اللغة العربية ليست إلا هذا

الذي جمعوه، وكانت النتيجة الطبيعية لهذه النظرة أنهم يريدون ألا يستعمل الناس أيام الدولة العباسية البالغة مبلغاً عظيماً من الحضارة إلا ما كان يستعمله هؤلاء البدو في معيشتهم البدوية، ومحال ذلك، ولذلك رأينا اللغة غنية غنى مفرطاً في أدوات البدو، ومعيشة البدو، وفقيرة جداً في حاجات المدنية، ولهذا اضطروا هم أو غيرهم بجانب هذا إلى التعريب بعد أن أعرضوا عنه نزولاً على حكم الطبيعة، وتطور العمران، وخلطوا ما أخذوه عن القبائل بما عربوه من الأمم المتمدنة.[١٣]

ويبرز إسماعيل مظهر تخلف طريقة تقعيد اللغة العربية فيقول: «إن القواعد اللغوية التي خلفها السلف من اللغويين قد لابستها حالة من القداسة، أو أنها ألبست ذلك الثوب عمداً اتقاء حالات قامت في عصور مدنيتنا الأولى، والحقيقة أن سلفنا لم يلجأوا إلى تلك القواعد، ولم يقرروها إلا لحاجة غلبت على عصورهم، فأرادوا بها رد عادية الرطانة العجمية عن اللغة. وقد استطاعوا بكدهم، وجدهم، وصفاء قرائحهم أن يضعوا للغة سواراً أشد من الصلب، بحيث تقصر عنها هجمات الشعوبيين، وأهل العُجْمة، فحفظوا بذلك هيكل اللغة صافياً، وموردها عذباً غير مدنس بأكدار الدخيل من لغات الشعوب التي اختلطت بالعرب بعد القرن الثالث الهجري[١٤]. ويطالب مظهر بضرورة تغيير هذه القواعد، لأن الوسائل تتغير بتغير الأزمان.

وإذا كانت طريقة تقعيد اللغة العربية هي أحد أسباب أزمتها، فإن الخولي يرى أن أحد أسباب أزمة اللغة العربية هو إضفاء طابع القداسة على اللغة العربية، مما جعلها مستعصية على التغيير والتطوير ويرى أن الإمام الشافعي فى (رسالته) قد أرسى صبغة القداسة على العربية، فكان يرى أن اللسان العربي هو أوسع الألسنة، وأن القرآن قد نزل بهذا اللسان خالياً من كل لسان غير لسان العرب، ولزم عن هذا أن الألسنة تتفاضل، وأفضلها لسان النبي، كما أن دينه أفضل الأديان، ويرى الخولي أن مثل هذا الاتجاه هو الذي نثر في الجو ما نسمع من تفضيل ديني لمنشأ العربية، لكونها لسان أهل الجنة، وعن هذا ونحوه استقر في النفوس ما للغة العربية من صفة دينية، وأن مساسها بإصلاح يحتوي دائما على مخالفة للدين، وعدم احترام لصفة العربية الدينية لكونها لغة القرآن [١٥] ومن ناحية أخرى فقد روّج بعض معاصري الخولي لمسألة قدسية العربية كمصطفى صادق الرافعي والذي رأى «أن الحكمة ألقت في طباعهم هذا النظام اللغوي، وجعلتهم بحيث ينساقون في سبيله إلى الكمال، لا تعترضهم عقبة، ولا يصرف وجوههم عنه صارف من نظام المدنية»[١٦]. وقد انتقد الشيخ الخولي هذه الدعاوى لأنها تؤدي إلى تجميد اللغة العربية، ورفض مسألة تفضيل لغة على لغة أخرى، أو تفضيل العربية على غيرها من اللغات.

وإذا كان أمين الخولي يرفض إضفاء طابع القداسة على اللغة، فإنه يطالبنا بضرورة النظر إلى اللغة نظرة دنيوية حيوية، ورأى أن إصلاح اللغة لا يتم إلا من خلال ربطها بالتطور كروح عامة تسود جميع وجوه الحياة الإنسانية، وتراعي التغييرات التي تتم فى الزمان والمكان: «فاللغة من أشد المظاهر الحيوية ليناً، وأقلها تصلباً وتحجراً، وأطوعها للتطور، وقدماؤنا يدركون هذا واضحاً حين يتحدثون عن تهذيب اللغة وعوامله، وحين يقررون أن الاستعمال يحيي ويميت، ويقبح ويحسن، وحين يصفون تداخل اللغات، وما إلى ذلك من دلائل الشعور بتأثر اللغة بالحياة تأثراً قوياً».[١٧] ومن ثم فإن التطور أصل أصيل في حياة اللغة بما هي كائن اجتماعي، وأساس التطور هو الوجود البسيط أولاً ثم النماء المترقي ثانياً، وخلال هذا الانتقال يتكون الكائن مترقياً، ويتغير تغيرات متدرجة، ومعرفة هذه التغيرات، وما خلفت فى كيان هذا الكائن الحي هو الأساس الذي تُبنى عليه كل معرفة لهذا الحي، وأجهزة جسمه، وحالتها السوية، أو ظواهر الانحراف فيها، وكلما كملت هذه المعرفة بالحي أمكن تدبير وجوده بما ينميه ويكمله[١٨].

ومن منطلق دنيوي علماني يبين الخولي أثر البيئة الطبيعية، والظروف المعنوية والنفسية والعقلية فى تطورات اللغة، وهو ما يجعل للزمن دوره البارز في تطور أي لغة على الأرض، فيقول: «والتطور كما لابد أن تعرفوا هو الأصل التجريبي لفهم سير الحياة بالكائنات الحية على اختلافها، وعلى هذا الأصل يتحدث الباحثون في اللغات اليوم عن تطور اللاغي، وتطور اللغة، فالصوت وجهازه في الإنسان يتطور تطوراً طبيعياً مطرداً، وبذلك تتطور الأصوات اللغوية فى الأحرف التي تمثلها، ويتطور معها تأليف الكلم، ومع تطور اللاغي، وتأثيره في اللغة تفعل الحياة، تفعل بظواهرها المختلفة في تطور اللغة، سواء في ذلك الظروف المادية، أو الظروف المعنوية، فالبيئة الطبيعية التي تعيش فيها اللغة تؤثر في تطورها، والظروف النفسية والعاطفية والعقلية لمتكلمى اللغة تؤثر في تطورها، وأنماط الحياة التي يحياها متكلمو اللغة تؤثر في تطورها»[١٩] ويرى الخولي أن تطور اللغة له قانون، وليس عشوائياً فهو يجري وفقاً لقوانين

ثابتة، ولا يمكن لأحد أن يوقف تطور اللغة، والدليل على ذلك أنه رغم الأسوار المنيعة التي أقيمت لحماية علوم اللغة، فإن اللغة العربية أفلتت من جميع الأغلال، وتسلقت الأسوار، وسارت في السبيل التي أرادتها على السير فيه سنن التنوع اللغوي، فأصبحت على الحالة التي عليها الآن في اللغات العامية.

ومن ثم يمكن القول بأن الخولي يرى أن العامية ظهرت نتيجة لسنة التطور في اللغة، ولكننا في حاجة إلى أن تكون اللغة في الأمة العربية مثل لغة الحياة في ألوانها المختلفة، وأداة التفاهم المرضية في البيت والعمل، والجامعة، والمسرح، والنادي، وما إلى ذلك، فلا يعيش الناس بلغة، ويتعلمون لغة أخرى، ولا يفكر الناس بلغة ويدونون أفكارهم بغيرها، ولا يتعاملون بلغة ويشعرون وينثرون، ويمثلون، ويخطبون بغيرها[20].

وقد حاول الخولي أن يضع برنامجاً لتجديد وتطوير اللغة العربية، والتوحيد بين العامية والفصحى، فيرى أن وسيلة التوحيد لا تكون إلا بتقويم أود العامية، وإصلاح فاسدها، حيث إنه بهذا الإصلاح لا يكون هناك فرق بين ما يدور في الكتب، وما عليه عرف التخاطب العام، ولا يبقى أدنى امتياز في مبادئ التعليم العمومية، إلا فيما يستتبعه التعليم كثرة وقلة، وذلك لا يضر بأصل الغرض المطلوب، متى صارت لغة التخاطب هي لغة التدوين، إذ من السهل بعد ذلك أن يراعى في التأليف سهولة العبارة، بحيث يستوي في فهمها العلماء، ومن دونهم من سائر طبقات الناس على اختلافهم[21].

ويطرح أمين الخولي محاولته الإصلاح بناء على النقاط الآتية:

١- ثبات الإيمان بفكرة التقريب بين لغة اللسان، ولغة القلم، وصدق العزم على الأخذ بوسائل ذلك لنؤمن فنعمل، ونقول لنفعل، ونقرر لننفذ، فلا يختلف قولنا عن عملنا بمثل ما في معجمنا الوسيط من تصديره الثاني بقرارات المجمع عن فتح باب الوضع للمحدثين بوسائله المعروفة، والاعتداء بالألفاظ المولدة، أو تسويتها بالألفاظ المأثورة عن القدماء.

٢- ضرورة المعاونة بين لغة الحياة، ولغة الكتابة، وذلك يكون بالجهد العامل في تتبع كتب أسلافنا في التصويب لقولة العامة، والظفر بها، ونشرها بعد تحقيقها.

٣- تصحيح الصلة بين المجمع والحياة، بأن يكون تعامله معها أخذاً وعطاء معاً، لا إعطاء فقط فقد جرب هذا الإعطاء، ورأى مدى تقبل الحياة له، وبقي العمل الثاني من أعمال المجمع وهو الأخذ عن الحياة[22].

ومما سبق نلاحظ أن محاولة أمين الخولي لتجديد اللغة العربية تنطلق من نقد أسلوب تقعيد اللغة العربية، ونفي طبع القداسة عنها، وأكد على ضرورة ربط اللغة بالتطورات الزمنية الحادثة في المجتمع، فاللغة أداة معبرة عن سيرة الحياة، ولابد أن تساير تتابع الحوادث في الزمن، وبالتالي فالخولي يتعامل مع اللغة من منطق علمي موضوعي، وينظر إلى تطويرها في ضوء قواعد علمية، وتظل دراسات أمين الخولي في مجلة (مجمع اللغة العربية) شاهدة على الجهود الكبيرة التي بذلها لتطوير أداء اللغة العربية لكي تساير العصر والحياة، وبذلك تتطابق أقواله وأفكاره مع أفعاله وممارسته.■

هوامش المقال

١- سلامة موسى: التثقيف الذاتي، سلامة موسى للنشر والتوزيع، ١٩٤٦م، ص ١٥٤.
٢- سلامة موسى نظرية التطور ص ٨.
٣- سلامة موسى: البلاغة العصرية واللغة العربية، دار ومطابع المستقبل، ط٣ / ١٩٥٧م، ص ٨.
٤- المرجع نفسه ص١٦٢-١٦٣.
٥- إسماعيل مظهر: تجديد العربية بحيث تصبح وافية بمطالب العلوم والفنون، مكتبة النهضة العربية، ١٩٥٥م ص٦-٧.
٦- حامد شعبان: أمين الخولى والبحث اللغوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، ١٩٨٠م ص ١٩٧.
٧- أمين الخولي: فن القول، دار الكتب المصرية،القاهرة، ١٩٩٦م ص ١٦٣.
٨- أمين الخولي: دراسات لغوية، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٩٦م، ص ١٣.
٩- أمين الخولي: مشكلات حياتنا اللغوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٨-١٠.
١٠- أمين الخولي: مناهج تجديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة، ١٩٩٥م، ص ١٣.
١١- أمين الخولي: مشكلات حياتنا اللغوية، ص ٩.
١٢- أمين الخولي: فن القول، ص ١٧٨.
١٣- أمين الخولي: مشكلات حياتنا اللغوية، ص٢٠-٢١.
١٤- إسماعيل مظهر: تجديد العربية، ص٤-٥.
١٥- أمين الخولي: مشكلات حياتنا اللغوية، ص٦٥-٦٦.
١٦- حامد شعبان: أمين الخولي والبحث اللغوي، ص ١٥٩.
١٧- أمين الخولي: مناهج تجديد، ص ١٧.
١٨- أمين الخولي: مشكلات حياتنا اللغوية، ص ٤٦.
١٩- المرجع نفسه، ص ٨٣.
٢٠- أمين الخولي: فن القول، ص٦٤، وأيضا دراسات لغوية، ص ١٧.
٢١- أمين الخولي: دراسات لغوية، ص ٧.
٢٢- المرجع نفسه، ص١٩- ٢٠.

شاعر المدينتين *

ابن معمر الهواري بين أخباره وآثاره

■ د. مفتاح محمد عبد الجليل

وُلِد أبو علي الحسن بن موسى بن معمر الهواري، الطرابلسي* بمدينة طرابلس الغرب، حاضرة الإقليم الليبي عام ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، أثناء خلافة الناصر بن منصور الموحدي[١]، واستهل مراحل تعليمه بتحصيل الفوائد الدينية واللغوية بتلك المدينة. ثم عزم على متابعة الدرس والتعليم في بلاد المغرب، فقرر الرحيل برفقة شقيقه أبي موسى إلى الإقليم التونسي فخرجا مسافرين معاً حتى بلغا مدينة المهدية بتونس، ونزلا بها، وهناك اتصلا بالفقيه أبي زكريا البرقي، فأخذا عنه فوائد معرفية شتى، ونالا نصيباً موفوراً من الآداب والفنون[٢].

على أن أبا موسى اكتفى بما حصل عليه من فنون المعرفة، وغادر المهدية متجهاً نحو مسقط رأسه وموطنه الأصلي طرابلس الغرب التي سرّ أهلها بمقدمه، فأكرموا وفادته، وعودته إليهم، وأوكلوا إليه خطة القضاء والفتيا بينما ظلّ شقيقه عاكفاً على حلقات شيخه البرقي، وملازماً لمجلسه العلمي حتى أضحى أول النابهين في العلوم والمعارف بين أقرانه، وأكثرهم تحصيلاً وانتفاعاً[٣].

وقد ظهرت في تلك المدة بمدينة المهدية فتنة أبي حمراء التي كانت سبباً في إلحاق الأذى والضرر بالكثير من العلماء والفضلاء وعلى رأسهم الفقيه البرقي وجماعته حيث حُمل على حمار، وبصحبته جملة من تلاميذه وخواصه حتى بلغ به الموكب مركز الإمارة بمدينة تونس، فأودع السجن مع جماعته التي رافقته في تلك الرحلة، فلقي جميعهم ازدراء وقهراً شديداً[٤].

ولكنّ الأمير رقّ قلبه فعفا عنه وأمر بإطلاق سراح جماعته من سجن تونس، وعادوا إلى المهدية جميعاً بينما استقر ابن معمر الهواري بمدينة تونس التي استقل فيها عن الغير، وبدأ طريقه العلمي الجديد فقيهاً طرابلسياً مناظراً في المجالس، وحلقات الدرس بتونس آنذاك[٥].

وقد ذاع صيته، وطبقت شهرته الآفاق، وشاع ذكره في أوساط الفقهاء وأهل العلم والأدب، وأضحى أشهر العلماء المجيدين في ذلك الزمان «وكان فقيهاً مفوهاً خطيباً لسناً، غير أنه كان في لسانه فضول، كثر امتحانه به، والتعرض له بسببه»[٦] ولكنه خبر المجالس، وعركته التجارب فعرف سبيله القويم نحو غاياته، فبلغ مرتبة رفيعة في دولة المستنصر الحفصي الذي ولي في عهده مهمة القضاء في مدن كثيرة كباجة، وبجاية، وغيرهما، وأسندت إليه خطة العلامة الكبرى، وخطة الأرفاع، والنظر في خزانة الكتب، ثم ساءت صلته بالأمير فنفي إلى المهدية، وبعد مرور سنة كاملة من النفي أمر بسراحه فعاد ابن معمر الطرابلسي إلى مدينة تونس التي صار أمرها في تلك الفترة إلى الخليفة الواثق الذي أبدى له وداداً ملحوظاً، وكلّفه بخزانة الكتب فظل ناظراً لها حتى وقع عليه غضب أمير الدولة أبي الحسن بن أبي مروان فألحق به الأذى، ثم عفى عنه، فترك أمر الاتصال بالديوان، وعاد إلى حلقاته الفقهية ومجالسه الدينية العامرة بالمعارف والآداب والفنون[٧] حتى توفي بتونس في اليوم الثاني من شهر جمادى الأولى عام ٦٨٣هـ/ ١٢٨٩م[٨].

---

* اشتهر بشاعر المدينتين طرابلس وتونس لأنه طرابلسي الولادة والنشأة، وتونسي الثقافة والموطن.

اره ٦٠٩هـ / ٦٨٣هـ

فضائله وآثاره

يعدّ ابن معمر الهواري الطرابلسي أسبق علماء عصره إلى خصال نادرة، ونبوغ ملحوظ في أبواب الفقه والأدب «وهو أحد أرباب الرتب الجامعين بين رئاسة الفقه، ورئاسة الأدب»[٩]. على أنه برع في الفقه المالكي الذي كان سائداً في منطقة الشمال الأفريقي، فكانت له مشاركات فقهية فيه، ولهذا تولى خطة القضاء والفتيا في مدينة تونس، وأوكلت إليه مهمة الإشراف على خزانة الكتب بها. وهي المهمة التي أعانته على مزيد الاطلاع والقراءة في مختلف المعارف والفنون[١٠].

وقد كان متعدد القدرات والمواهب، فهو طرابلسي المولد والنشأة، ولكنه تونسي الثقافة والفكر، وركيزته المعرفية جمعت معارفه الأولى في طرابلس الغرب إلى تحصيله الفقهي التونسي المتقدم ولذلك لقي حظه المتميز من الوجاهة والرياسة في الدواوين فشغل مناصب مختلفة في البلاط الحفصي في البلاد التونسية[١١].

وقد نهض بمهام الإفتاء والإملاء والتدريس، بعد انصرافه عن شؤون الديوان وأشغاله، فخصّ التلاميذ بفوائد الفقه وفنون الأدب، حتى شاع ذكره في صدور المجالس والمنتديات، ونال ثناء أهل العلوم والمعارف وأرباب المحابر والأقلام، وقد ذكر الرحالة التونسي أبو محمد عبد الله التيجاني في ثنايا حديثه عنه أن بعض تلاميذ ابن معمر الهواري جلسوا إليه، وأنشدوه كثيراً من أشعاره عند نزوله بطرابلس الغرب وإقامته بها[١٢].

فنون شعره

كان ابن معمر أحد كتّاب البلاط الحفصي بتونس حاضرة الحفصيين في القرن السابع الهجري، ومركز سلطانهم آنذاك، وأبرز علماء العصر وفقهائه اللامعين الذين عرفوا ببراعة نادرة في الحديث، وبلاغة معدودة في القول ومناظرة أهل العلم والفهم.

وقد لحق به أذى الحكام وظلمهم لاتصاله بالديوان ودخوله في خدمتهم[١٣]. ولكنه ترك الكتابة الديوانية بعد تعرضه للازدراء والقهر بسببها، وعاد إلى مجالسه الفقهية وحلقاته العلمية بمدينة تونس، فتتلمذ على يديه حشد لا بأس به من المجتهدين والفضلاء الذين كان لهم فضل السبق إلى نقل آثاره في الفقه وفنون الأدب.

على أن شاعريته كانت متأثرة بالطابع الفقهي في أغلب ملامحها، وقد كثرت في شعره الإخوانيات، وقد ذكر التيجاني في رحلته شواهد شعرية من إخوانيات ابن معمر الهواري التي أنشدها بعضهم في حضرته فقال: أخبرني ابن أخيه الفقيه أبو يعقوب يوسف القاضي موسى بن عمران، قال: كنا جلوساً عنده فأنشد بعض من حضر بيتين لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي (الوافر):

مضى زمن المكارم والكرام
سقاه اللهُ من صَوْب الغمامِ
وكانَ البرُّ فِعلاً دون قولٍ
فصار البرُّ نُطقاً بالكلامِ

قال: فأنشدنا لنفسه متمماً عليهما:

وزالَ النطقُ حتى ليس تلقى
فتى يسخو بمرجوع السّلامِ
وزادَ الأمرُ حتى ليس إلا
سخيٌّ بالأذيّة والمَلامِ[١٤]

وقد ارتجل ابن معمر البيتين السابقين تتميماً لما سبق عليهما في مجلس مهيب ملؤه النادرة اللطيفة، والشعر الحسن. ومن أمثل إخوانياته الشعرية ما أنشده عند خروجه من السجن حين هنأه رفيق له بإطلاق سراحه، ويدعى هذا الرفيق أبا عبد الله محمد بن يحيى الفضيلي، وقد تركه في سجنه وحيداً، فقال مرتجلاً:

لئنْ سرّني فكُّ الإسار من الحبس
لقدْ ساءَني لما فيه من أنسي
ولو أنني خُيّرت فيما أريدُه
لآثرتُ تقديمي سراحك عن نفسي[١٥]

ومما يلاحظ في هذين البيتين توافق مظاهر الفرح والأسى عند ابن معمر الهواري فذلك الأنيس الذي لو كان مخيراً في سراحه من سجنه لاختار خروج رفيقه عن نفسه لما أحس به من وداد وألفه.

ومن الفنون الشعرية التي أغرم بها فن المعارضة، وهذا الفن عرفه مجال الشعر العربي منذ زمن طويل،

ولفرط الإعجاب والانبهار بقصيدة ابن النحوي التوزوري[١٦] المطولة التي سمّاها بالمنفرجة وقعت معارضة ابن معمر لها، فقال:

اللـهُ أنعم بعد اليأس بالفرج
يا أزمة الدهر عند الشدة انفرجي
شكرُ الخلائق لا يكفي لأيسر ما
كفى وسكن من رَهَجٍ ومِنْ هَرَجِ
أبقى الأنام بإبقاء الإمام فكم
بصونه صان من مال ومن مُهَجِ
إذا رعى اللهُ للإسلام راعيهم
لم نأس من فَقْدِ ذي قَدْرٍ ولا هَمَجِ[١٧]

وفي تضاعيف هذه المعارضة أثنى الشاعر على أميره، وأفاد بأن الله تعالى أنعم على أتباعه بعد يأس وقنوط، وطول صبر، بفرج مشهود حين كشف الضر عن الرعية بشفاء أميرها الذي يعد بقاؤه سليماً كريماً من بقائها وسلامتها، فهو حامي الإسلام والمسلمين، وموطد دولتهم.

ومما روي له في باب الظرف والفكاهة مداعباً صديقه أبا المجد الصوفي المهدوي لولوعه بتزوج العجائز قوله:

أبا المجد كم تُغْرَى بحبِّ العجائزِ
وذلك في شرع النُّهى غير جائزِ
كُلِفْتَ بأطلالٍ مَحَا الدهر رسمَها
فأصبحت تبغي الفوز بين المفاوزِ[١٨]

وهذه المداعبة الطريفة تبدي سماحة النفس، ودفء الشعور عند ابن معمر الهواري الشاعر الذي لفت نظره أمرٌ مستطرف في بيئته الاجتماعية فعرضه شعراً بطريق فكه مستحسن.

على أن غزلياته كانت أكثر عذوبة وحرارة عاطفة بالرغم من تمثّله للقديم، واقترابه من أساليب الفقهاء في نظمهم، ومن الشواهد المؤكدة قصيدته (البسيط) وهي:

لولا احورار جفونٍ أُودعت سَقَمَا
ما أمطرتْ سُحْبُ أجفاني الدموعَ دَمَا
ولا وَقَفتُ أُصيلاناً بربعكم
ولا سقيتُ ريّاهُ من دمي دِيَمَا
ولا نثرتُ عقيق الدمع في طَلَلٍ
منه أذيع الذين قد كان مُكْتَتَما
شمْلُ السُّلو شتيتٌ بعد بُعدكم
وطالما كان قبل اليوم مُلتئما[١٩]

وفي الأبيات السابقة تلحظ انتفاعاً مباشراً بالغزل القديم في جمل طللية متتابعة، وعاطفة متدفقة فلولا الحوار في الجفون المودعة سقماً ما هطلت سحب الدمع دماً قانياً، ولا وقف ابن معمر بربعها وديارها أصيلاناً، وقد سقى جوانبها من دمه مطراً، ونثر محمر دمعه في طللها الذي أذيع فيه ما حفظه وكتمه من شؤون بينما هجره السلو بعد البين الذي كان مستحيلاً في الماضي القريب، ثم أردف هذه المعاني الطريفة بقوله:

البَيْنُ يقطعُ منه كل متصلٍ
والشوقُ ينثرُ منه كلَّ ما انتظما
والوجدُ شادُ بجسمي ما يهدمه
آه على ما بنى فيه وما هَدَمَا
يا من يلوم على ما حلَّ من أسفي
هذا اليسير من الأمر الذي كُتما
ما خطط النومُ في جفني رسمُ كرى
إلا مَحَا السهدُ ما قد خطّا أو رسما[٢٠]

وهو يفيد بأن البين قطع ما كان متصلاً من حبال المودة، ونثر منه ما كان منتظماً، والوجد شغل بجسمي هدماً وتشييداً حتى صرت لا أطيقه ثم يتجه بخطابه إلى من يلومه على أسفه ولوعته فينبهه إلى أن هذا بعض ما يكتمه من جمر المحبة حتى أنه وسم السهاد الذي كان يمحو ما يخطه النعاس في جفنيه من رغبة النوم والهجوم محواً تاماً.

على أن القصيدة كلها تحوي أنماطاً شتى من الصور والتراكيب المحكمة النسج، واللفظ المألوف الجزل، والمعنى اللطيف، ومن غزله الممتع أيضاً قصيدته التي يقول فيها:

آهاً تُرَدَدُ لو تشفي لنا كربا
وبالتعلات نحيا لو قضت أربا
وبالأماني ينالُ القلبُ بُغيته
وقد تحقق من معتادها كذبا
يرتاعُ إنْ لاحَ برقٌ من جهامتها
وما تطاول إلا جَدَّ وانقضبا
إن عَزَّ ما يبتغيه فهو في هرجٍ
ويختشي الفقد إن ينتابه عجبا[٢١]

وهنا كشف الشاعر عن تعلله بالأمنيات الكاذبة بيد أن التعلات لا تقضي غاية أو مأرباً، وأن القلب سيظل متلهفاً لا ينجده إلا سراب الأماني الخادعة، وقد يلمح أملاً، ولكنه سرعان ما يزول عنه ويتوارى أمام ناظريه كالبرق عند ظهوره في الأفق، فهو يعيش بالأمنيات التي

إن طال حبلها، وامتد يوماً فإنه لا محالة منقطع ومجذوم بينما يكتنف عقله خلط وتعب، فكلما أحس بعسر أمنيته ازداد عقله إجهاداً وهمّاً، ثم استمرت حالة يأسه فوصفها قائلاً:

وارحمتاهُ لقلبي كمْ أجشمه
أمراً يذيب من الأصلاد ما صلبا
وكم يعاني ملمّات بأيسرها
يُهوّن الأمر من دنياه ما صَعُبا
وكم يُلجج في أفكاره لججا
سوداً تؤجج في أحشائه لهبا
وكم تهب سمومٌ من تنفسه
لو استمرت لما هبّت نسيم صبا
استغفر الله لا أشكو الزمان ولا
أبدى إذا طرقتْ أحداثه رهبا[٢٢]

وفي هذه الأبيات يشفق على قلبه المتفطر الذي يجشمه متاعب حبٍّ يذيب الصخر الصلد، ويضع على كاهله ملمات عاتية يعاني منها أقسى الأحوال، وإن أيسرها ليهوّن أمراً عسيراً من دنياه ما ظلت شدته راسخة فيه، وعسره بادياً عليه، فما أشقى قلبه بها، وما أكثر عناءه ومعاناته، وكم يخوض هذا القلب المكدود من فكره لججاً مظلمة تؤجج نيران الوجد في أحشائه فتلتهب التهاباً، وإنها لتدفع بسموم من تنفسه لو تتابعت لمنعت نسيم الصبا الرقيق من الهبوب. ثم يراجع ابن معمر تباريح شوقه القلبي فيستشعر قوة الروح مستغفراً خالقه من شكوى الدهر ومحنه غير مبال به، ولا بأحداثه الجسام. ثم يقول:

وَلا أفرُّ لحظٍ منهُ أعوَزَني
ولا أُسَرُّ إذا ماء المُنى انسكبا
أنّى يُسرُّ لبيبٌ أن رأى حُلُماً
وكيفَ يطربُ مِنْ خمرٍ لهُ سُكبا[٢٣]

وهنا يخلع شكواه من الزمان، ولا يعبأ بما فاته من حظ فيه أو يطرب لأماني طوقته بل يعجب من عاقل لبيب يهتز لحلم تراءى له، وتأخذه دهشة ممن طرب من خمر مسكوب، ويعني به الانبهار بمسرات الدنيا الزائفة التي تزول في حين.

ومن خلال الأبيات الغزلية السابقة تتضح ملامح التأثير الملحوظ بقيم متفاوتة، وتظهر إيحاءات المتصوفة في طابع ممتع ممزوج بالخيال الصافي، والتعويل الدائم على القديم في أنماط متباينة من المحاكاة، وطرافة التوليد والنسج.

على أن هناك أمراً ذا بال يبدو في أغلب آثار ابن معمر الهواري الشعرية، وهو ذلك الانعكاس المباشر لمتاعبه وأزماته التي غمرت حياته بشتى ألوان الحزن والكآبة الناتجة عن النوازل التي حلت به، وقد بثّها جميعاً في تضاعيف أشعاره وضمّنها قصائده بأسلوب مخصوص لا يلمح منه في بعض الأحيان إلا اليسير من القهر بطريق الاحتواء والكتمان في صور لطيفة محبوكة، وهو ما يتحقق في قوله:

كتبْتُ، ولولا الحكم كنتُ إليكم
من الشوق في متن الرياح أطيرُ
وإنّ يسيراً أن أسير مسلماً
عليكم على وجهي وذاك يسيرُ
وما في صميم القلب من خالص الوفا
فسيّان فيه غيبةٌ، وحضورُ[٢٤]

وهذه الأبيات الثلاثة إحدى إخوانياته التي كتب بها لأحد أصدقائه إبان الجفوة التي اكتنفته قبيل نفيه من تونس إلى المهدية، وفي مضمونها قيم الأسى ومعاني الحزن والوجد، وألم البين المنتظر.

ومن جميع الجوانب «يعدُّ بحق أشعر شعراء ليبيا حتى عصره لحسن صياغته، وروعة أفكاره»[٢٥]، ولكنه كان طريد القهر والأذى واضطهاد الأمراء والحكّام الذين وضعوه في السجن، وأمروا بنفيه وتعذيبه، وإلحاق المهانة به حتى هجر بلاطاتهم ودواوينهم وعاد إلى ملازمة المجالس العلمية، وحلقات الدرس فقيهاً متضلعاً من كل المعارف والفنون فانتفع به طلاب العلم، وآثروه بمحبتهم وتكريمهم.

ومما هو ملحوظ في ملامح سيرته وأخباره أنه كان صاحب بديهة وارتجال، ولذلك شاع ذكره في منتديات العلوم، وعُرف بين معاصريه بالتبحر في الفقه، وعلوم القرآن، وفنون الأدب المختلفة.

وقد أمكن التوصل إلى جملة من الحقائق التي نتجت عن تناول ابن معمر الهواري في إطاره الذاتي والأدبي، وهي:

أولاً - ابن معمر الهواري الطرابلسي النشأة، التونسي الثقافة كان أحد الأعلام المغاربة في المائة السابعة الهجرية، وأبرز الموهوبين في مجال الشعر، وإن كان في شعره كثير من الأسى والألم المرير اللذين نتجا عن ظروفه البائسة، وتقلب حاله بين سجن، ونفي، وقهر.

ثانياً - شعره يجسّد احتذاء ملحوظاً لطريقة العلماء والفقهاء في قرض الشعر، وإن بدا فيه تعلق مباشر

بالطابع القديم مما يؤكد اعتزازه بتراثه القومي التليد.

ثالثاً ـ جزالة لفظه، ووضوح تراكيبه في طابع متميز منح أشعاره قيمة أدبية سامية، وجعله موسوماً بسمة التجلي والبيان في كافة أبعاده ومناحيه.

وفي جميع جوانبه يعدّ شعره أحد الملامح الرئيسة في مرحلة أدبية مغمورة إلى حد ما في أدبنا المغاربي لأن أخبارها المنقولة إلينا، وآثارها المقيدة في المصنفات الأدبية والتاريخية محدودة، يسيرة القدر إذا قيست بأخبار المشارقة وآثارهم في الحقبة الزمنية ذاتها، ولذلك تبعثرت سير الأدباء والحكماء، وأهل العلم، وضاعت أكثرها لفقدان مصادرها، وصرف الانشغال بها، والتنقيب عنها في هذا العصر.■

الهوامش:

١) التيجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، الرحلة، منشورات المطبعة الرسمية، تونس (ط / الأولى ١٩٨٥م)، ص٢٧٤.

٢) الأنصاري، أحمد النائب، نفحات النسرين والريحان فيما كان بطرابلس من الأعيان، تحقيق: علي مصطفى المصراتي. منشورات المكتب التجاري، بيروت ـ لبنان (ط / الأولى ١٩٦٣م)، ص٩٢- ٩٣.

٣) الزاوي، الطاهر أحمد، أعلام ليبيا، منشورات مؤسسة الفرجاني للطبع والنشر، طرابلس ـ ليبيا (ط / الثانية ١٩٧٠م) ص٣٨- ٣٩.

٤) المصدرنفسه، ص٣٨.

٥) التيجاني، الرحلة ص٢٧٥، مصدر سابق.

٦) المصدر نفسه، ص٢٧٥.

٧) المصدر نفسه، ص٢٧٥- ٢٧٦.

٨) انظر: الزاوي، أعلام ليبيا ص٤٠، مصدر سابق.

٩) انظر التيجاني، الرحلة، ص٢٧٥.

١٠) انظر: إحسان عباس، الدكتور، تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري. منشورات دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي ـ ليبيا (ط / الأولى ١٩٦٧م) ص٢٢١.

١١) انظر: الزاوي، أعلام ليبيا، ص٣٨- ٤٠، وشوقي ضيف، دكتور، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، ليبيا ـ تونس ـ صقلية. المجلد التاسع، منشورات دار المعارف المصرية، القاهرة ـ مصر (ط / الأولى ١٩٩٢)، ص٩٤.

١٢) نجاح القابسي، دكتورة، لمحات من الحياة الثقافية في طرابلس الغرب في العصر الوسيط الإسلامي. مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، السنة الثانية، يوليو ١٩٨٠م، ص٢٠٨- ٢٨٩.

١٣) المصراتي، على مصطفى، ابن معمر الهواري.. حياته وشعره، مجلة القلم الجديد الأردنية، العدد الثاني، يوليو ١٩٥٣م ص٢٨- ٢٩.

١٤) الأنصاري، نفحات النسرين والريحان، ص٩٢- ٩٤.

١٥) د. عبد المنعم خفاجي، دكتور، قصة الأدب في ليبيا، منشورات الجامعة الليبية البيضاء، (ط / الأولى ١٩٦٨م) ج١ / ١٣٧.

١٦) ابن النحوي: هو أبو الفضل يوسف بن محمد التوزوري، الشاعر الصوفي، التونسي، المولود ببلاد الجريد. توزر عام ٤٣٣هـ، وقد كانت وفاته بها عام ٥١٣هـ. انظر: حسن حسني عبد الوهاب ـ تاريخ الأدب الونسي ص١٧٢.

١٧) التيجاني، الرحلة، ص٢٧٨، مصدر سابق.

١٨) المصدر نفسه ص٢٧٨- ٢٧٩.

١٩) المصدر نفسه ص٢٧٧- ٢٧٨.

٢٠) المصدر نفسه ص٢٧٨.

٢١) المصدر نفسه ص٢٧٩.

٢٢) المصدر نفسه ص٢٧٩.

٢٣) المصدر نفسه ص٢٧٩- ٢٨٠.

٢٤) الزاوي، أعلام ليبيا ص٢٣.

٢٥) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي.. الدول والإمارات، ٩ / ٩٧.

المصادر:

١. الأنصاري، أحمد النائب: نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان. تحقيق: علي مصطفى المصراتي. منشورات المكتب التجاري، بيروت ـ لبنان (ط / الأولى ١٩٦٣).

٢. إحسان عباس. دكتور، تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري. منشورات دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي ـ ليبيا (ط / الأولى ١٩٦٧م).

٣. التيجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد. الرحلة التيجانية، منشورات المطبعة الرسمية، تونس (ط / الأولى١٩٥٣م).

٤. الزاوي، الطاهر أحمد. أعلام ليبيا. منشورات مؤسسة الفرجاني للطبع والنشر، طرابلس ـ ليبيا (ط / الثانية ١٩٧٠م).

٥. شوقي ضيف. دكتور. تاريخ الأدب العربي.. عصر الدول والإمارات، ج٩، منشورات دار المعارف المصرية، مصر (ط / الأولى ١٩٩٢م).

٦. عبد المنعم خفاجي. دكتور. قصة الأدب في ليبيا، منشورات الجامعة البيضاء، ليبيا (ط / الأولى١٩٦٨م).

الدوريات

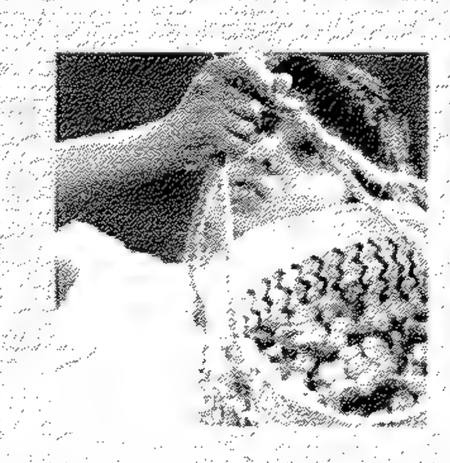
(١) المصراتي، علي مصطفى، ابن معمر الهواري.. حياته وشعره. مجلة القلم الجديد الأردنية، عمان، العدد الثاني، يوليو ١٩٥٣م.

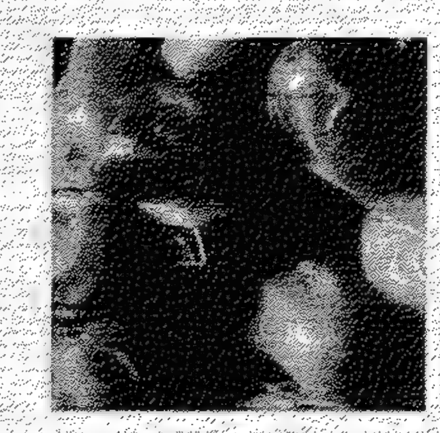
(٢) نجاح القابسي. دكتورة. لمحات من الحياة الثقافية في طرابلس الغرب في العصر الوسيط الإسلامي. مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، السنة الثانية، يوليو ١٩٨٠م.

تراث

شهرية تصدر عن نادي تراث الإمارات

٧ سنوات من العطاء




مجلة الأصالة والفكر المعاصر

* قراءة في التاريخ.
* استلهام من التراث.
* استشراف للمستقبل.
* دراسات تاريخية.
* موضوعات تراثية.
* بحوث أثرية.

من الأصالة نستمد رؤى المستقبل في قضايانا الثقافية .. وبفكر مفتوح نناقش القضايا العربية والإسلامية والعالمية

قيمة الاشتراك السنوي:

للأفراد :محلياً ٨٥ درهماً وعربياً ٢٧٩ درهماً

للمؤسسات :محليا١٥٠ درهماً وعربياً ٣٣٩ درهماً

* (شاملاً رسوم البريد)

الاشتراك في تراث يضيف إلى مكتبتك قيمة تراثية وتاريخية وعلمية وأدبية ولأسرتك الكثير من المتعة والثقافة

حرق المخطوطات والكتب

■ أ. د. يحيى الجبوري*

التراث الإسلامي الضخم من المخطوطات يمثل أكبر ثروة عرفها العالم في هذا المجال، ولكن هذا التراث العظيم لم يسلم من الرزايا والبلايا، فقد تعرّض لآفات ونكبات كبيرة، بسبب الحروب والفتن والأحقاد والجهل، وبسبب العوارض الطبيعية من الزلازل والفيضانات، والرطوبة والعثة والقوارض وغيرها، وما دام العلم مودعاً في الرقوق والقراطيس والورق، فإنه عرضة للتلف السريع، ولذلك فإن الأمم التي خلّدت آثارها أودعتها نقوشاً وتماثيل وكتابات على الحجر والآجر والنحاس، كما فعل البابليون واليونان والرومان والفراعنة، وكان أهم ما تعرّض له هذا التراث من بلايا هو حرق الكتب من قبل الغزاة الجهلة، وذلك ما فعله التتر في البلاد الإسلامية التي استولوا عليها، فأعملوا فيها السيف والحرق والدمار، وقتلوا من العلماء أربعة وعشرين ألفاً، ولم ينجُ منهم إلا اثنان، كما يذكر ذلك ابن بطوطة[1]، ويقول ابن الفوطي: إن هولاكو قضى على جميع آل العباس وذراريهم ونسائهم، وخرَّب بغداد، وأحرق مساجدها، ووضع السيف في سكانها شيوخاً وكهولاً وشباناً، وقُدِّر عدد القتلى منهم بأكثر من ثمانمائة ألف من مدينة بغداد وحدها، عدا من ألقي من الأطفال في الوحول أو من هلك جوعاً وخوفاً في الآبار والقنوات وسراديب الموتى[2]، وقد كان من ذلك تدمير وحرق خزائن دار الحكمة، والخزائن والذخائر العباسية الثمينة التي كانت مكنوزة في قصور الخلفاء والأمراء وأثرياء الناس، فذهبت بذلك خزائن دار الحكمة والمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية، وغيرها من خزائن الكتب العامة والخاصة، فألقي بعضها في دجلة فسدّ مجراه، وجاز الناس على الكتب من جانب إلى جانب آخر، كأنها جسر معقود، وحرق القسم الآخر من الكتب، وبقيت النار مشتعلة فيها مدة طويلة[3].

* أستاذ بجامعة إربد الأهلية



الإسلامية على مرّ العصور

ولم يقتصر إعمال الخراب والبلاء على الغزاة الأجانب، بل كان للفتن الطائفية والمذهبية الآثار السيئة والبلاء العظيم، ومن الخزائن ما ذهبت حرقاً وإتلافاً بيد أصحابها، لما أصابهم من يأس وإحباط وقنوط، أما البلاء الآخر فهو غرق الكتب أو غسلها بالماء أو دفنها أو إتلافها. وأما السرقة والنهب فأخف بلاء، لأن الكتاب ينتقل من مالك إلى آخر غصباً ونهباً. وسنقف عند بعض هذه البلايا والآفات، ذاكرين ما تعرضت له الخزائن والمكتبات من محن وشرور، متابعين ومسجلين ذلك وفق التسلسل الزمني.

حرق الكتب

إن الحرق من أشد الآفات التي قضت على التراث المخطوط، وذهبت بقسم كبير منه، ولم يسلم من خزائن الكتب إلا النزر اليسير، لقد كان الغزاة من أقسى الناس قلوباً، وبخاصة المغول، فما فعلوه من حرق **المكتبات في البلاد الإسلامية التي تمكنوا منها** واجتاحوها لا يوصف، ويضاف إلى هؤلاء ما كان من منازعات وتعصب الفرق المذهبية، ومناوأة رجال الفلسفة واتهامهم بالزندقة وإحراق كتبهم، وكذلك فعل الصليبيون الذين غزوا الشام، والإسبان الذين غزوا الأندلس، فأعملوا في الكتب الحرق والتدمير.

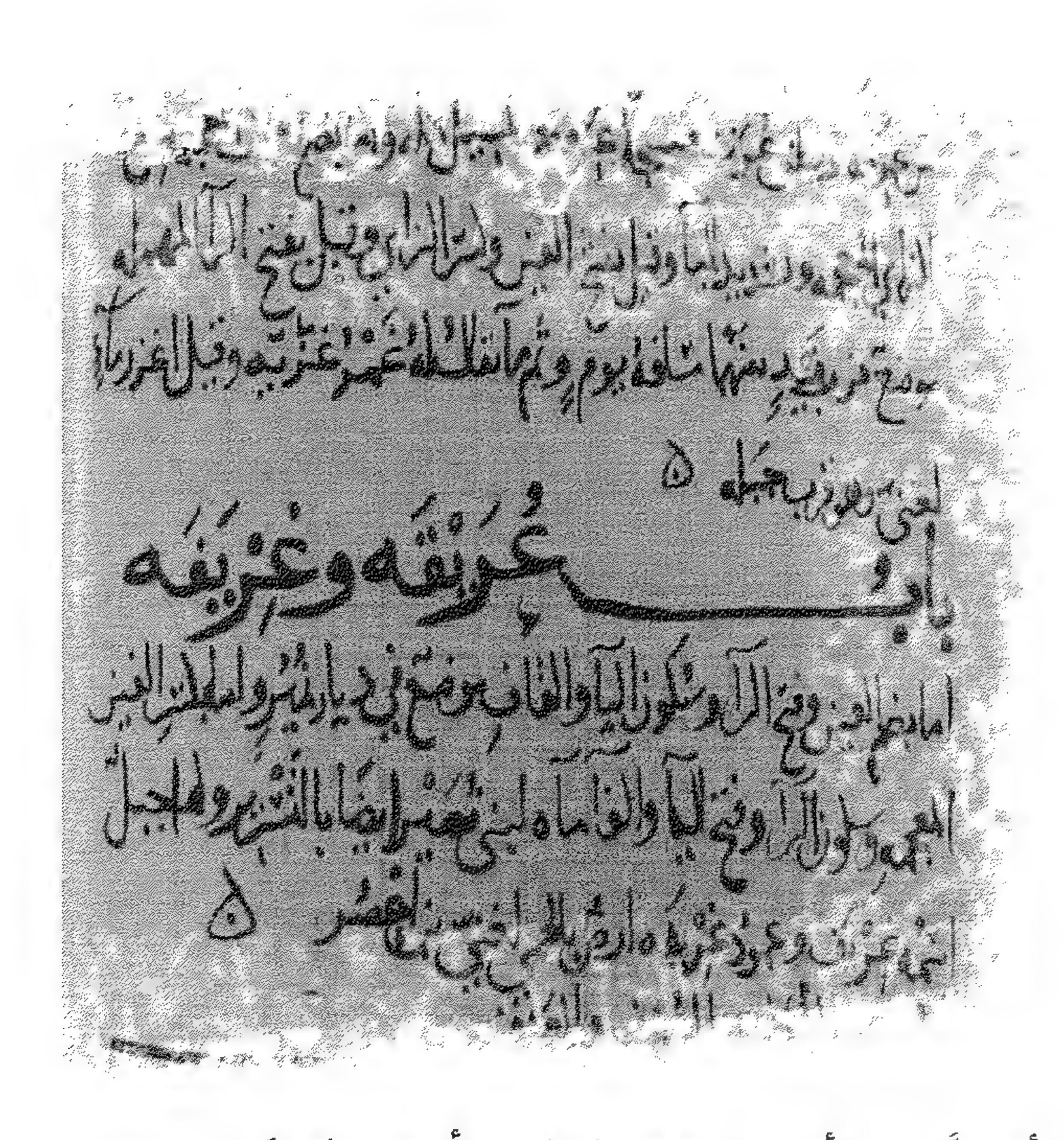
إن حرق الكتب يصاحب عملية التدمير والتخريب التي يقوم بها الملوك والقادة الغزاة في إتلاف كل أثر حضاري للعدو، وخاصة إذا كان الحاكمون من الجهلة القساة، ونذكر هنا أقدم الملوك الذين اتبعوا هذه العادة السيئة كنموذج للاستشهاد وليس للاستقصاء، ومن أقدم الملوك الذين أحرقوا آثار مَنْ سبقوهم لتخليد ذكر أنفسهم هو نبوخذ نصر (٦٠٥- ٥٦٢ق.م)، فقد أحرق في القرن السادس قبل الميلاد تواريخ من سبقه، وكذلك فعل داريوش الأول ملك الفرس (٥٢١- ٤٨٥ق.م) حيث اجتاح بلاد اليونان وأخضعها لسلطانه، فأحرق المكتبة الشهيرة في أثينا، وقيل إنه نقل كتبها إلى بلاد فارس، وكذلك فعل الإسكندر ذو القرنين (٣٥٦-٣٢٣ق.م) بالفرس حين احتل عاصمتهم اصطخر، **فقوّض أبنيتها وشوّه نقوشها، ثم استنسخ ما كان مجموعاً في الدواوين والخزائن ونقله إلى اللسانين** اليوناني والقبطي، ولما فرغ من استنساخ ما انتقاه أحرق جميع الكتب الفارسية، وأخذ كتب علوم الطب



إسماعيل الصفوي قتل مليون شخص وأحرق كتبهم

****

الكتب تسد مجرى نهر دجلة .. والناس يعبرون عليها إلى الجانب الآخر


باب غُرنقه وغرنيقه

والنجوم والطبائع، وبعث بالكتب والأموال والخزائن إلى مصر[٤].

وأما بالنسبة للكتب العربية فأقدم ما وصل إلينا عن حرق الكتب كتب عروة بن الزبير (ت٩١هـ/ ٧٠٩م). قال ابنه هشام بن عروة بن الزبير: أحرق أبي يوم الحرَّة كتب فقه كانت له، ثم ندم وقال: لوددت أني كنت فديتها بأهلي ومالي[٥].

أحرق مكتبته بيده

ومن الخزائن الأولى التي أحرقت خزانة أبي عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ/ ٧٧٠م)، فقد أحرقها بيده تنسكاً وزهداً، ظناً منه أن ما فيها من الشعر والأخبار قد يدعو إلى رذيلة، كالغزل والهجاء والعصبية القبلية، قال أبو عبيدة: «أبو عمرو أعلم الناس بالقراءات والعربية وأيام العرب والشعر، وكانت دفاتره ملء بيته إلى السقف، ثم تنسك فأحرقها»[٦].

وممن احترقت كتبه وداره عبد الله بن لهيعة قاضي الديار المصرية سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م، وبعث إليه الليث بن الفضل البيوردي أمير مصر بألف دينار تعويضاً عن خسارته الكبيرة[٧].

ومن أوائل من أُصيب بكتاب عزيز عليه هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠ أو ١٧٦هـ/ ٧٨٦ أو ٧٩٢م) فقد اتفق أنه اشترى جارية نفيسة، فغارت ابنة عمه، وقالت: والله لأغيظنَّه، وإن غظته في المال لا يبالي، ولكني أراه مكبّاً ليله ونهاره على هذا الكتاب، والله لأفجعنَّه به، فأحرقته، فلما علم اشتد أسفه، ولم يكن عند غيره نسخة منه، وكان الخليل قد مات، فأملى الليث بن نصر بن سيَّار تلميذ الخليل النصف من حفظه، وجمع علماء عصره وأمرهم أن يكملوه على نمطه، وقال لهم: مثِّلوا واجتهدوا، فعملوا هذا التصنيف الذي بأيدي الناس[٨].

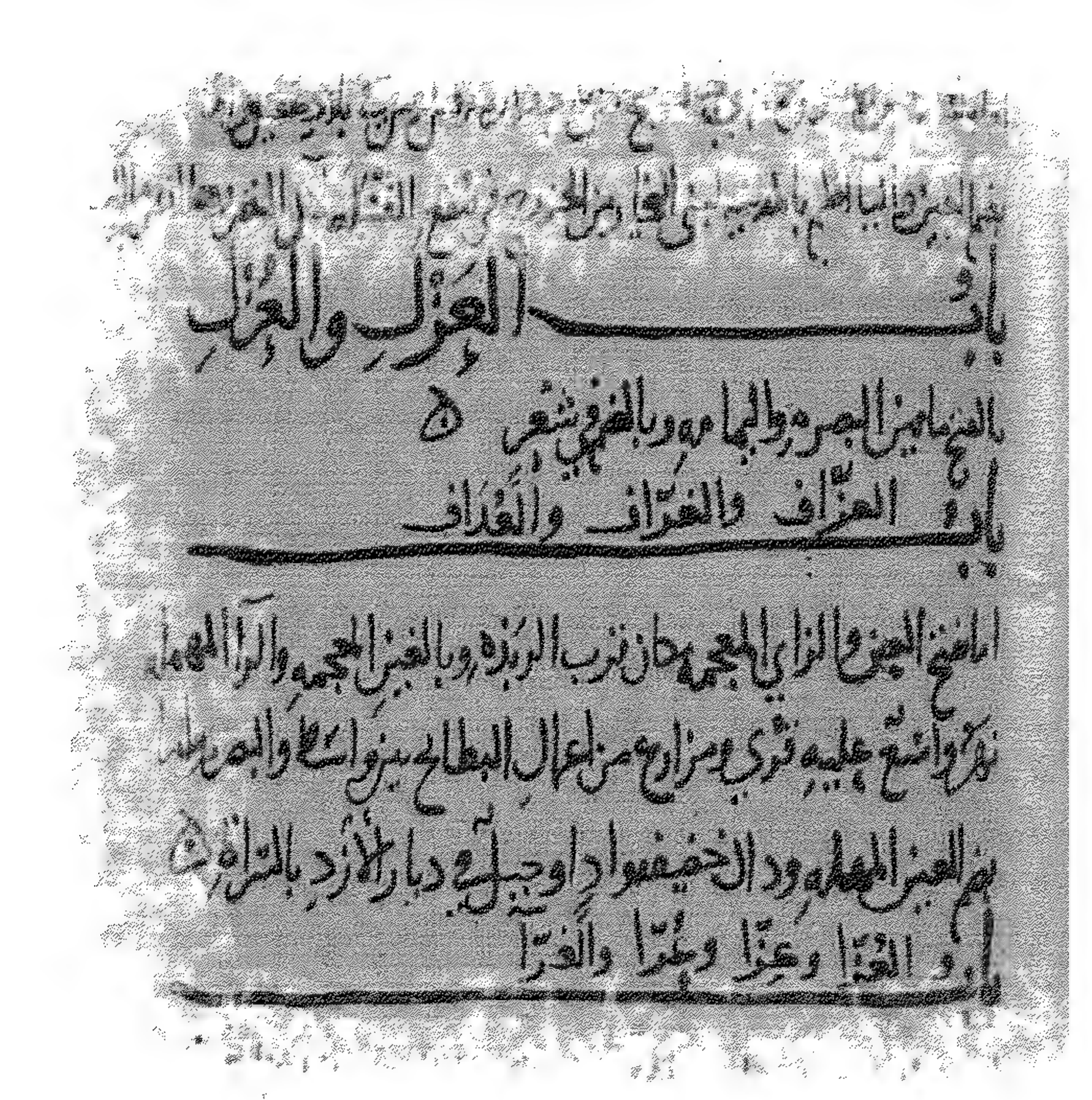
ومن الكتب التي أحرقت بأمر الدولة، كتب المانوية، ففي رمضان سنة ٣١١هـ/ ٩٢٣م: «أُحرق على باب العامة -أحد أبواب دار الخلافة ببغداد- صورة ماني وأربعة أعدال من كتب الزنادقة، فسقط منها ذهب وفضة مما كان على المصاحف له قدر»[٩].

وأوصى ابن الجعابي أن تحرق كتبه، وكانت له مكتبة غنية فيها نفائس الكتب، وفيها أكثر من مائتي ألف حديث، فأحرقها بيده ولم يبق منها شيئاً ومات من ليلته سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٥م، وكان الدارقطني ليلتها في بيت الجعابي وقد شهد الحريق، وكان لدى ابن الجعابي كتب للناس منها مائة وخمسون جزءاً للحسين بن البواب فذهبت كلها في الحريق[١٠].

السيرافي يوصي بإحراق كتبه

وأوصى السيرافي ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م) ولده أن يحرق كتبه، وذلك أنه لمّا دنا أجله استدعى ولده محمداً وقال له: «قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار»[١١].

وقد نزلت بكتب أبي حيان التوحيدي (ت ٤٠٠هـ)



إحراق مليوني مخطوطة في إسبانيا وابنة عم الفراهيدي تغيظه بحرق كتابه

مصيبة الحرق، وكانت المصيبة أشد من غيرها، لأن الحرق كان بيده، فقد ساءت أحوال أبي حيان، وأصابه اليأس والقنوط وسوء الظن بالناس، فأحرق كتبه، وقد سجل ذلك ياقوت بقوله: «وكان أبو حيان قد أحرق كتبه آخر عمره لقلة جدواها، وضناً بها على من لا يعرف قدرها بعد موته، وكتب إليه القاضي أبو سهل علي بن محمد يعذله على صنيعه، ويعرِّفه قبح ما اعتمد من الفعل وشنيعه، فكتب إليه أبو حيان يعتذر من ذلك»[١٢]، وقد كان التوحيدي، على ذكائه وفطنته ودرايته: «يتشكى من زمانه ويبكي في تصانيفه على حرمانه»[١٣].

وفي بخارى احترقت خزانة الأمير نوح الساماني والتهمتها النيران،وقيل إن ابن سينا (٣٧٠- ٤٢٨هـ) احتال على إحراقها ليتفرد بمعرفة ما درسه من كتبها، وذلك أن السلطان مرض فعالجه ابن سينا وأبرأه، ورخص له في دخول المكتبة والوقوف على كتبها الطبية النادرة[١٤]، وفي ظني أن هذا الحريق حدث بسبب ما، ولكن يُجَل ابن سينا عن هذا الاتهام غير المعقول وغير المقنع.

واحترقت كتب محمد أبي جعفر الطوسي فقيه الإمامية في بغداد، وذلك لما وقعت الفتنة بين الشيعة والسُّنّة في سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م، فاحترقت داره وكتبه في باب الكرخ، فانتقل على إثر ذلك إلى النجف، وبقي يدرس هناك إلى أن توفي سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م[١٥].

وأُحرقت كتب ابن حزم الأندلسي، وكان شغوفاً بالكتب له مؤلفات ومقتنيات كثيرة، وقد اشتهر بكثرة مؤلفاته، يقال إنه ألَّف نحو أربعمائة مجلد، لا يُعرف الآن سوى واحد أو اثنين، وأخذ عليه الفقهاء بعض المآخذ، وأبلغوا المعتضد بن عبَّاد أمير أشبيلية ما ينقمون به عليه، فجمع المعتضد كتبه وأحرقها، وفي ذلك يقول ابن حزم:

دعونيَ من إحراقِ رَقٍّ وكاغدِ ... وقولوا بعلم كي يرى الناسُ كم يدري

فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس إذ هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل إن أنزل ويدفن في قبري

وكانت وفاة ابن حزم سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م(١٦).

وقد توالت الحرائق على الجامع الأموي فتلفت فيه النفائس من التحف والمصاحف والكتب، ففي سنة ٤٦١هـ/ ١٠٦٨م شَبَّ في الجامع حريق هائل بسبب فتنة وقعت بين المغاربة والمشارقة، فضربت دار مجاورة للجامع بالنار، واتصلت النار بالجامع وعجز الناس عن إطفائها، وربما احترق في هذه الحادثة المصحف العثماني القديم[١٧]، وبعد ترميم الجامع وإصلاحه احترق ثانية سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م، واتهم النصارى بهذا الحريق، فنُقِضَتْ مئذنة عيسى وجُددتْ من أموالهم، وامتد الحريق حينذاك إلى الأبنية المجاورة للجامع فأتلف سوق

ابن حزم الأندلسي ألّف
«٤٠٠» مجلد لم يبق منها إلاّ اثنان

اللبادين وسوق الوراقين، وبقيت الحرائق تتوالى على الجامع على مرّ العصور[١٨].

وأحرقت خزانة (بيت الكتب) في الري، وذلك حين ورد السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي سنة ٥٤٨هـ الري، أمر بإحراق كل ما تحويه من كتب الروافض وأهل البدع في علم الكلام، وكان في هذه الخزانة فهرس كتب في عشرة مجلدات اطلع عليه ياقوت الحموي[١٩].

واحترقت خزانة كتب سابور بن أردشير في عام ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م في الكرخ ببغداد وكان سابور قد جعلها وقفاً، فاحترقت ونُهب بعض كتبه، وجاء عميد الملك الكندري فاختار من تلك الكتب خيرها، وكان بها عشرة آلاف مجلد، ومائة مصحف بخطوط بني مقلة، وكان العامة قد نهبوا بعضها، فلما وقع الحريق أبعدهم عميد الملك وصار يختار ما أعجبه منها[٢٠].

إحراق خزانة سيف الدولة

وكذلك ذهبت خزانة سيف الدولة حرقاً، وسبب ذلك أن أحد الذين تولوا إدارتها بعد عهد سيف الدولة، وهو أبو الحسن ثابت بن أسلم بن عبد الوهاب النحوي، كان قد وضع كتاباً تعرّض فيه لابتداء دعوة الإسماعيلية وكشف عوارهم، فاستاؤوا وأحرقوا خزانة الكتب انتقاماً منه، وصلبوه سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م[٢١].

وفي البصرة أحرقت دار الكتب التي أنشأها عضد الدولة، قال ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م، إنه «في جمادى الأولى ورد البصرة رجل كان ينظر في علوم النجوم يقال له (تليا)، واستغوى جماعة، وادَّعى أنه الإمام المهدي، وأحرق البصرة، فأحرقت دار كتب عملت قبل عضد الدولة (ت ٣٧٢هـ/ ٩٨٢م)، وهي أول دار كتب عُملت في الإسلام»[٢٢]، وقال ابن الأثير: إن الذين استغواهم تليا أحرقوا عدة مواضع في البصرة، ومن جملة ما أحرقوا داران للكتب، إحداهما وُقفت قبل أيام عضد الدولة بن بويه، فقال عضد الدولة: هذه مكرمة سُبقنا إليها، وهي أول دار وُقفت في الإسلام، والأخرى وقفها الوزير أبو منصور بن شاه مردان، كان بها نفائس الكتب وأعيانها»[٢٣].

وفي سنة ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م، أُحرقت ونُهبت خزانة القاضي أبي الفرج بن أبي البقاء في البصرة، وذلك أن الأمير صدقة بن منصور بن دبيس صاحب الحلة لما استولى على البصرة، استناب بها مملوكاً كان لجده دبيس بن مزيد، اسمه التونتاش، وجعل معه مائة وعشرين فارساً، فاجتمعت ربيعة والمنتفق ومن انضم إليهم من العرب، وقصدوا البصرة في جمع كثير، فقاتلهم التونتاش فأسروه وانهزم أصحابه، ولم يقدر من بها على حفظها، فدخلوها بالسيف وأحرقوا الأسواق والدور الحسان، ونهبوا ما قدروا عليه، وأقاموا ينهبون ويحرقون اثنين وثلاثين يوماً، وتشرَّد أهله في السواد، ونُهبت خزانة كتب كانت موقوفة، وقفها القاضي أبو الفَرج بن أبي البقاء[٢٤].

وأحرقت مكتبة طرابلس على إثر استيلاء الصليبيين سنة ٥٠٣هـ/ ١١١٠م، قيل: لما وقعت هذه المدينة في أيدي الصليبيين، دخل قسيس هذه الخزانة، فصادف أن أول غرفة دخلها كانت تحتوي على مصاحف، فوضع يده على عشرين نسخة منها بالتوالي، فلما وجدها كلها مصاحف أعلن أن هذه الدار لا تحتوي إلا على كتب مخالفة للحق، وبناءً على هذا الحكم أحرقها الفرنج، فصارت رماداً، ولم ينجُ من الحريق إلا عدد قليل من الأجزاء التي تفرقت في البلاد[٢٥].

وكادت خزانة المدرسة النظامية أن تحرق، لولا أن تداركها العلماء، ففي سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦م، وقعت النار في الحظائر المجاورة للمدرسة النظامية ببغداد، فاحترقت الأخشاب التي بها، «واتصل الحريق إلى درب السلسلة، وتطاير الشرر إلى باب المراتب، فاحترقت منه عدة دور، واحترقت خزانة كتب النظامية، وسلِمت الكتب، لأن الفقهاء لما أحسوا بالنار

نقلوها»[٢٦].

وأحرق التتر دار كتب ساوة على ما ذكر ياقوت، قال: «ساوة مدينة بين الري وهمذان، جاءها التتر فخرَّبوها وقتلوا كل من فيها، ولم يتركوا أحداً البتة، وكان بها دار كتب لم يكن في الدين أعظم منها، بلغني أنهم أحرقوها»[٢٧].

ومما أحرق بأمر السلطان خزانة ابن المرخم القاضي سديد الدين يحيى بن سعيد، صار أقضى القضاة في أيام المقتفي العباسي، وكان -كما يصفه المؤرخون- ظالماً جائراً مرتشياً، قتل سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م في أيام المستنجد، كانت خزانته عامرة بكتب الفلسفة والطب، صودرت منه في أيام المستنجد، وأُحرق جانب منها، قال ابن الأثير: «وأُخذت كتبه، فأحرق منها في الرحبة[٢٨] ما كان من علوم الفلسفة، فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا، وكتاب إخوان الصفا، وما يشاكلهما»[٢٩].

وفي هذه السنة (سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) وبسبب من عنف الفتن المذهبية، تم إحراق مكتبة مسجد عقيل في نيسابور، فقد تقدم المؤيد (أي بَهْ) بإمساك أعيان نيسابور، لأنهم -كما قيل- رؤساء للحرامية والمفسدين، فأخذ يقتل المفسدين فخربت نيسابور، وكان من جملة ما تخرَّب مسجد عقيل الذي كان مجمعاً لأهل العلم، واحتوى على خزائن كتب موقوفة، ثم قوَّض من مدارس الحنفية سبع عشرة مدرسة، وأحرق ونهب عدة خزائن كتب، وضمت تلك الخزائن كتباً وقفها أبو علي الجذامي المالقي النحوي في حياته، فأتلف المؤيد (أي بَه) كل ذلك وأجهز عليه[٣٠].

إحراق خزانة العزيز بالله

ومن الخزائن الكبيرة والنفيسة التي أُحرقت خزانة كتب العزيز بالله الفاطمي بمصر، وذلك عند دخول الأيوبيين مصر سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، فأُلقي بعضها في النار، وبعضها الآخر في النيل وتُرك بعضها في الصحراء، فسفت عليه الرياح حتى صار تلالاً عرفت بتلال الكتب، واتخذ العبيد من جلودها نعالاً، وطُرِح ما بقي منها عند وصول الأكراد للمبيع، في أواسط القرن السادس[٣١].

وممن ابتلي بحرق مكتبته وتوالت عليه المصائب بالحرق والغرق والنهب أبو العباس الأنصاري الخزرجي (ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)، وكان قد جمع خزانة حافلة بالكتب بالإضافة إلى ما نسخه بخطه الجميل، وقد توالت على كتبه النكبات أثناء إقامته بالأندلس غرقاً وحرقاً ونهباً، وقد تولى خزانة كتب السلطان أبي يعقوب عبد المؤمن في مراكش[٣٢].

ومن التعصب المذهبي إحراق كتب الآخرين، فحين استولى المرابطون على الأندلس كثرت حركة التدمير فأحرقت كتب الفلاسفة، ومنها كتب الغزالي، ولما غلب الموحدون المرابطين أحرقوا كتبهم، ولما غُلب الموحدون أحرق المرابطون كتب الموحدين، فحملوا كتب المذهب المالكي أحمالاً على الرواحل ووجهوها إلى فاس في مراكش وأحرقوها أمام جمع من الناس[٣٣].

وكان السلطان أبو يعقوب بن عبد المؤمن قد أبعد ابن رشد عن مراكش إلى الأندلس، بعد أن آذاه، وأمر بإبعاد كل من يتكلم بالعلوم الفلسفية وأحرق كتب الفلسفة. وبعد أن مال السلطان إلى تعلّم الفلسفة أعاد ابن رشد إلى مراكش، وتوفي ابن عبد المؤمن سنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٧م.

ابن الأبار هجا المستنصر فقُتل «قصعاً» بالرماح وأحرقوه مع كتبه

احتراق جامع أصفهان

ومن الرزايا التي حصلت في عام ٥٩٩هـ/ ١١٢١م احتراق جامع أصفهان، ذكر ابن الجوزي أنه: «كان فيه من المصاحف الثمينة نحو خمسمائة مصحف، من جملتها مصحف ذُكر أنه بخط أُبيَّ بن كعب رضي الله عنه»[٣٤].

ولما احتل الصليبيون القسطنطينية سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م ارتكبوا فظائع كثيرة من القتل والنهب والاضطهاد، وحرقوا كتباً كثيرة وخزائن كتب فيها

النوادر التي لا تعوض، ونهب الجنود صلبان الكنائس وأمتعتها وجميع ما كان ملطوخاً على ظهر الأناجيل من الفضة والذهب.

ومن الكتب التي أحرقت خزانة كتب عبد السلام الجيلي (ت٦١١هـ/ ١٢١٤م)، ذكر القفطي قصة حرق كتبه فقال: «قرأ علوم الأوائل وأجادها، واقتنى كتباً كثيرة في هذا النوع، واشتهر بهذا الشأن شهرة تامة، وله تقدم في الدولة الإمامية الناصرية، وحصل له بتقدمه حسد من أرباب الشر، فثلبه أحدهم بأنه معطل، وأنه يرجع إلى أقوال أهل الفلسفة في قواعد هذا الشأن، فأوقعت الحفظة عليه وعلى كتبه.. وبرزت الأوامر الناصرية بإخراجها إلى موضع ببغداد يعرف بالرحبة، وأن تحرق بحضور الجمع الجم منها، ففعل، وأحضر لها عبيد الله التميمي البكري المعروف بابن المارستانية، وجُعِل له منبر صعد عليه، وخطب خطبة لعن فيها الفلاسفة ومن يقول قولهم، وذكر الركن عبد السلام هذا بشرٍّ، وكان يخرج الكتب التي له، كتاباً كتاباً، فيتكلم عليه ويبالغ في ذمه وذم مصنفه، ثم يلقيه من يده لمن يلقيه في النار»[٣٦].

وأحرق الخليفة المستنصر كتب ابن الأبار البلنسي، وكان ابن الأبار من كبار الشعراء والمؤرخين، وكان حافظاً حسن الخط، وهو مؤلف كتاب أعتاب الكتاب، وحصل خلاف بين ابن الأبار والمستنصر، فأمر السلطان بالقبض عليه، وبعث إلى داره من نقل إليه كتبه وأوراقه بأجمعها، فألقي بينها فيما زعموا قرطاس فيه أبيات تذمّ الخليفة الذي غضب عليه فأمر بامتحانه ثم بقتله، فقُتِلَ قعصاً بالرماح في منتصف محرم سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م، ثم أُحرق شلوه، وحُملت مجلدات كتبه ودواوينه فأحرقت معه، وكان ابن الأبار قد استشعر ما سيؤول إليه الحال فقال هذين البيتين:

إذا ما رأيتَ الرسوم انمحت ... ولم يُرْعَ حقٌّ لذي منصبِ

فخذ في التحول عن تونسٍ ... واترك معالمها واهربِ[٣٧]

وأحرق المغول مكتبة مسعود بك في بخارى لما استولوا على المدينة سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، وكان بها كتب كثيرة[٣٨].

وكانت مكتبة خوارزم من المكتبات الكبيرة الشهيرة في بلاد فارس، فلما دخلها التتر هدموها وأتلفوا ما كان فيها من الذخائر العلمية، وقتل جنكيز خان أهلها وسبى ذراريها، وقوَّض المساجد وأحرق المصاحف وجاء بأبشع المنكرات، وذلك سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م[٣٩].

إحراق مكتبات بخارى والهند

وأحرق المغول المكتبات في بخارى والهند، وذلك حين تولى أباقا شؤون المملكة المغولية سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م خلفاً لأبيه هولاكو، وتمادى في تخريب دور العلم،

فأحرق مدرسة سمرقند، ومدرسة مسعود بك في بخارى، وكانت كلتا المدرستين من أعظم مدارس ذلك العصر تشتمل كل منهما على مكتبة ثرية، فالتهمت النيران مخطوطاتهما الوافرة، ولم تسلم مكتبات الهند من الكوارث، إذ لم يبق منها شيء إثر الفتنة فاحترق بعضها، ونهب بعضها الآخر، والقليل الذي بقي من كتب الهند بيع بثمن بخس[٤٠].

ونشب حريق في خزانة الكتب النورية بحماة سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٨٨م، فالتهم مخطوطاتها التي لا تحصى[٤١].

واحترقت خزانة الكتب التي في قلعة الجبل بمصر، قال المقريزي: «وقع بها الحريق يوم الجمعة رابع صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة (١٢٩٢م)، فتلف بها من الكتب في الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شيء كثير جداً، كان من ذخائر الملوك، فانتهبها الغلمان وبيعت أوراقاً محرقة، ظفر الناس منها بنفائس غريبة، ما بين ملاحم وغيرها، وأخذوها بأبخس الأثمان»[٤٢].

وأُحرقت خزائن كتب دمشق سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م، فقد أغار غازان ملك التتر على دمشق واستباحها، وأحرق كثيراً من كتبها، وقد صور علاء الدين الأوتاري الدمشقي في شعره ما حلّ بالمدينة من بلاء فقال يبكيها:

أحسن الله يا دمشقُ عزاكِ في مغانيكِ يا عمادَ البلادِ
طرقتهم حوادثُ الدهرِ بالقتـ ـل ونهبِ الأموالِ والأولادِ
وبنات محجبات عن الشمـ ـس تناءَتْ بهنّ أيدي الأعادي
وقصور مشيدات تقضَّتْ في ذراها الأيامُ كالأعيادِ
وبيوت فيها التلاوة والذكـ ـرُ وعالي الحديثِ والإسنادِ
حرَّقوها وخرَّبوها وبادتْ بقضاء الله ربِّ العبادِ[٤٣]

إحراق ٨٠ ألف مخطوطة بالأندلس

ومن النكبات الكبيرة التي حلَّت في الكتب والمكتبات ما حلّ في مكتبات الأندلس، بعد استيلاء الإسبان وذلك عام ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م، إذ جُمعت المخطوطات من كل الأنحاء وأحرقت أكداساً في أكبر ساحات غرناطة، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة مجلد في الطب والرياضة أهديت إلى جامعة (القلعة) التي أنشأها الكردينال زيمنس، ويقال إن عدد المخطوطات العربية التي أبيدت في تلك الفاجعة بلغ نحو ثمانين ألفاً[٤٤].

واحترقت الخزانة الحيدرية بالنجف، وفيها مصاحف نفيسة بخط علي بن أبي طالب، قال ابن عنبة (ت ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م): «وقد كان بالمشهد الشريف الغروي، مصحف في ثلاثة مجلدات، بخط أمير المؤمنين علي عليه السلام، احترق حين احترق المشهد سنة خمس وخمسين وسبعمائة (١٣٥٤م)، يقال إنه كان في آخره: وكتبه علي بن أبي طالب»[٤٥].

وأحرقت خزائن المدرسة العادلية والمدرسة القضائية في دمشق، وذلك في وقعة تيمورلنك سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، فقد استعرت النيران في دمشق مدة ثلاثة أيام متوالية، فأتلفت أسواقها ومنازلها ومساجدها ومدارسها، واحترقت كتب تلك المدارس[٤٦].

وممن أُصيب بعلمه وذهبت النار بكتبه، ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي الأنصاري الأندلسي المتوفى سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م، فقد كان أكثر أهل زمانه تصنيفاً، وبلغت مصنفاته نحو ثلاثمائة مصنف، وكان جمَّاعة للكتب جداً، ثم احترق غالبها قبل موته، وكان ذهنه مستقيماً قبل أن تحترق كتبه، ثم تغيَّر حاله بعد ذلك[٤٧].

ومن الآفات الطبيعية التي أودت بنفائس الكتب، ما نزل بخزانة كتب المسجد النبوي الشريف، ففي الثالث عشر من شهر رمضان سنة ٨٨٦هـ/ ١٢٨٧م، وقعت صاعقة على مئذنة المسجد، فانهارت على سقفه وعلقت به النار، فأحرقت المسجد بكامله، والتهمت جميع ما فيه من الكنوز والمصاحف والربعات وخزائن الكتب، وكانت تلك الخزائن تضم كتباً نفيسة ومصاحف عظيمة، هيهات أن يجود الزمان بمثلها[٤٨].

قتل مليون شخص وإحراق كتبهم

وأحرق إسماعيل شاه الأول الصفوي مصاحف وكتب أهل السُّنّة، مع ارتكابه فظائع كثيرة، وذلك حين ولي العرش (٨٩٠- ٩٣٠هـ/ ١٤٨٥- ١٥٢٣م) في بلاد فارس ونشط يثأر من قاتلي أبيه وجده، فأخذ يجيِّش الجيوش ويهاجم البلدان حتى ملك تبريز وأذربيجان وخراسان والعراقين العربي والفارسي، وأوشك يدّعي الربوبية، فقتل من الناس ما ينوف عن ألف ألف (مليون) نسمة، وفتك بأعاظم علماء الفرس ولم ينجُ أحد منهم، ثم أحرق مصاحفهم وكتبهم تشفياً لكونها مصاحف أهل السُّنّة، وكان كلّما مرّ بقبور مشايخهم نبشها وأخرج عظامهم وأحرقها، وكان إذا قتل أميراً من الأمراء استباح زوجته وأمواله وجعلها حلالاً لشخص آخر[٤٩].

وقد أحرق الصليبيون كل أثر إسلامي في حروبهم مع المسلمين، فكانوا ما أن يغزوا مدينة أو قرية مسلمة حتى يحرقوا ما فيها من مكتبات ومخطوطات، مع ما تبقى من أهلها الأحياء بعد المعركة[٥٠]، وقد ظهر هذا جلياً في الأندلس، فقد حكم المسلمون الأندلس قرابة ثمانية قرون، وأسسوا فيها حضارة مزدهرة، ولكن حكمهم انتهى بسقوط غرناطة سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م، وعلى إثر احتلال النصارى للمدن الإسلامية وإرضاء لمشاعرهم الدينية المتأججة، جمعوا المخطوطات العربية من أنحاء الأندلس وإسبانيا وأحرقوها، وقد قاد هذه العملية البشعة الكاردينال خيمينيز سيسنيروس، وكان هذا العمل جزءاً من أعمال محاكم التفتيش ضد الإسلام والمسلمين، وقد قدرت المخطوطات العربية التي أُحرقت بمليوني مخطوطة[٥١].

وكذلك أحرق اليونان النصارى الكتب الإسلامية بعد خروج الأتراك المسلمين، فقد دمّر اليونانيون كل أثر للمسلمين من أبنية ومساجد وتكايا وحوّلوها إلى حانات وكنائس واسطبلات، ولم يبقَ في اليونان من الكتب الإسلامية غير أربعين مخطوطة، بعضها مصاحف أو كتب تفسير وغيرها محفوظة في المكتبة الأهلية بأثينا[٥٢].

واحترقت كتب عربية في مدريد سنة ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م، فقد شب حريق في مكتبة الأوسكوريال بسبب صاعقة سقطت فالتهمت النار قسماً من المخطوطات، وكانت المكتبة تضم آلاف الكتب التي استولى عليها الإسبان من مكتبات الخلفاء المسلمين في الأندلس، وأضيف إليها ما غنمه الإسبان من المخطوطات التي كانت في خزائن مولاي زيدان سلطان مراكش[٥٣].

ولم يكن التعصب الديني ليقتصر على الكتب الإسلامية بل كانت كتب النصارى واليهود طعمة للنار بسبب هذا التعصب البغيض، فقد كان الكاثوليك الفرنسيون في القرون الوسطى يحرقون كتب البروتستانت واليهود، من ذلك أنه صدر حكم بإحراق كتب التلمود، فحشدوا جميع نسخه المخطوطة ونقلوها على أربع وعشرين عجلة إلى ساحات مدينة باريس، وأضرموا النار على مرأى من سكان العاصمة فالتهمتها بأجمعها، وكذلك فعل الفرنسيون بمصاحف البروتستانت الدينية في القرن السادس عشر، فجمعوها وكدسوها كلها أكداساً، ثم أضرموا فيها النيران، فأتت عليها برمتها[٥٤].

وهكذا ضاع تراث عظيم نفيس لا يعوّض، نسأل الله سبحانه أن يوفق الحريصين من أبناء هذه الأمة لحفظ ما تبقى من هذا وصيانته والحرص عليه، فإنه مرآة الحضارة العربية الإسلامية وزينتها وبهجتها، وعصارة ذهن علمائها.■

الهوامش:

١) دائرة معارف القرن العشرين: ٨ / ٧٥.
٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين ١ / ١٠٧.
٣) دائرة معارف القرن العشرين: ٨ / ٧٤.
٤) ابن النديم: الفهرست ص٢٣٩، البيروني: الآثار الباقية ص١٢٩، أنيس سلوم: في الكتب والمطالبة، محاضرة ضمن محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق ص٢٦٣، دي طرازي: خزائن الكتب ٣ / ٩٦٨- ٩٦٩.
٥) ابن حجر: تهذيب التهذيب ٧ / ١٨٣.
٦) ياقوت: معجم الأدباء ٤ / ٢١٧، الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء ١ / ٢٩٠، حاجي خليفة: كشف الظنون ١ / ٥٢.
٧) تذكرة الحفاظ: ١ / ٢٢٠.
٨) السيوطي: بغية الوعاة ١ / ٥٦٠.
٩) ابن الجوزي: المنتظم ٦ / ١٧٤.
١٠) تذكرة الحفاظ: ٣ / ١٣٠- ١٣٢.
١١) ياقوت: معجم الأدباء ١٥ / ٢٢
١٢) ياقوت: معجم الأدباء ٥ / ٣٨٦، السيوطي: بغية الوعاة ص٣٤٩.
١٣) السيوطي: بغية الوعاة ٢ / ١٩٠.
١٤) الزيات: تاريخ الأدب العربي ص٣٣٣- ٣٣٤، دي طرازي ١ / ١٧١.
١٥) مجلة الرسالة سنة ٦، ص١٥٤٨، دي طرازي: خزائن الكتب ٣ / ٩٩٥.
١٦) المقري: نفح الطيب ٢ / ١٤١.
١٧) كرد علي: خطط الشام ٦ / ١٩٧.
١٨) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق ١ / ٣٠٧، وينظر: دي طرازي ٣ / ١٠٠١.
١٩) ياقوت: معجم الأدباء ٢ / ٣١٥.
٢٠) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ٣.
٢١) دي طرازي: ١ / ١٢، كرد علي: خطط الشام ٦ / ١٩١.
(٢٢) ابن الجوزي: المنتظم ٩ / ٥٣.
٢٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠ / ١٢٢.
٢٤) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ٢٧٤.
٢٥) أحمد زكي: كتاب الحضارة الإسلامية ص٥٢-٥٤، دي طرازي: خزائن الكتب ٣ / ١٠٠٤.
٢٦) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ٣٦٦- ٣٦٧، والبداية والنهاية ١٢ / ١٧٩.
٢٧) ياقوت: معجم البلدان ٥ / ٢١.
٢٨) أي رحبة جامع القصر المعروف اليوم بجامع سوق الغزل ببغداد.
٢٩) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ١٧٠، ابن الجوزي: المنتظم ١٠ / ١٩٤.
٣٠) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ٣ / ٣٨، تاريخ ابن الوردي ٢ / ٨٣، السيوطي: بغية الوعاة ص٢١٥.
٣١) دي طرازي: خزائن الكتب ١ / ١٧٩.
٣٢) السابق: ٣ / ٩٩٣.
٣٣) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة ٢ / ٥٦٧ ط كوديرا.
٣٤) ابن الجوزي: المنتظم ٩ / ٢٢٤.
٣٥) المطران جراسيموس مسرة: تاريخ الانشقاق ٢ / ٢٣١، الخوري إسحاق ارملة، الحروب الصليبية في الآثار السريانية ص٢٠٤، دي طرازي ٣ / ١٠٠٥.
٣٦) القفطي: أخبار الحكماء ص٢٢٨- ٢٢٩، أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر ٣ / ١١٦.
٣٧) المقري: نفح الطيب ١ / ٦٢١- ٦٢٢.
٣٨) دائرة معارف القرن العشرين ص٧٥.
٣٩) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ٣ / ١٢٧- ١٢٨.
٤٠) محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين ٨ / ٧٥.
٤١) كرد علي: خطط الشام ٦ / ١٩٨.
٤٢) المقريزي: الخطط ٣ / ٣٤٥، والسلوك لمعرفة الملوك ١ / ٧٧٧، ابن الأثير: البداية والنهاية ١٣ / ٣٢٧.
٤٣) محمد عبد الله عنان: مقالة بعنوان (أنقذوا تراث الأندلس) مجلة الرسالة سنة ٤، ص١٦٨٥- ١٦٨٦، جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ٣ / ١١٣.
٤٤) كرد علي: خطط الشام ٦ / ٣٧٦.
٤٥) ابن عنبة: عمدة الطالب في أنساب أبي طالب ص٥.
٤٦) كرد علي: خطط الشام ٦ / ١٩٨.
٤٧) ابن العماد: شذرات الذهب ٧ / ٤٥، السخاوي: الضوء اللامع ٦ / ١٠٥.
٤٨) قطب الدين الحنفي: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص١٠٥، والمراد بالربعات: صناديق لأجزاء المصحف، جمع ربعة، والكلمة من الألفاظ المولدة.
٤٩) عثمان بن عبد الله بن بشر: عنوان المجد في تاريخ نجد ص٢٥، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص١٢٦، دي طرازي: خزائن الكتب ٣ / ١٠٠٩.
٥٠) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ ص٢٩٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧ / ٥٠.
٥١) إمام الدين: المخطوطات العربية في المكتبات الإسبانية الحديثة، مقال بالإنجليزية في جريدة الجمعية التاريخية الباكستانية مجلد ٧، عام ١٩٥٩ ص١٩٥- ٢٠٤، محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ص٣٢٨- ٣٤٨.
٥٢) المرجع السابق.
٥٣) دي طرازي: خزائن الكتب ٣ / ١٠٢٠.
٥٤) دي طرازي: خزائن الكتب ٣ / ١٠٢٥.



خان الخليلي في مصر

يتنكر للباني.. ويخلد الجاني

■ السيد يونس

حي خان الخليلي أو سوق خان الخليلي في مصر من أشهر الأحياء والأسواق.. فهو تراث وتاريخ وسياحة واقتصاد ونزهة وعراقة وفخامة.. وإن شئت.. فلك أن تعده في كل مجال من المجالات السابقة منفرداً.. وإن شئت فهو كل ذلك مجتمعاً.. يفده ا لزوار وخاصة السياح من كل مكان للاستمتاع بجوه التاريخي.. وجودة صناعته ودقتها وفنياتها العالية.

الطريف أن الخان الحالي مسمى باسم غير صاحبه الذي بناه.. فهو يتنكر للسلطان قنصوه الغوري الذي أمر ببنائه عام ١٥١١م .. وظل يحتفظ باسم جهاركس الخليلي الذي كان أول من بنى الخان.. وعندما جاء الغوري أمر بهدمه فلم يبق منه شيء.. وأمر ببناء حواصل وحوانيت ورباع ووكالات مكانه.. لأن الخليلي ارتكب من الأعمال ما أثار غضب الكثيرين فجنى على نفسه ومات ميتة مشينة.. ومع هذا.. بقي اسمه مخلداً!.

والخان كلمة فارسية[١] معناها منزل أو سوق، وقد استخدمت من أقدم العصور الإسلامية للدلالة على ذلك البناء الهندسي الذي يتكون من العديد من الحجرات تحيط بفناء مكشوف، يضم غالباً طابقين فوق بعضهما، يحوي الدور الأول من الداخل إسطبلات للخيل والدواب، وبجداره من الخارج صف من الحوانيت الصغيرة ذات الشكل المألوف (عبارة عن حنية في الجدار حوالي ستة أقدام مربعة أو أكثر تضم أرففاً للبضائع ومصطبة للبائع والمشتري).

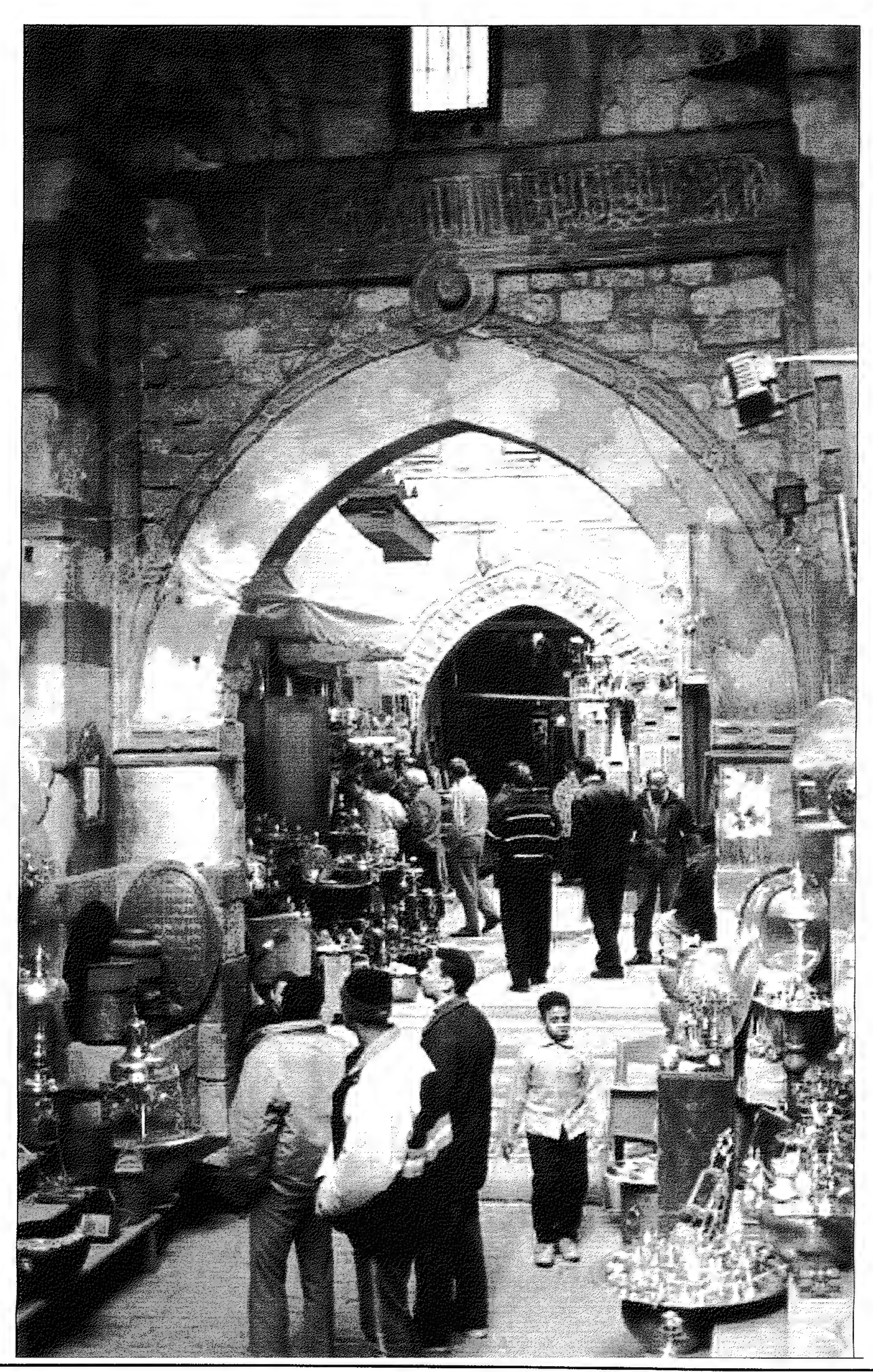
أما الأدوار العلوية فكانت مقسمة عموما إلى مساكن، وكانت هذه الأنواع من المباني تضم مسجداً، إما في الفناء الأوسط أو في طابق علوي فوق المدخل كما تضم أيضاً سبيلاً[٢]. وكانت هذه المباني توجد عادة على مسافات على طول الطرق التجارية الهامة لإيواء المسافرين ودوابهم وبضائعهم. ولعل السبب في إطلاق هذا الاسم على تلك الأبنية في العالم الإسلامي هو أن سلاجقة الروم كانوا أول من طور تخطيط عمارة جميلة لهذا الغرض خاصة[٣].

ومن الملاحظ أن هذا النوع من المباني وهو الخان كان يبنى في خارج المدينة أو في داخلها، ففي الحالة الأولى يبنى على هيئة صحن ويسمى أحياناً رباطاً، يدور حول جداره الخارجي أبراج للمراقبة ويصد هجمات الأعداء، بينما يختلف النوع الذي يوجد بداخل البلاد في تخطيطه عن تخطيط الرباط والفندق وإن كان يؤدي ما يؤديه الفندق بالنسبة للتجار الأجانب[٤].

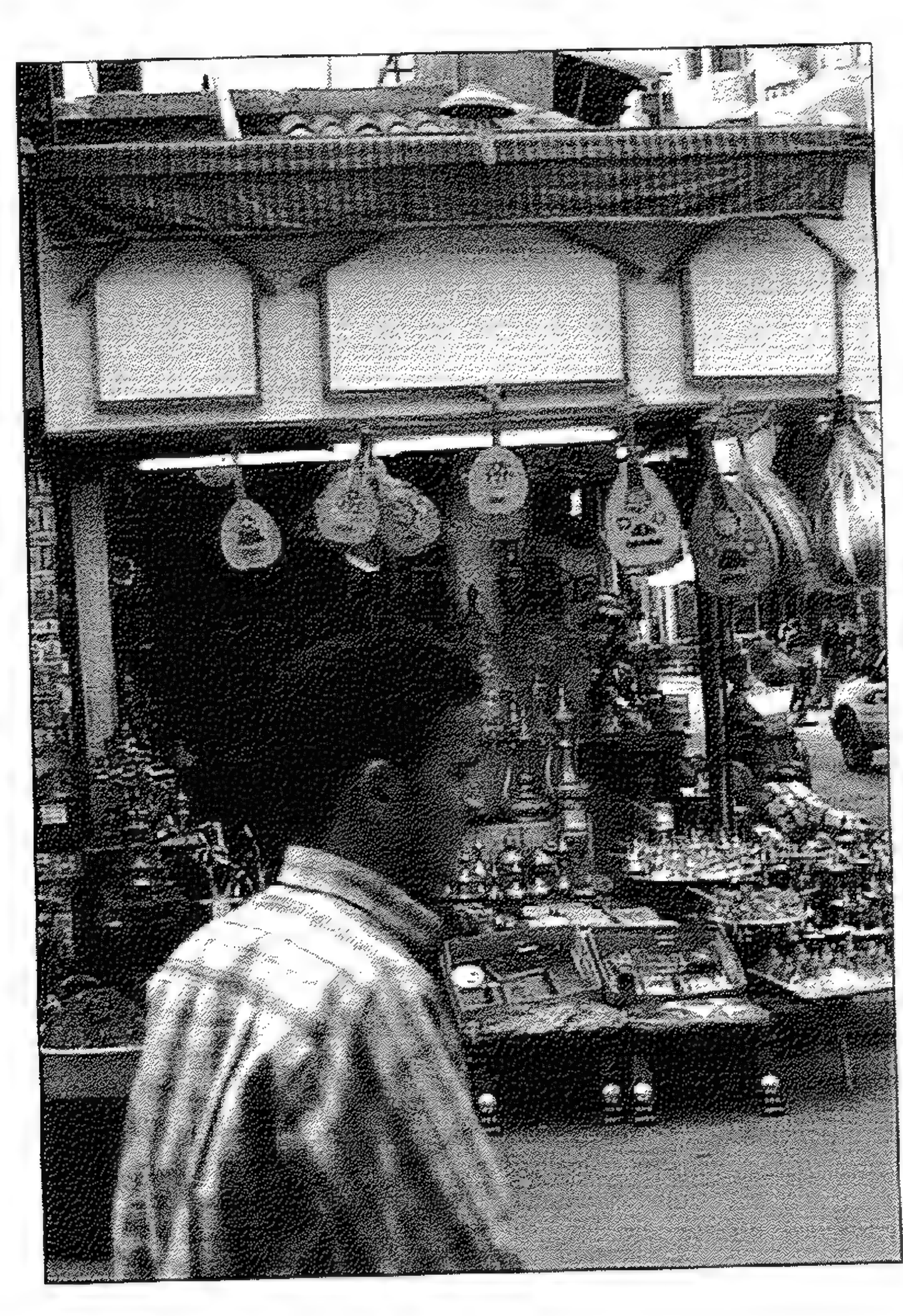
ويبدو أن الخانات كانت موجودة بمصر منذ بداية العصر الإسلامي، إلا أنه لم ترد إشارة فيما كُتب قبل العصر الفاطمي تفيدنا في هذا الصدد، إلا أن ناصر خسرو الذي زار القاهرة من سنة ١٠٤٧م إلى سنة ١٠٥٠م أشار إلى وجود عدد كبير من الخانات في الفسطاط، وذكر أن إيجار الواحد منها لم يكن يقل عن اثني عشر ألف دينار في العام[٥].

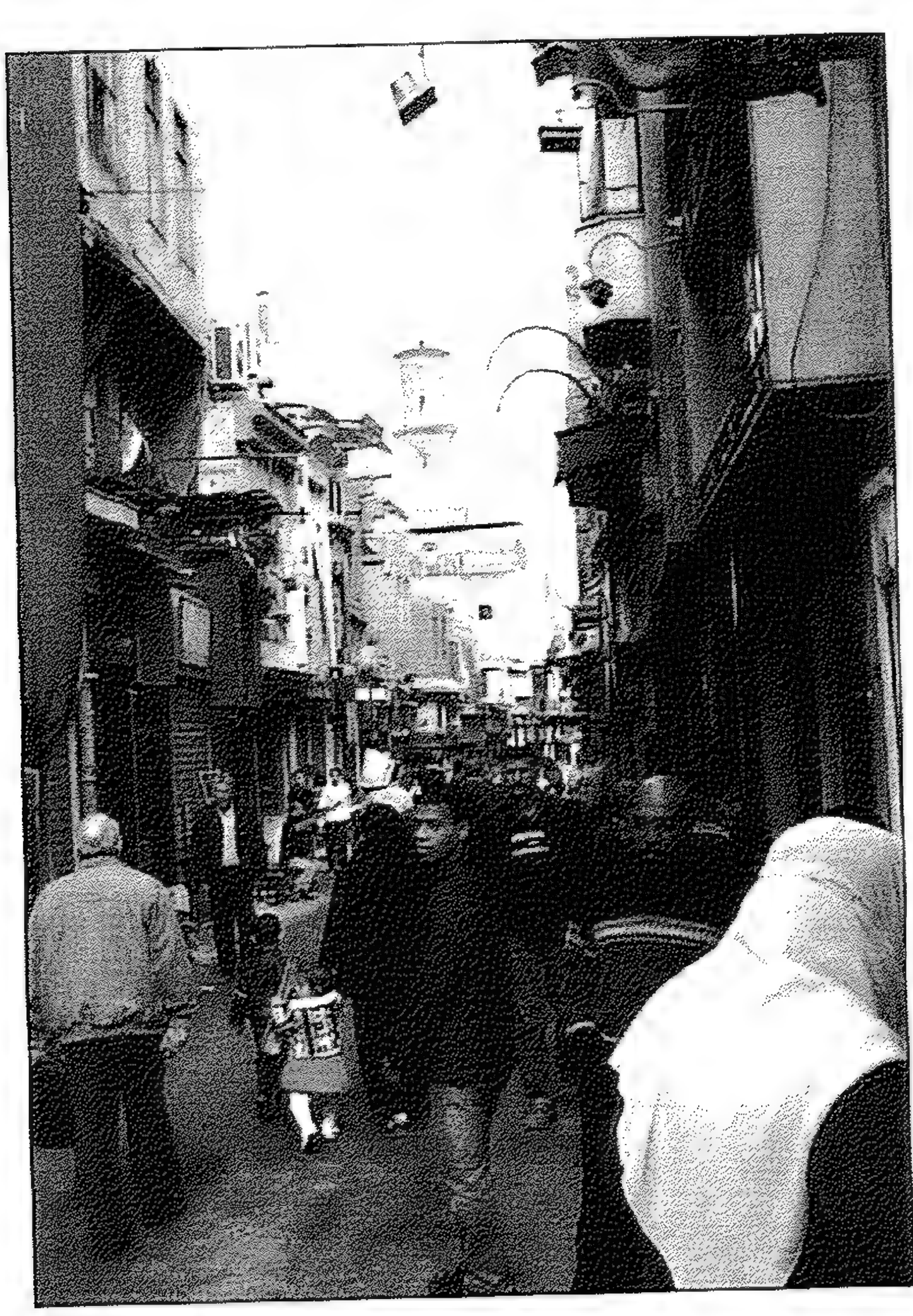
وقد أورد المقريزي في خططه بعض الخانات التي ترجع إلى العصر الأيوبي والمملوكي ومن هذه الخانات التي ترجع إلى العصر الأيوبي والتي استمرت قائمة في العصر المملوكي خان مسرور.

أما عن العاملين بالخانات فكان يُعين بها موظفون ويُخصص لهم مرتبات محددة كانت تكتب أحياناً ضمن تأسيس الخان، وكما كان الحال في خانات



يبحثون عن صفقات
شرائية أم يطالعون
النقوش البديعة؟





محلات ومتسوقون في كل موقع من أطراف الخان

الشام، كما يتضح من نص كان موجودا على خان عياش الذي أمر بإنشائه السلطان لاجين سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، فقد كانت هذه النصوص تحوي أمراً بإعطاء إمام الجامع الذي كان يشرف على المسجد الموجود بالخان مبلغاً معيناً وكذلك المؤذن بل والبواب المخصص للخان[٦].

خان الأمير جركس الخليلي

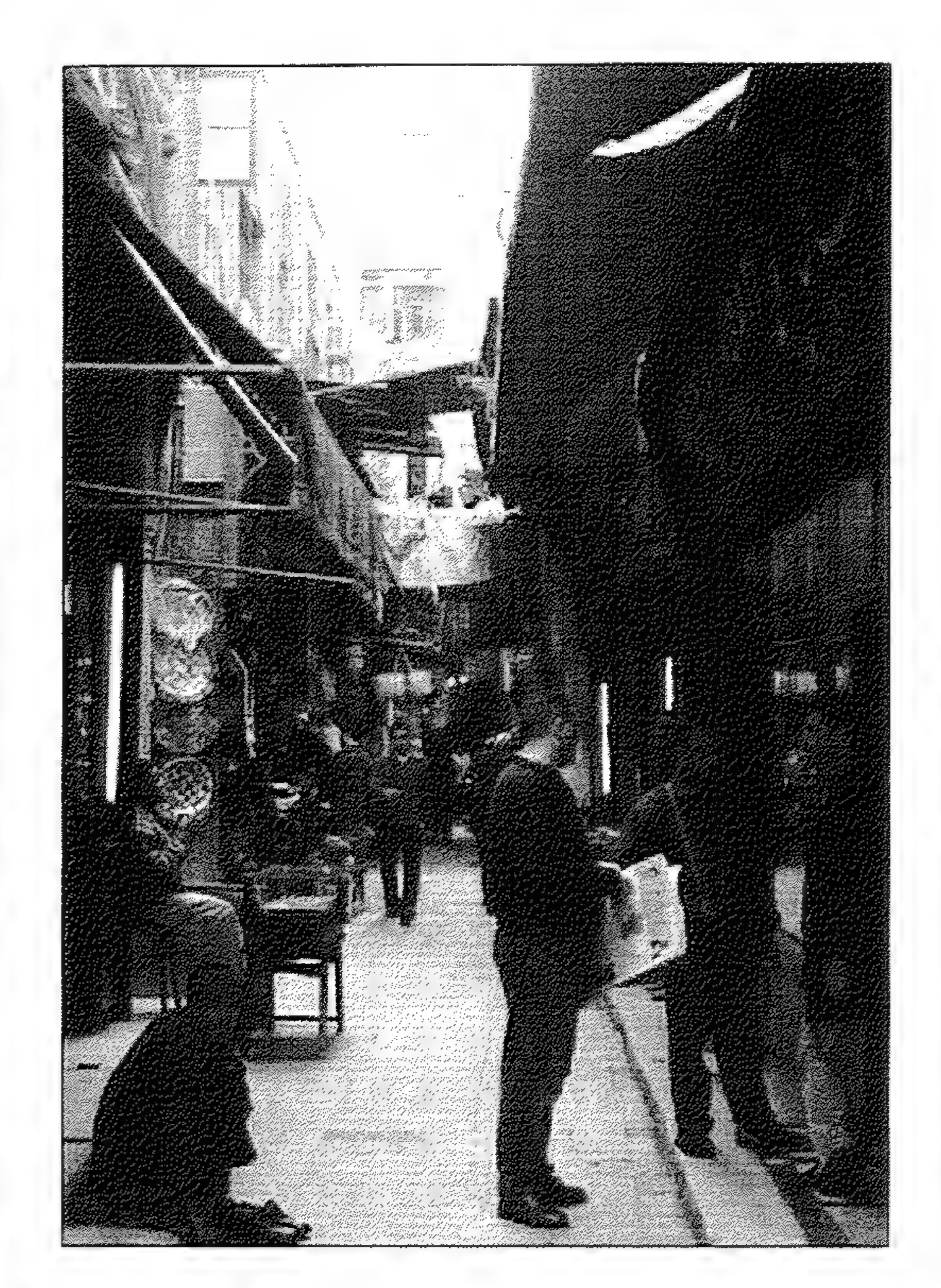
أنشأ هذا الخان الأمير سيف الدين جركس أو جهاركس الخليلي* أمير أخور السلطان الظاهر برقوق[٧] (٧٨٧-٨٠١هـ/ ١٣٨٥-١٣٩٨م) وكان موقعه بخط الزراكشة العتيق**، وكان موضعه التربة (مقبرة) المعزية (تربة الخلفاء الفاطميين) المعروفة بتربة الزعفران، وكانت من جملة القصر الكبير والتي ضمت رفات آباء المعز لدين الله التي جاء بها من المهدية إلى القاهرة عندما تم لقائده جوهر الصقلي فتح مصر [٨].

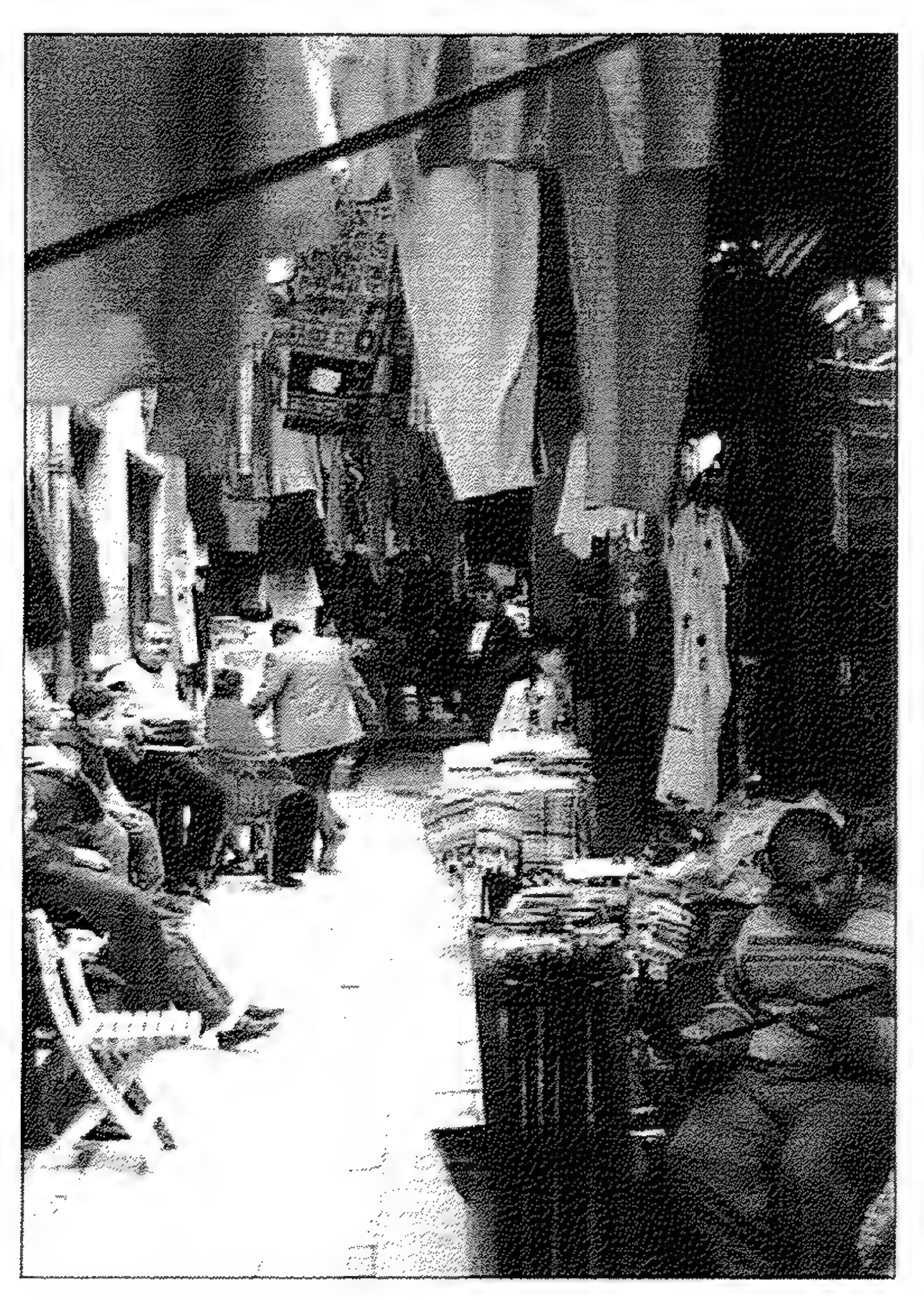
ولما رغب الأمير جهاركس في بناء هذا الخان، نبش تربة (مقابر) الزعفران وألقى بما كان بها من عظام على التلال الموجودة خارج القاهرة (كيمان البرقية) هوناً بها معتذراً عن ذلك مدعياً على حد قوله بأن الفاطميين كانوا كفاراً رُفَّضاً، وهذه الدعوى من غير شك لا تنهض عذرا لهذا العمل الشنيع، ولا لما يقتضيه جلال الموت من احترام للموتى ورفاتهم[٩]، وأقيم الخان على أطلال تربة الزعفران، وقام الأمير سيف الدين جركس الخليلي بوقف هذا الخان وغيره من المباني على فقراء مكة وجعل ريعها خبزاً يوزع عليهم فكان يوزع على كل فقير رغيفان في اليوم[١٠].

وظل الحال على ذلك سنتين وعندما زادت الأسعار بمصر سنة ٨٠٦ هـ واضطربت أحوال النقد صار يحمل إلى مكة مال ويوزع على الفقراء[١١]. وهذا مثال لما كان يرتكبه بعض المماليك من أعمال السوء، ثم يكفرون عنها بإنشاء المبرات وأعمال الخير.

وكان في موت الأمير جهاركس الخليلي عبرة لأولي الألباب، وذلك نظرا لما ارتكبه من آثام وانتهاكات للمقدسات وحرماتها ونبش القبور وإخراج رفات الفاطمين وإلقائها على الأكوام.

ولما ورد الخبر بخروج الأمير يلبغا الناصري نائب حلب ومجيء الأمير منطاش نائب ملطية إليه، ومسيرهما بالعساكر إلى دمشق، أخرج الملك الظاهر





يحتفظ خان الخليلي بشخصية خاصة لا توجد في غيره من الأسواق الشعبية

برقوق خمسمائة من المماليك وتقدم عدداً من الأمراء وسار بهم فخرج الأمير الكبير أيتمش الناصري والأمير جهاركس الخليلي هذا والأمير يونس الدوادار والأمير أحمد يلبغا الخاصكي والأمير ندكار الحاجب، وساروا إلى دمشق فلقيهم الناصري ظاهر دمشق، فانكسر عسكر السلطان الظاهر برقوق وفر أيتمش إلى قلعة دمشق.

وقُتل جهاركس الخليلي في يوم الاثنين حادي عشر شهر ربيع الآخر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة (٧٩١هـ/ مايو-يونيو ١٣٨٩م) بدمشق، وترك على الأرض في الخلاء عارياً وسوءته مكشوفة وقد انتفخ، وكان طويلاً عريضاً إلى أن تمزق وبلي، وأكلته الوحوش والنسور والحيوانات البرية، وذلك عقوبة من الله تعالى بما هتك من حرمات الأئمة وأبنائهم[١٣].

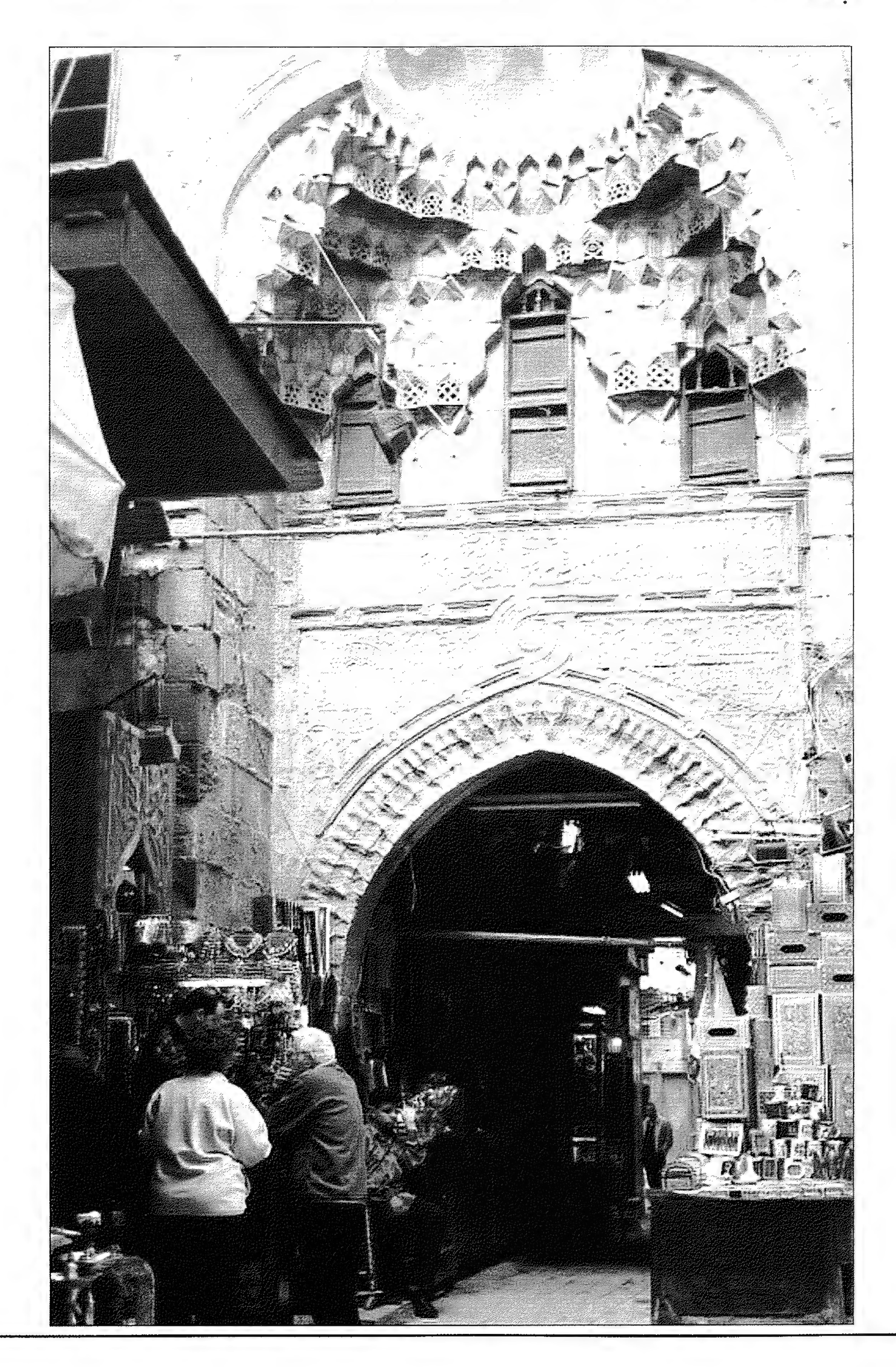
وظل هذا الخان حتى قام السلطان الغوري في ربيع الآخر سنة (٩١٧هـ/ يونيو- يوليو ١٥١١م) بهدمه وإنشاء حواصل وحوانيت ورباع ووكالات في موقعه، ويذكر ابن إياس أنه قد تكرر نزول السلطان الغوري إلى عمارته لتتبع سير الأعمال بها[١٣] ويمكن الوصول إلى تلك المنشآت من خلال ثلاثة أبواب، اثنين متقابلين تعلوهما مقرنصات وزخارف، وواحد في الطريق الغربي للشارع المؤدي من المشهد الحسيني إلى داخل الخان[١٤].

على الرغم من زوال خان الأمير جركس الخليلي وإنشاء السلطان الغوري لخانه بدلاً منه إلا أن اسم خان الخليلي مازال يطلق على تلك المنطقة حتى الآن.

السلطان الغوري وخان الخليلي

بعد قيام السلطان الغوري بهدم الخان الذي أنشأه الأمير جركس الخليلي سنة (٩١٧هـ/ ١٥١١م) قام بإنشاء مجموعة من العمائر من حواصل وحوانيت وأربع ووكالات، وكان يتوصل إليها من ثلاث بوابات، ولم يتبق من منشآت السلطان قانصوه الغوري في خان الخليلي في حالة جيدة غير الأبواب الثلاثة وكذلك وكالته المعروفة بوكالة القطن[١٥].

أما عن هذه الأبواب الثلاثة الباقية من منشآت السلطان قانصوه الغوري بخان الخليلي فمنها اثنان متقابلان بينهما ممر السوق، أما الباب الثالث ففي الطريق الغربي للشارع المؤدي من المشهد الحسيني إلى داخل الخان ويغلق على السوق ليفصله عن بقية الشوارع المجاورة.



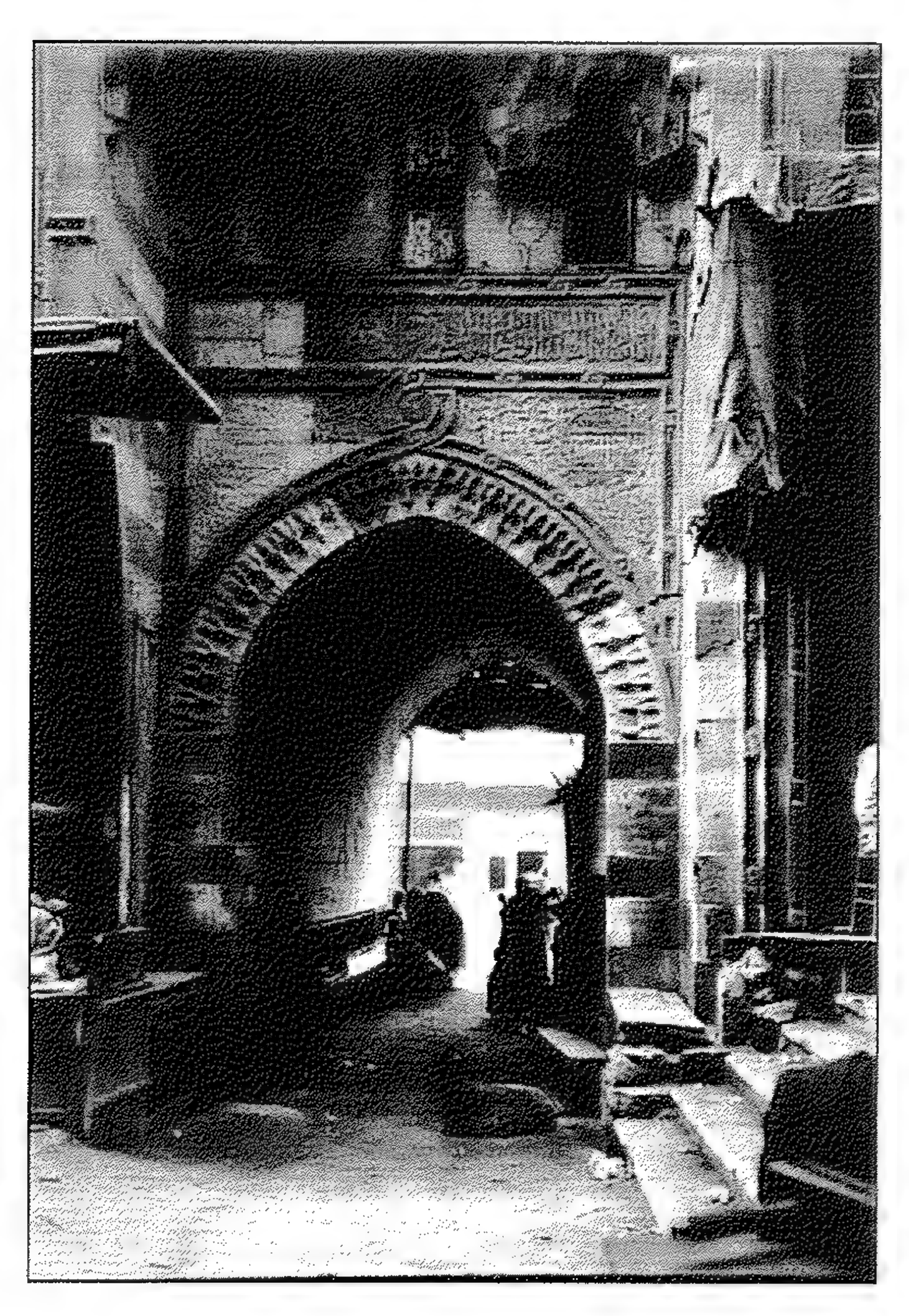
الباب الغربي

تتكون العمارة الخارجية لهذا الباب من واجهتين حجريتين أولاهما رئيسة في الناحية الجنوبية الغربية تطل على حارة خان الخليلي، وعلى جانبيه كتابة نسخية بارزة نصها «أمر بإنشاء هذا المكان المبارك سيدنا ومولانا ومالك رقابنا الإمام الأعظم والملك المكرم / ... من حكم في عصره بالحكم / ... الحرمين الشريفين السلطان الملك الأشرف أبو النصر قنصوه الغوري خلد الله ملكه (وثبت قواعد دولته)»، وقد نقشت كوشتي عقد هذا الباب بزخارف هندسية بسيطة قوامها أشكال مثلثات تتوسطها جامتان دائريتان داخل مربعين متشابهين بكل منهما رنك كتابي نصه «أبو النصر قنصوه الغوري عز لمولانا السلطان الملك الأشرف / عز نصره»، ويرتكز هذا العقد من الجانبين على دعامتين ذواتي صدرين مقرنصين بمقرنصات حجرية من ثلاث حطات.

أما عن عمارته الداخلية -فيما يلي الباب المشار إليه- فهي عبارة عن دركاة مربعة ذات قبو مروحي تتوسطه صرة تزينها زخارف نباتية وإشعاعية، في ضلعيها الجنوبي الشرقي والشمالي الغربي دخلتان متشابهتان ذواتا عقدين نصف دائريين يرتكز كل منهما على دعامتين مقرنصتين بمقرنصات حجرية من ثلاث حطات زُينت طاقية كل منهما بزخارف إشعاعية، يلي ذلك منطقة مستطيلة من صنجات حجرية معشقة، تعلوها نافذة صغيرة تليها كسوة ذات عقد نصف دائري، أما الضلع الشمالي الشرقي لهذه الدركاة ففيه فتحة باب ذات عقد مدبب يحيط به وبها جفت لاعب ينعقد في ميمة دائرية عند قمته، يلي ذلك منطقة تأريخ ذات كتابة نسخية بارزة نصها «أمر بإنشاء هذا الحصن المبارك السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قنصوه الغوري عز (نصره)»، وتعلو هذا النص نافذة مربعة ذات حجاب من المصبعات المعدنية الحديثة، وقد توج هذا الضلع بعقد ثلاثي يرتكز من الجانبين على دعامتين مقرنصتين بمقرنصات حجرية من ثلاث حطات، فتحت في طاقيته أربع كوات صغيرة متشابهة[١٦].

باب وكالة القطن

تتكون العمارة الخارجية لهذا الباب الحجري الذي يعرف بباب وكالة القطن- من حجر غائر يغطيه عقد مدائني ذو صدر مقرنص بمقرنصات ذات ذيول هابطة تشبه عش النحل يتوسطها لفظ الجلالة «الله»، ويكتنف هذا الحجر من أسفل مكسلتان حجريتان متشابهتان، بينهما فتحة باب ذات عقد نصف دائري يحيط به جفت لاعب ذو ميمات دائرية، تعلوه منطقة تأريخ ذات كتابة نسخية بارزة نصها «أمر بإنشاء هذا المكان المبارك السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري عز نصره»[١٧]، ويتوسط كوشتيه رنكان كتابيان باسم المنشئ نص كل منهما «قنصوه الغوري / عز لمولانا الملك الأشرف / عز نصره».

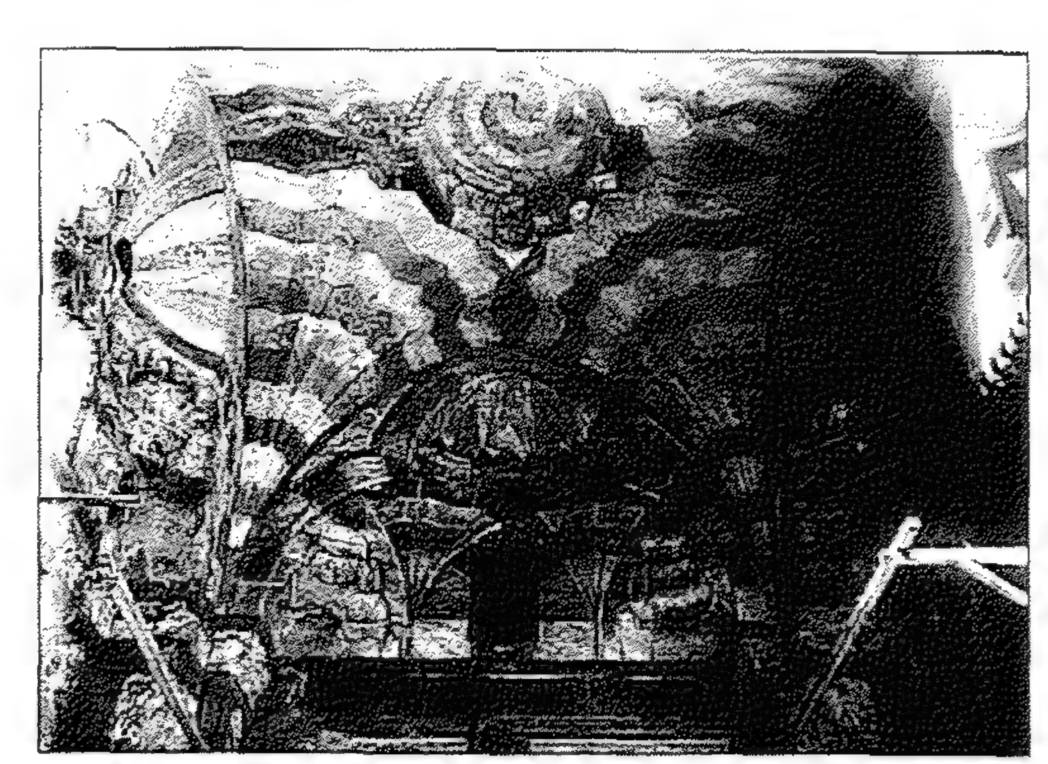


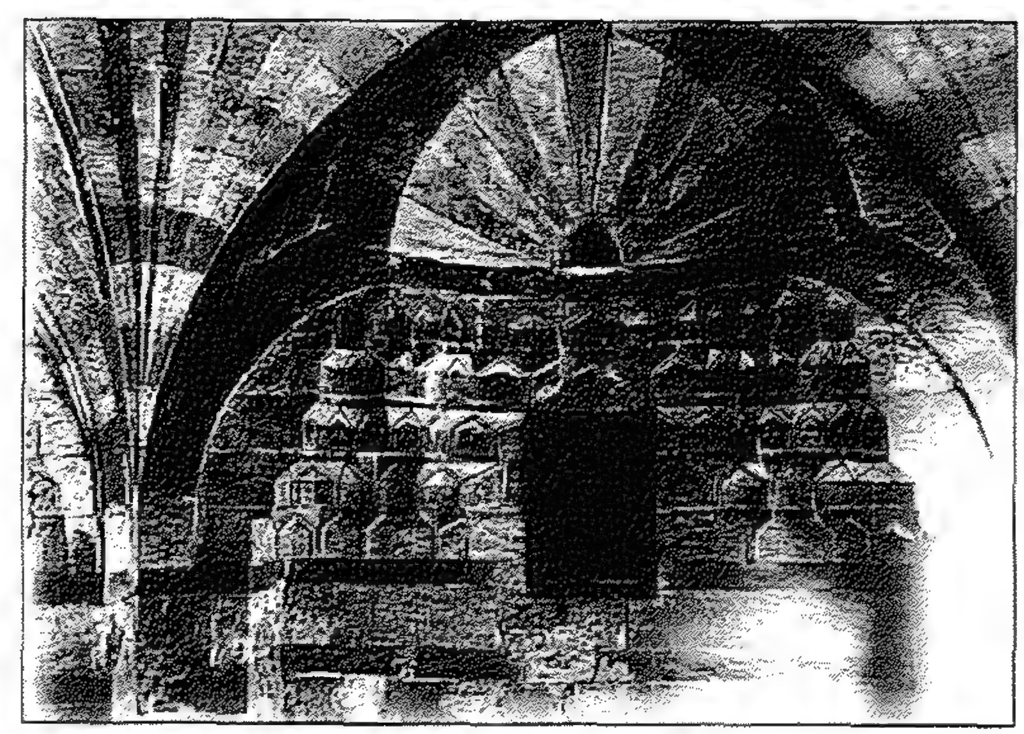
صورتان قديمة وحديثة لأحد أبواب الخان

أما عمارته الداخلية - فيما يلي الباب المشار إليه - فهي عبارة عن مساحة مستطيلة ذات أرضية مفروشة ببلاطات حديثة، يغطيها قبو حجري نصف برميلي، يتقدمه قبو متقاطع تتوسطه صرة تزينها زهرة ثُمانية الفصوص ذات لون برتقالي على أرضية زرقاء، في أركانها زخارف نباتية ذات تفريعات مورقة متداخلة[١٨].

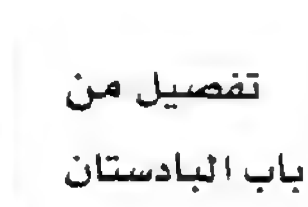
الباب الغربي «البادستان»

تتكون العمارة الخارجية لهذا الباب من حجر غائر









تفصيل من
باب البادستان

يغطيه عقد ثلاثي ذو صدر مقرنص بمقرنصات مقعرة ذات دلايات، يحيط به جفت لاعب ينعقد في ميمة دائرية عند قمته، وقد نقشت طاقية هذا العقد بزخارف زجزاجية جميلة، وزينت كوشتاه بزخارف هندسية بسيطة تتألف من مثلثات ومعينات ودوائر، وتكتنف هذا الحجر من أسفل مكسلتان حجريتان متشابهتان بينهما فتحة باب ذات عقد مدبب تزينه زخارف هندسية بسيطة، تعلوه ثلاث نوافذ متشابهة ذات أحجبة خشبية تتألف في أجزائها العلوية من مصبعات مختلفة الأشكال، وفي أجزائها السفلية من وحدة زخرفية مكررة على هيئة محراب زخرفي ذي عقد ثلاثي مفصص وتزين واجهة عقد هذا الباب - كما أسلفنا - كسوة رائعة من الرخام الملون بالأبيض والأسود والبني في أشكال هندسية تماثل نظيرتها في جامع السلطان الغوري وتربته.

أما عمارته الداخلية -فيما يلي الباب- فهي عبارة عن منطقة مربعة ذات أرضية من بلاطات مستحدثة، يغطيها قبو مروحي تزينه زخارف زجزاجية ذات لون أبيض على أرضية حمراء، في جدرانها ثلاث دخلات متشابهة ذات صدور مقرنصة بمقرنصات مقعرة ذات دلايات، يعلوها نص إنشائي باسم السلطان الغوري، تتوسطها ثلاثة شبابيك سفلية متماثلة ذات أحجبة من المصبعات المعدنية[١٩].

خان الخليلي اليوم

مضت أكثر من ستة قرون على إنشاء خان الخليلي لكنه مازال يحتفظ بأصالته وتاريخه، ويعتبر خان الخليلي من أشهر الخانات الإسلامية في العالم. وذلك على الرغم من أن الاسم بات يطلق على المنطقة بأكملها، التي تتخللها شبكة الأسواق التقليدية القديمة حيث تباع المقتنيات الشرقية والتي يمكن أن نطلق عليها متحفاً للشرقيات؛ حيث يفد السائحون للإطلاع على بدائع فنون الشرق الإسلامي من الأعمال المعدنية المصنوعة من الذهب والفضة والنحاس والبرونز المزخرفة بشتى أنواع الزخارف سواء بالحفر أو الحز أو التكفيت وكذلك الأعمال الخشبية المزخرفة بالحفر والنحت والتعشيق والمرصعة بالمينا والعاج والصدف.

وأيضاً الأعمال الجلدية والعاجية والسجاد والأقمشة وأعمال الخيام، والتي تعد من أفخر وأجمل الفنون الإسلامية؛ بالإضافة إلى ذلك توجد أسواق التوابل والعطور التي يفوح منها عبق الشرق وأسواق الأحجار الكريمة، وهنالك التحف الرخامية والحجرية والمعدنية التي تمثل حضارة الفراعنة بمصر.

وتلك الأسواق الموجودة بخان الخليلي والمحيطة به، خُص كل منها بسلعة أو صناعة أو حرفة معينة، وتكاد كل عائلة في السوق تحتفظ بأسرار مهنتها أو حرفتها وتتناقلها أبا عن جد دون أن تبوح بالسر لأحد إلا لأبنائها الذين يرغبون في التواصل مع إرث الأجداد.

وبالتجول في أسواق خان الخليلي نستطيع أن نشاهد ونرى جمال الفن الإسلامي وروعته من خلال تلك الزخارف الإسلامية التي تزين التحف والمعروضات الشرقية والتي زخرفت بشتى الزخارف العربية الهندسية والنباتية والكتابات العربية بجميع خطوطها وأشكالها.

ويوجد أيضاً بخان الخليلي أسواق للآلات الموسيقية العربية كالعود وغيره، وتنتشر به المقاهي العربية التي تحتفظ بطابعها القديم حيث تقدم بها شتى أنواع المشروبات العربية والنرجيلة، وبالإضافة إلى ذلك

يلعب المقهى بخان الخليلي دوراً هاماً حيث يعقد فيه التجار صفقاتهم وتعاقداتهم[٢٠].

كل ذلك جعل خان الخليلي يحتل مركزا متقدما بين الأسواق العالمية اليوم، فالسائحون يفدون إلى مصر كل عام من شتى أنحاء العالم لا يغادرونها قبل زيارة خان الخليلي لقضاء وقت الفراغ والأمسيات، وشراء التحف الشرقية منه تذكاراً لزيارتهم لمصر والقاهرة وآثارها وفنونها الإسلامية.

ومن سحر وجمال خان الخليلي.. ذلك الأثر الذي يرجع الفضل في إنشائه إلى الأمير جركس الخليلي، إن الأديب المصري العالمي نجيب محفوظ الحاصل على جائزة نوبل قد بُهر بهذا المكان، حتى أنه ألف روايته الشهيرة (خان الخليلي) التي تعكس مدى تأثره بهذا الخان، وذلك في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين.

وفي النهاية وعلى الرغم من أن عمائر السلطان قانصوه الغوري بهذا المكان قائمة حتى الآن، وعلى الرغم من زوال خان الخليلي إلا أن اسمه مازال علما على تلك المنطقة.■

الهوامش و المراجع:

*) جهاركس بفتح الجيم والهاء وبعد الألف راء ثم كاف مفتوحة ثم سين مهملة: لفظ عجمي معناها بالعربية أربعة أنفس. عن المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: محمد زينهم، الجزء الثاني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٥٦١.

**) خط الزراكشة العتيق كان يقع بين خط باب الزهومة وخط السبع خوخ ويدخل منه بعض من دار العلم الجديدة وبعض من جملة القصر النافعي وبعض من تربة الزعفران. عن أيمن فؤاد سيد، بحث بعنوان «تحول القاهرة إلى مركز اقتصادي في أواخر العصر الفاطمي وفي العصر الأيوبي» بكتاب الخان الخليلي وما حوله، مركز تجاري وحرفي للقاهرة، من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٩٩م، ص١٦٠.

١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، الجزء الثالث، القاهرة، ١٩٠٦م، ص٣٩٣.

٢) آمال أحمد حسن العمري: المنشآت التجارية في القاهرة في العصر المملوكي، مخطوط رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م، ص١٤٦.

David Talbot Rice: Islamic Art, London, 1965, P 165. 3

٤) نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٢٥٦ / آمال العمري: المرجع السابق، ص١٤٧.

٥) آمال العمري: المرجع نفسه، ص١٤٧.

Jean Souvaget: Caravanserails syrien Du Moyen Ages, Ars Islamica, Vol 6-7, U.S.A 1940/. 6

آمال العمري: المرجع نفسه، ص١٥٥.

٧) عاصم محمد رزق: أطلس العمارة الإسلامية والقبطية بالقاهرة، الجزء الثالث، القسم الثاني، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٢م، ص١٩٢٢.

٨) المقريزي: المرجع السابق، ص١٦١.

٩) شحاتة عيسى إبراهيم: القاهرة تاريخها ونشأتها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١م، ص٢١٤.

١٠) آمال العمري: المرجع نفسه، ص١٩٢٢.

١١) المقريزي: المرجع نفسه، ص٥٧٩.

١٢) المقريزي: المرجع نفسه، ص٥٧٩.

١٣) ابن إياس (أبو بركات محمد بن أحمد): بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الثالث، مطبعة بولاق ١٣١١-١٣١٢هـ، القاهرة ١٩٦١م، ص٢٣٧.

١٤) عاصم محمد رزق: المرجع السابق، ص١٩٢٢.

١٥) آمال العمري: المرجع السابق، ص١٩٤.

١٦) عاصم رزق: المرجع السابق، ص١٩٤٥م / آمال العمري: المرجع نفسه، ص١٩٥-١٩٦.

Van Berchem, M: Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypt, I, Paris 1932, P596. 17

١٨) عاصم رزق: المرجع نفسه، ص١٩٣٤ / آمال العمري: المرجع نفسه، ص١٩٦.

١٩) عاصم رزق: المرجع نفسه، ص١٩٢٣م / آمال العمري، المرجع نفسه، ص١٩٧-١٩٨.

٢٠) جان شارل ديبول: بحث بعنوان (المقهى بين العمل والإقامة)، بكتاب الخان الخليلي وما حوله، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص١٧٩.

الحمـــاة والكنـــة

هـل هي عداوة مستحكمة؟!

■ أ. د. محمد رضوان الداية

في كتاب مجمع الأمثال للميداني (١١:١) من أمثالهم القديمة، مثلٌ شائع جاء شعراً على بحر الرجز؛ يقول قائله:

إنَّ الحَمَـــاةَ أُوْلِـــعَـــتْ بـــالـــكَـــنَّـــةْ
وأُوْلِـــعَـــتْ كَـــنَّـــتُـــهـــا بـــالـــظَّـــنَّـــةْ!

وعلّق الميداني على المثل القديم فقال: «الحماةُ أمّ زوج المرأة، والكَنّةُ: امرأة الابن وامرأة الأخ أيضا. والظَّنّةُ: التهمة. وبين الحماة والكنّة عداوة مستحكمة».
وبيّن الميداني وجه الاحتجاج بالمثل وإيراده فقال إنه: «يُضْرَبُ في الشر يقع بين قوم هم أهل لذلك».. انتهى.
واستعمل المثل عبارة: «أولعت» لكلا الطرفين: الحماة والكنّة. ومعنى أولع بالشيء: لجَّ، وغَرِيَ، وعَلِقَ؛ مما يدلّ على هذا الإلحاح والدوام.. وعلى المنافرة والخصومة أيضا..
وللحماة حضور في التراث الفصيح، وفي التراث الشعبي. ويختلط الجِدُّ في ما يخص الحماة في المأثور الشعبي بالهزْل. وتتدخل أمورٌ كثيرة في ضبط هذه العلاقة التي تتأثر بالأحوال الاجتماعية، والظروف الحياتية، والبيئات المختلفة (عوامل المكان والزمان)..
ولابد من طرح تساؤل حول كلام الميداني السابق: إلى أية درجة يكون هذا الصدام أو هذه العداوة لازمة، أو أمراً لابد منه؟ وحتى متى تبقى العداوة مستحكمة؟

(١)

مادة (الحماة) اللغوية ترجع إلى (ح م و) ودلالة المادة واسعة، وإطار هذه القرابة أو العلاقة أوسع من المألوف في استعمالنا اليومي. وفي لسان العرب: حَمْوُ المرأة وحَمُوْها، وحَمَاها، أبو زوجها، وأخو زوجها؛ وكذلك مَنْ كان من قِبلِه.. وكل من وَلِيَ الزوج من ذي قرابته فهم أحماء المرأة. وأمّ زوجها حماتها. وكل شئ من قبل الزوج: أبوه أو أخوه أو عمه فهم الأحماء. والأنثى: حماة. قال الراجز:

إنّ الحمـــاةَ أُوْلِـــعَـــتْ بـــالـــكَـــنّـــهْ
وأبت الـــكَـــنّـــةُ إلا ضِـــنّـــهْ

(كذا رواه في لسان العرب). قال: وحَمُو الرجل أبو امرأته، أو أخوها أو عَمّها. وقيل: الأحماء من قبل المرأة خاصة، والأختان (الواحد خَتَن) من قِبَل الرجل. والصِهْرُ يجمع ذلك كُلّه.
وقال الجوهري في الصحاح: حماةُ المرأة أم زوجها، لا لغة فيها غير هذه.
وقال ابن الأعرابي (لغوي): الحماةُ أم الزوج، والخَتَنَةُ أم المرأة. وقد قال أحد الشعراء على سبيل الدعابة:

سـبّـي الحَمَـاةَ وابـهـتـي عَـلَـيْـهـا
ثـم أضْـربـي بـالـودّ مِـرْفَـقَـيْـهـا

والبَهْت والبهتان: قذفه بالباطل (قال فيه كلاماً

«للحماة حضور في التراث الفصيح، وفي التراث الشعبي.
ويختلط الجِدُّ في ما يخص الحماة في المأثور الشعبي بالهزْل»

كذباً). والودّ: الوتد.

والشائع في الاستعمال أن الحماة تقال لأم الزوج، وتقال لأم الزوجة أيضا. ويقول الرجل في والد زوجته حماي، وكذا تقول الزوجة في والد الزوج.

وقد يستعملون كلمة العم لمعنى الحما. تقول المرأة: زرت بيت عمي، واستقبلتني امرأة عمي (أي حماتها).

(٢)

الأحْماء والأخْتَانُ والأصْهار

في سورة الفرقان (٥٤) قوله تعالى: (وَهُوَ الذّي خَلَقَ من الماءِ بشراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وصِهْراً) قال القرطبي (٥٩:١٣): النسب والصهر معنيان يعمان كل قربى تكون بين آدميين.. وقد امتنّ الله تعالى على عباده بالنسب والصّهر ورفع قدرهما وعلّق الأحكام في الحِلّ والحُرْمة عليهما فلا يلحق الباطل بهما ولا يساويهما.

وعن الأصمعي: قرابة الزوجة هم الأخْتّان (جمع خَتن) وقرابة الزوج هم الأحماء و«الأصهار» يقع على كل ذلك عاماً. وعن ابن الأعرابي: الصهر زوج ابنة الرجل وأخوه وأبوه وعمّه. وقال الشيباني: أخْتان الرجل: أزواج بناته وأخواته وعماته وخالاته، وكل ذات مَحْرَم منه؛ وأصْهاره كلّ ذي محْرمٍ من زوجته. والمشهور ما رواه الأصمعي.

وفي الحديث (عن القرطبي ٢٩٧:١٦) عن عويم بن ساعدة «إن الله عز وجل اختارني واختار لي أصحابي فجعل لي منهم وزراء وأختاناً وأصهاراً فمن سبّهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عَدْلاً».

(٣)

وصوّر الشعر العلاقة بين الأحماء والكنّات في حالي الاعتدال وحسن المعاملة، والتوافق من جهة: والاختلاف، والاضطراب وفقدان الثقة من جهة أخرى.

ونقرأ في شعر عديّ بن خرشة الخطمي:

ولستُ برافعٍ صوتي بسوءٍ
على الكنّات آخِرَ ما حييتُ

فهو يقول إن من صفاته الحسنة أنه لايؤذي الكنة ولا يرفع عليها صوته طوال حياته.

واستفادَ ابنُ نباتة (شاعر من عصر المماليك) من كلمة (حماة) واستخدمها عل سبيل التورية، مقارنة بكلمة (حماة) اسم المدينة المعروفة. فقد قال يرثي السلطان الأفضل صاحب حماة:

وما ماتَ إذْ ماتتْ بحُزنٍ نساؤه
وماتتْ بأحزانِ البلادِ حَمَاتهُ

فكلمة (حماته) توهم أن المراد أمّ الزوجة، فهذا المعنى الظاهر، والمراد مدينة حماة، وهي المعنى المقصود (البعيد).

ولم ينقذ موضوع الرثاء الموقف من نزعة ابن نباته الغامرة لاستخدام فن التورية.

وكان بين أخوين أديبين نزاع، وهما عبد الصمد وأحمد ابنا المعذّل. وكان عبد الصمد يؤذي أخاه (أحمد) ويهجوه فكان أحمد يقول له: أنت كالإصبع الزائدة إن تركت شانَتْ (شوّهت جمال اليد) وإن قُطعت آلمتْ. فأجابه عبد الصمد:

أطاع الفريضة والسُّنّة
فتاهَ على الإنْسِ والجنّة

كأنّ لنا النارَ من دُونِه
وأفْرَدَهُ الله بالجَنَّةْ
وينْظرُ نحوي إذا زُرْتُهُ
بعَيْنِ حَماةٍ إلى كنَّةْ!

فنظرة أخيه إليه نظرة قاسية شديدة - كما يقول- ويضرب المثل بنظرة الحماة (الصعبة الشديدة) إلى كنّتها (المسكينة)!

والشاعران من صدر الدولة العباسية، فالقضية قديمة!

- وهذا شاعر يصف حال كنّته ويذكر كثرة أولادها (فهي كثيرة الولادة والنتاج)، ولكنها في الوقت نفسه تمد عينيها، وتصغي بأذنيها تتسقط الأخبار والأسرار. ثم ختم وصفها فشبهها بالذئب، قال:

إنَّ لنا لَكَنَّهْ
مِبَقّةً مِفَنّهْ
مِنتجةً مِعَنّهْ
سِمْعَنّةً نِظْرَنّهْ
كالذئب وسطَ القُنّهْ
إلا ترَهْ تَظُنّهْ

فهي إن لم تكن كالذئب تماماً فهي تشبهه كثيراً.. كذا يقول!

وقد ورد ذكر الحماة والكنّة في بعض الأمثال الفصيحة، وقد بدأنا بالمثل الذي أورده الميداني: إن الحماة أولعت بالكنة...إلخ» وتفسير الميداني للمثل يجعله الأكثر أهمية في ذكر معنى العداوة المستحكمة.

وفي أمثال العرب (مجمع الأمثال ١:٢٠٩) قالوا: «حَظِيّيْن بناتٍ صَلِفَيْن كَنّاتٍ» الحظي الذي له حظوة ومكانة عند صاحبه. يقال: حَظِي فلانٌ عند فلان إذا وجد عنده منزلةً ورتبة. والصلفُ ضده. و«امرأة صَلِفةٌ» إذا لم تحظ عند زوجها. والكنَّةُ امرأة الابن، وتقال في امرأة الأخ أيضا، كما مرّ في النقول عن لسان العرب.

والمثل يمايز بين البنات، ولهن حظوة وتقريب، وبين الكنّات وحالهن صعبة كما يردد المثل.

وقالوا في أمثالهم: «أزور أحمائي ليعرفوني» وذلك أن امرأة خرجت إلى أحمائها في أسبوعها، فأنبوها على خروجها فقالت هذا القول.. قال الميداني في شرحه: كأن هذه المرأة هَزِئت بهم. (مجمع: ١:٣٢٣)

ويضرب المثل لمن حذّر فلم يحذر.

(٥)

ومرّت الأمثال والأقوال التراثية الشعبية على موضوع الحماة والكنّة والعلاقة بينهما، فقالوا:

- «الحكي، أو الكلام، إلك يا كنّة، واسمعي يا جارة!» يقال المثل حين تخاطب إنساناً بكلام مسموع وأنت تريد به شخصاً آخر.

وأصل هذا المثل الشعبي مثلٌ فصيح يقول «إياك أعني واسمعي يا جارة» - الميداني ١:٤٩ - وقال في شرحه: يضرب لمن يتكلم بكلام ويريد شيئاً غيره.

وعبارة «الحكي إلك يا كنه» صادر عن الحماة التي تسمع كنّتها بما تريد وإن كان الكلام موجهاً في ظاهره إلى الجارة.

- وقالوا على لسان الكنّة: «حماتي من غير وحام مريضة». أي حماتها تتظاهر بالمرض لتنال ممن حولها الدلال والعناية الزائدة.

- وقالوا: «الحما حما» أي من النار والشدة.

- وقالوا: «قالوا لجحا حماتك بتحبك قال يمكن جنّت (أو: يمكن اتجننت)!.. يزعم المثل أنّ الحماة لا تحب الصهر أبداً!..

وأورد أحمد أمين في قاموسه الشعبي (٤٢) في باب اسم التفضيل: «وللمصريين تعبيرات كثيرة في الثقل» وذكر منها «أثقل من الحماة» و«أثقل من أخت الزوج» ويقال فيها : «بنت الأحْما».

قال: وإذا شكت امرأة لأخرى قالت الأخرى لها: «تشكين ولاحما ولا أخت زوج».

وتتصرف الكنّة أحياناً بما يزعج أحماءها، أو تتظاهر بذلك قصداً، ويدعون هذا «كيد بيت الأحما»!

- ومن طرائف عاداتهم واعتقاداتهم أن الزائر أو الطارق إذا جاء مصادفة ووجد الذين يزورهم على مائدة الطعام قالوا له: «حماتك بتحبك» فمن قبول الحماة لصهرها إيثاره بالمآكل الطيبة، وإعداد الموائد الجيدة له.

ويقولون في عكس ذلك «حماتك ما بتحبك» إذا وصل الزائر وقد فرغ القوم من طعامهم.

وهذا الملمح قديم، له جذور في العصر المملوكي في بعض أخبار الأدباء والشعراء.

- ومن العبارات الشائعة في التوافق بين الحماة والصهر قولهم على لسان الحماة «صهري مسند ظهري» أي تعتمد عليه في الأمور المهمة، والصعبة. والصهر عندهم في منزلة الولد؛ يرونه كذلك ويتصرف هو أيضا على هذا الاعتبار.

وقد أسهم المسرح العامي الشعبي، وأفلام السينما وبعض المسلسلات الإذاعية، فالمتلفزة في إشاعة موضوع الخلاف بين الأحماء والأصهار والكنّات، وكان التركيز على الحماة أم الزوج، وكنّتها.

ومن الأفلام المشهورة في هذا الموضوع: «شهر عسل- بصل»، و«حماتي قنبلة ذرية» و«هذا هو الحب».

وجسدت الممثلة البارعة الخفيفة الظل، «ماري منيب» شخصية الحماة، الصعبة المراس، الشديدة على الكنّة. وأسهمت المعالجة الساخرة (الكوميدية) لتلك المواقف في تضخيم الحال المتعاكسة بين الحماة وكنّتها. ويصدق في مثل هذا قول ابن المعذّل - وقد سبق-

وينظرُ نحوي إذا جئتُهُ
بعينِ حَماةٍ إلى كنّةٍ

وقد يدخل بين الحماة والكنّة امرأة تحرّض بينهما أو تستغل الخلاف لتكسب من الطرفين رعاية مادية أو معنوية. ومثل هذا ما ورد على لسان ابن القِريّة وقد سأله الحجاج عن خصائص المدن والبلدان، وكان في كلامه عن مدينة الكوفة «جَنّةٌ، بين حماةٍ وكنّه، العراق تحشد لها والشام يدرّ عليها..» أي يغنيها ويخدمها هذان البلدان.. فخيراتُ العراق من جهة، ومنتجات الشام بين زراعة وتجارة وصناعة من جهة أخرى.

ومن قصص التاريخ المشهورة خبر الشاعر الأموي قيس بن ذريح. وكان أخا الحسين بن علي رضي الله عنهما من الرضاعة. وكان قيس قد نشأ في المدينة وأحب لبنى بنت الحباب الكعبية فأحبها وأحبته وأراد أن يتزوج بها فدافعه أبوه عن ذلك: كان قيس وحيد أبويه وكان أبوه غنياً جداً فأراد أن يتزوج ابنه إحدى بنات عمه حتى لا تذهب الثروة إلى أسرة غريبة. فاستشفع قيس أخاه من الرضاعة الحسين (رضي الله عنه) فمشى الحسين في أمره، وطلب بِمَا لَهُ من الوجاهة الدينية والاجتماعية من والد قيس ووالد لبنى أن يجمعا بين قيس ولبنى بالزواج فلم يستطيعا مخالفته. وعاش قيس ولبنى في سعادة، ولكن لم يرزقا أولاداً فلم ينتظر والده ووالدته وأكْرها قيساً على طلاق لبنى. فامتنع قيس فصار أبواه يجلسان في حرارة الشمس ضغطاً على قيس ليذعن، واستمرا حتى طاوعهما فطلق لبنى. وما لبث أنْ أسرع ذلك في عقله وصار يهيم على وجهه.. وكان يلمّ بديار لبنى حتى شكا أبو لبنى الحباب قيساً إلى الوالي فمنعه.. ثم زوّجوا لبنى من رجل من غطفان عسى أن تنتهي القصة. وتطاول شقاء العاشقين فماتت لبنى ثم مات قيس وشيكاً بعدها، ودفن إلى جانبها، ومن شعره فيها بعد ما جرى عليه وعلى لبنى:

إلى الله أشكو ما ألاقي من الهوى
ومن حُرَقٍ تعتادني وزفير

وتلوم أخبارُ قيس ولبنى والدي قيس في رفضهما لبنى، وإرغام قيس على طلاقها، بحجة عدم إنجاب الولد، في مدة قصيرة وأنهما لم يتريثا على لبنى مدة من الزمن!..

(٦)

وملمح الجو الطيب الحسن المتناسق بين الحماة والكنة قديم، وكذا ملمح الخلاف، والعلاقة المتوترة أيضا، وفي كتب التراث أخبار وأشعار وأقوال تؤرخ لكلا الملمحين..

فمن الملمح الأول: الذي يصور النظرة الصحيحة السليمة هذا الخبر الذي أورده العسكري في أمثاله (ص١٨٤).. فقد كان للفارس الشاعر القديم لقيط بن زرارة قصة مع زوجته ووالدها؛ الذي كان من كبار زعماء العرب وأشرافهم. يقول الخبر إن زرارة بن عدس (من دارم من تميم) رأى ابنه لقيطاً يختال معجباً بنفسه فقال له: إنك تختال كأنك تزوجت ابنة قيس بن خالد ذي الجدين، ومئة من هجان (إبل) النعمان بن المنذر!.. فقال لقيط - وقد قَبِلَ التحدي من والده- لا يمس رأسي غسل حتى آتيك بهما أو أبلي عذراً.

فأتى قيساً، وكان قيس نذَر أن لا يخطب إليه أحد علانية إلاّ أصابه بشرّ، فخطب إليه علانيةً!.. فقال قيس للقيط: ما حملك على هذا؟ قال: علمي أنني إن ساررتك لم أخدعك، وإن عالنتُك لم أشِنْك. فقال: كُفْءٌ كريم! ولا تبيت عندنا عزباً. فزوجه ابنته القذور، وكان المهر إلى نفسه، وارتحل بها. فأوصاها أبوها فقال:

«كوني له أمةً يكنْ لك عبداً، وليكن أطيب طيبك الماء. وزوجك فارسٌ، ويوشك أن يقتل، فلا تخمشي عليه وجهاً، ولا تحلقي شعراً».

قال خبر لقيط إنه قصد إلى النعمان ملك المناذرة في الحيرة فأعطاه مئة من الإبل (إبل النعمان المشهورة).

- وهذه الوصية تتردد في كتب التراث القديم، ويتكرر ما يشبهها مع أسماء أخرى..

- واشتهرت في التاريخ «حماة الملكة» والمقصود بها الحرة الصليحية اليمنية أسماء بنت شهاب، وكانت حماة الحرة الصليحية الأخرى أروى بنت أحمد المشهورة بـ (بلقيس الصغرى). ولهن أخبار طويلة في

تاريخ اليمن.

- ومنه أيضاً:

- كان الحصن بن بدر (مخضرم الجاهلية والإسلام، صحابي) إذا زوّج ابنة له دنا من خِدْرها (غرفتها) وقال:

أتسمعين؟ ... كوني له أَمَةً يكن لك عبداً.

- وقال أسماء بن خارجه الفزاري لابنته، وقد قَرُبَ زواجها:

إياك والغيرة! فإنها مفتاح الطلاق، وعليك بالزينة، وأزين الزينة الكحل، وعليك بالطيب وأطيب الطيب إسباغ الوضوء، وكوني كما قلت لأمك في بعض الأحايين:

خُذي العَفْوَ مِني تَسْتَديمي مَوَدَّتي
ولا تَنْطِقي في سَوْرَتي حين أغْضبُ
فإني وجدت الحب في الصدر والأذى
إذا اجْتَمعا لم يَلْبثِ الحُبُّ يَذْهَبُ!

(السَوْرة- بفتح السين - شدة الغضب. يطلب منها المياسرة وحسن العشرة).

ومن الملمح الثاني، الذي يصف العلاقة المسبقة بين الحماة وصهرها هذا الخبر، الواضح للدلالة:

قالت امرأة لابنتها عند هدائها (عند زفافها لزوجها):

- اقلعي زُجّ رُمحه؛
- فإن أقَرّ فاقلعي سِنَانَه؛
- فإن أقرّ فاكسري العظامَ بسيفه؛
- فإن أقَرّ فاقطعي اللحم على تُرْسِهِ؛
- فإن أقرّ فضعي الإكافَ على ظهره فإنّه حمار!..

وهي وصيّة قديمة ذكرها ابن قتيبة (توفي ٧٦، هجرية) في عيون الأخبار (٤:٧٧) تقولها حماةُ الزّوج لابنتها عند زفافها. وقد اتخذت من سلاح الرجل العادي مثالاً ضربته، وهو: الرمح، والسيف، والترس. وطلبت منها أن تسيطر عليه، وتنزع عنه سلاحه (من السيطرة عليه وعلى المنزل) متخذه من تلك الأدوات مثلاً، فقالت لها:

- اقلعي زُجّ الرمح (الحديدة التي توضع في أسفله ليركز عليها). وأجزاء الرمح الرئيسية: السِّنان، والقناة (العصا) والزُّجّ.

- فإن أقَرّ: أي إن قَبِلَ ذلك، فاخرجي إلى المرحلة التالية: «فاقلعي سنانه» والسِّنان النصل الذي يكون في أعلى الرمح فيطعن به.

- فإنْ قبل ذلك منك، وسكت فابدئي بالهجوم، وقد نزعت سلاحه: «واكسري العظام بسيفه»!!..

- ومرحلة أخرى. إن قَبِلَ ما تصنعينه من نزع معالم شخصيته واستضعافه «فاقطعي لحمه على تُرْسِهِ» آخر سلاح دفاعي له!..

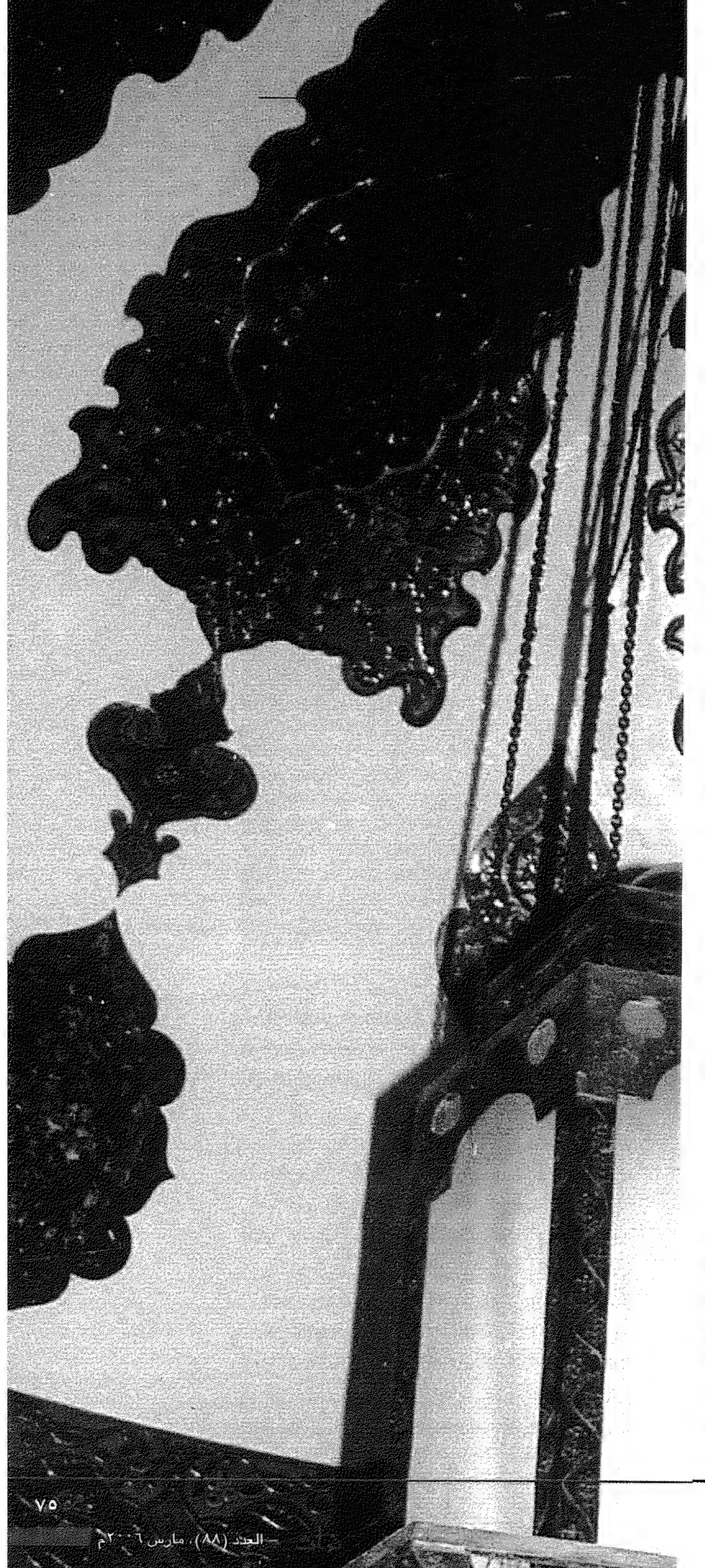
- وأخيراً: إن استطعت أن تفعلي ذلك كلّه فقد صار لك عبداً؛ تسيّرينه كما تشائين، فضعي على ظهره الإكاف «البردعة» فقد صار لك ذلولاً.. لقد صار - كما تقول الحماة - حماراً!..

والأصل في العلاقة بين الحماة والكنّة المعايشة الطيبة. فالكنّة تدخل الدار الجديدة لتكون فرداً من أفراد الأسرة. ويترتب عليها من الواجبات الحقيقية والأدبية مثلما يصير لها من الحقوق وأنواع الرعاية. وحين يكون الطرفان على الوعي بالأحكام الشرعية العامة والخاصة الناظمة للعلاقة بين أفراد الأسرة تكون الأمور على خير حال لا يعكرها شيء حتى الأحوال الطارئة التي قد تجد لسبب من الأسباب. فكيف إذا انضم إلى ذلك أدبيات السلوك الاجتماعي المتوارثة في ظل تلك البيئة من الاحترام وطيب العشرة والإغضاء عن الهفوات وما شابه ذلك؟

وتَمّحي هذه المواقف السلبية بين الحماة والكنّة في الأسر المتعاونة المتفاهمة التي يعطي كل فرد فيها للآخرين ما يجب عليه من ألوان السلوك الطيب قولاً وفعلاً. وفي هذا الجو كثيراً ما نرى الحماة تنصر كنّتها على ابنها، ونجد أمّ الزوجة (حماة الرجل) تنصر صهرها على ابنتها إمعاناً في التحام الأسرة، ورفع أسباب الاختلاف وإن كان صغيراً أو لا شأن له.

وفي المجتمعات التي يكثر فيها الخلاف - الذي عدّه الميداني عداءً مستحكماً بين الحماة والكنّة - نلاحظ أثر التراكمات الاجتماعية في هذا الموضوع. فإن الموروث الشعبي الخاطئ - حين يوجد في العلاقة بين الأحماء والأصهار والكنّات - يؤثر سلباً، ويسهم في ازدياد الهوّة واتساعها بين فريق وآخر.

على أن الملاحظة الدقيقة في الحياة الاجتماعية لبعض المجتمعات التي كان فيها صوت الخلاف - في هذا الموضوع عالياً- تدل على تراجع كبير في ذلك الخلاف، وائتلاف مطّرد بين تلك الأطراف. أسهم في ذلك الظروف الثقافية المتنامية، والظروف الاقتصادية الضاغطة، والوعي الذي لا يُنكر أثره؛ وانتشار الوعي الديني في أوساط الناس، وتبصرهم بالسلوك الصحيح مع الأقارب ومع غيرهم في كل مجال؛ وازدياد معرفتهم بالحقوق والواجبات على الوجه السليم.■



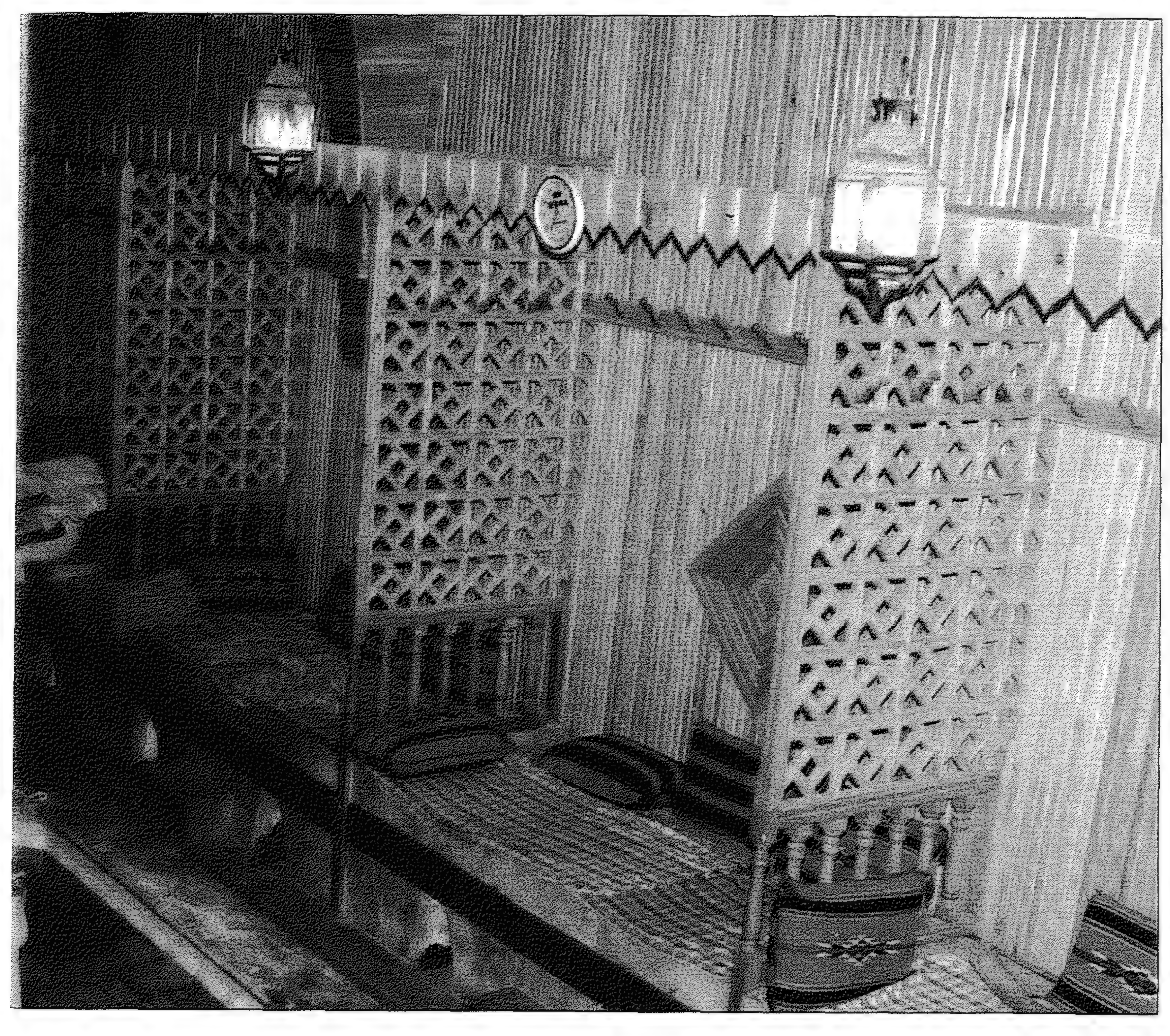
الحمامات السورية.. تراث يوشك على الاندثار

■ محمد مصطفى مسلماني

لأن الماء هو الحياة، وحيثما وجد الماء وجدت الحياة، فقد قامت منذ القديم أكبر الحضارات الإنسانية على ضفاف الأنهار، وعرف الإنسان الاغتسال لتنظيف نفسه وتجديد حيويته ونشاطه، ومع ظهور الإسلام الذي جعل النظافة من الإيمان، تعاظمت أهمية الماء وكبر دورها الصحي والطبي، فانتشرت الحمامات في كل مكان، وكانت الحمامات السورية هي ابنة العصور المختلفة التي عرفتها المنطقة والتي شهدت طرز البناء المتنوع منذ عصر الإمبراطورية الرومانية فالعصر الأموي ثم العصر المملوكي.. وأخيراً العهد العثماني الذي انتهى به بناء الحمامات.

حمامات القلاع والحصون

عبر التاريخ عرفت سورية الكثير من الحمامات الأثرية القديمة التي كانت تابعة لقلاعها وحصونها المنتشرة في كل مكان، وقد اشتهرت هذه الحمامات ببنائها المتميز الذي اعتبر من أهم معالم هذه المواقع الأثرية التاريخية وبخاصة المواقع الإسلامية منها، ومن ذلك على سبيل المثال الحمامات الموجودة



صورة القسم البراني (الخارجي)

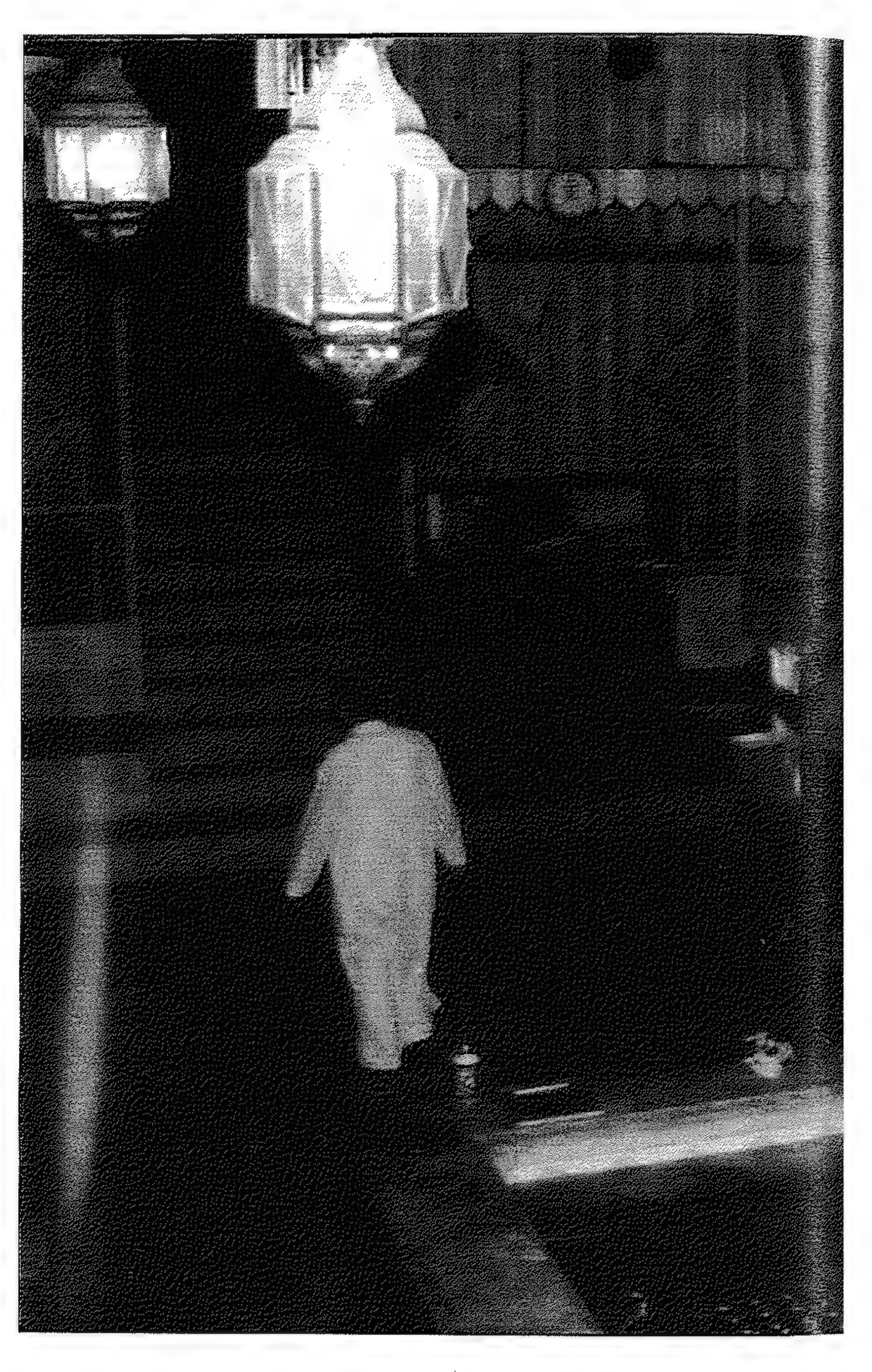
في مجموعة القلاع الإسلامية القديمة كحمام «قلعة الكهف» قرب بلدة الشيخ بدر، وحمام قلعة «الخوابي» في شمال مدينة طرطوس، وحمام «قلعة العليقة» الشهيرة وحمام عمريت أقدم المواقع الأثرية السورية وغير ذلك.

الحمامات العامة

أما بالنسبة للحمامات العامة «حمامات السوق» المبنية ضمن المدن فلقد تميزت بها مدينتا دمشق وحلب على وجه الخصوص، وذلك دون بقية المدن السورية الأخرى، وتعتبر هذه الحمامات العامة التي أقيمت في العهود الأيوبية والمملوكية والعثمانية، من روائع فن العمارة الإسلامية في سورية، وذلك لما امتازت به من عبقرية وإبداع في البناء والزخرفة والرسومات والتزيينات، حيث شدّت أنظار الرحالة إليها، وأثارت إعجاب الباحثين والكتّاب وأخذت مكاناً بارزاً من اهتماماتهم ومؤلفاتهم ودراساتهم، وانطباعاتهم حول الحمامات السورية وسحرها، وقد صاحب ذلك تطور في أساليب البناء وطرز العمارة والتزيين بما يتلاءم مع طابع عمارة مختلف العهود.

قالوا في حمامات دمشق وحلب

بعد دراسات مستفيضة، اعتبرت منظمة «اليونسكو» مدينتي دمشق وحلب من أقدم المدن التاريخية على وجه الأرض، وجاء في تقرير لها أن هاتين المدينتين تحتويان على العديد من المعالم والصروح والأوابد الأكثر عراقة وأصالة في التاريخ الموغل في القدم، فمن الأبواب والأسوار إلى الأسواق والخانات، ومن المدارس والتكايا والزوايا إلى المساجد والكنائس، ومن المكتبات والبيمارستانات والدور العربية إلى السبلان



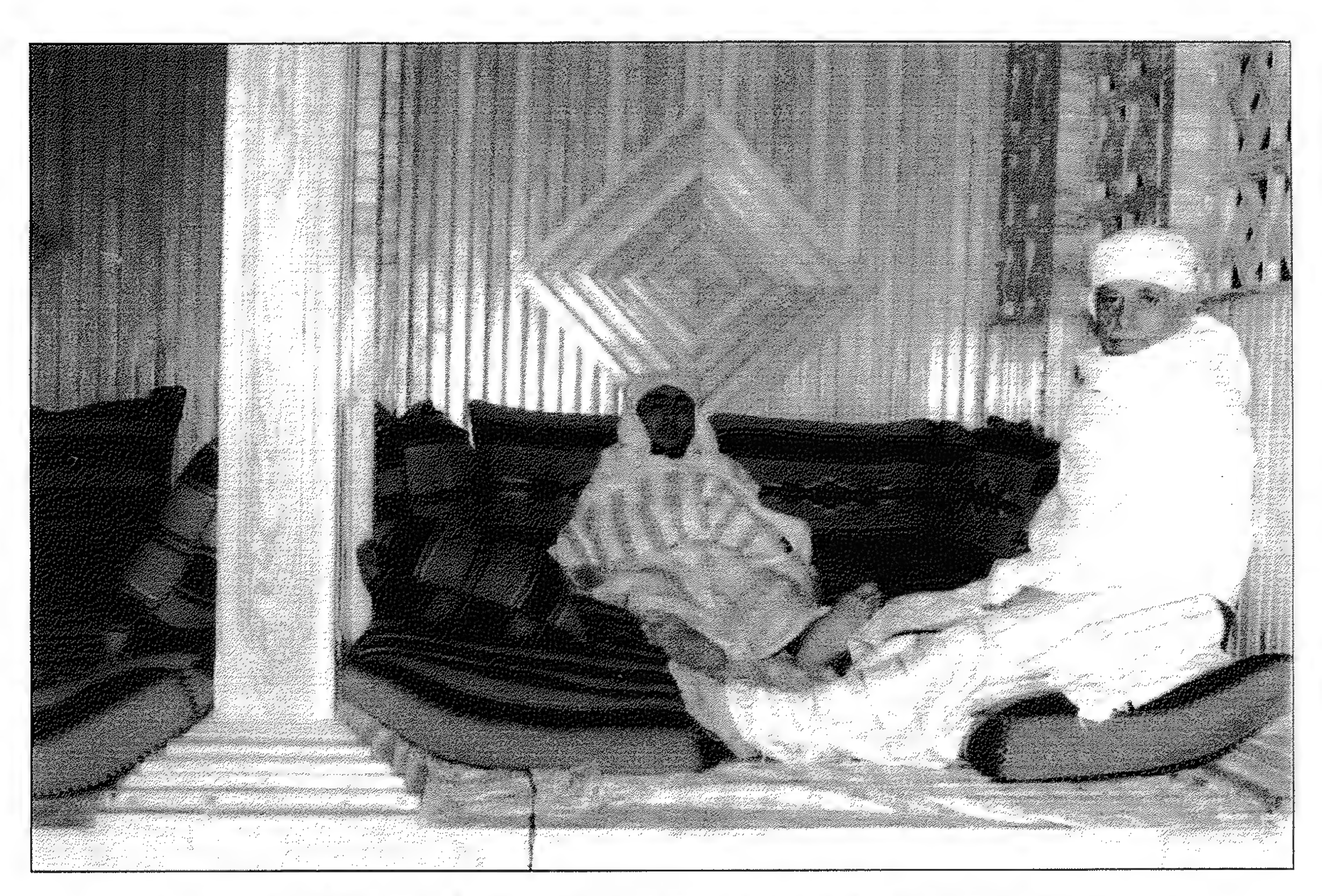
والقساطل والحمّامات التي حظيت بشهرة كبيرة في الشرق والغرب عبر مختلف العصور، ويذكر أن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك عندما بنى المسجد الأموي بدمشق قال مخاطباً أهلها: «تفخرون على الناس بأربع خصال: تفخرون بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم فأحببت أن يكون مسجدكم هذا الخامس».

كما قال ابن جبير: «دمشق هبة بردى، حباها الخالق المياه حتى قيل: لقد سئمت أرضها كثرة المياه حتى اشتاقت إلى الظمأ فتكاد تناديك به الصم الصلاب: ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾.. تغلغل نهر الذهب في بقاعها فغدت جنة وارفة الظلال، واستجابت المدينة بمياهها لنداء قصورها ومساجدها وحماماتها حتى ألفتها».

وجاء على لسان صاحب جريدة العجائب: «ولحلب قناة مباركة تخترق شوارعها ودورها وحماماتها وسبلانها وماؤها عذب فرات»، وورد في كتاب ابن الشحنة «إن الشيخ العلامة شمس الدين السلامي أكد أنه يرجح ماء حلب على ماء الفرات». وقد تحدث عن الحمامات العامة السورية عموماً عدد غير قليل من المؤرخين والباحثين في مختلف العصور، ويعتبر (الحافظ ابن عساكر ت: ٥٧١هـ) أول من تحدث عن الحمامات في دمشق وحلب، ثم جاء بعده (ابن شداد ت: ٦٨٤هـ)، وفي القرن الثاني الهجري كان (أبو علي الحسن بن أحمد بن زفر الأربلي الشافعي) المتوفى سنة ٧٢٦هـ، ثم يوسف عبد الهادي في مخطوطه (عدة الملمات في مقداد والحمامات)، كما يعرض إلى موضوع الحمامات في دمشق وحلب أيضاً كل من عبد القادر محمد النعيمي الدمشقي في كتابه (الدارس في تاريخ المدارس)، ومحمد بن طولون الصالحي في كتابه (القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية) وغيرهم.

حمامات دمشق وحلب بلغة الأرقام

وفي عام ١٩٤٢ أفرد المهندسان الفرنسيان ايكوشار (Ecochar) وزميله لوكور (Lecoeur) كتاباً في جزأين أطلقا عليهما اسم (حمامات دمشق) وقد عددا فيهما الحمامات الدمشقية التي بلغت في تلك الفترة ستين حماماً، وذلك بعد أن كان عددها في الماضي أكثر من مائة وسبعة وستين حماماً، وفي دراسة ميدانية أجريت في العقد السادس من القرن الماضي تبيّن أن تسعة وعشرين حماماً ما زالت تعمل وتقوم بوظيفتها في دمشق، في حين تخلى الباقي منها عن وظيفته حيث حولها أصحابها إلى محال للصناعة والورش الحرفية، أو إلى مستودعات لتخزين البضائع، وفي أواخر ثمانينات القرن الماضي أجريت دراسة أخرى للحمامات الدمشقية فتبيّن أن ثلث ما كان يعمل منها قد توقف أيضاً عن العمل، ولعل أشهر الحمامات التي ما زالت تعمل حتى الآن: حمام نور الدين الشهيد، والجوزة، والشيخ رسلان، والملك الظاهر، وحمام الورد، ويعتبر حمام نور الدين الشهيد الذي ينسب إلى نور الدين الزنكي الملقب بـ (الشهيد) والذي كان والياً على دمشق، من أقدم الحمامات السورية بعد حمام (يلبغا الناصري) في حلب، وكان قد بناه الوالي نور الدين سنة ١١٧١م، وجعله وقفاً على مدرسته النووية الكبيرة، وذلك



القسم «البراني) الخارجي وفي الصورة تظهر المصاطب التي يستريح فيها الزبون قبل ارتداء ثيابه

إضافة إلى البيمارستان الذي يحمل اسمه وحيث يوجد قبره، ثم يأتي حمام الملك الظاهر حسب القدم بعد حمام نور الدين، ويعود تاريخ بنائه إلى ما قبل القرن الرابع عشر الميلادي.

أما بالنسبة للحمامات العامة في حلب، فبعد أن كان عددها في منتصف القرن السابع الهجري يبلغ ١٩٤ حماماً، انخفض هذا العدد كثيراً مع تقدم الزمن وبشكل تدريجي ليصل في الوقت الحالي إلى ثمانية حمامات فقط وأهمّ هذه الحمامات في حلب بل وفي سورية على الإطلاق هو حمام (يلبغا الناصري) الذي بناه الظاهر غازي سنة ٦٠٨هـ، وكغيره من المرافق العامة الأخرى تعرّض هذا الحمام مرات عديدة للخراب والدمار إثر الهجمات التي تعرضت لها حلب خلال التاريخ، والتي كانت أقساها هجمة هولاكو سنة ٦٥٨هـ، وهجمة منكو بن هولاكو سنة ٦٧٥هـ، لكن الأمير يلبغا الناصري أعاد بناء الحمام مرة أخرى وأتمه سنة ٧٨٣هـ. ويذكر لنا التاريخ أسماء العديد من الحمامات الحلبية القديمة التي اندثرت مع مرور الزمن، كحمام الذهب سنة ٧٤٨هـ، وحمام (آشق تمر) والعاشق سنة ٧٧٦هـ، وحمام النفيس سنة ٨٥٤هـ، وحمام أزتيمر سنة ٨٨٤هـ، وحمام الصالحية سنة ٨٩٠هـ، وغير ذلك.

ميزات وأقسام الحمام

يقبع الحمام عادة وسط حارة قديمة، وبين جدران مشتركة تساهم في الحفاظ على حرارته، ولا يرى بمجمله إلا من سطوح المنازل المجاورة، وهو مؤلف من قبة كبيرة تهيمن على قبب صغيرة يخترقها النور بواسطة (قماري) وغالباً ما يقع باب الحمام الرئيسي على طريق جانبي ذي واجهة صغيرة ويكون من الخارج خال من التزيينات والكتابات، حيث لا يميز المرء بين مدخله ومدخل دور السكن إلا من خلال منشفة أو أكثر منشورة على حبل يعترض الزقاق وتدل على وجوده، ويتألف الحمام عادة من ثلاثة أقسام رئيسة (الخارجي والأوسط والداخلي) وذلك فضلاً عن (الإقميم) مكان تسخين الماء، هذا بالإضافة إلى وجود أقسام وردهات ودهاليز ومقاصير أخرى يعرفها أهالي دمشق وحلب، ولكل منها دورها ووظيفتها أيضاً، ولا شك أن غياب الشبابيك والتهوية في الحمام «الوسطاني» (الأوسط) و«الجواني» (الداخلي) يؤدي إلى الحفاظ على البخار، أما الحفاظ على الحرارة فتتم بواسطة جدران سميكة من الآجر



يتفحص حرارة الماء أمام «الجرن» في القسم «الجواني» الداخلي

وغطاء للقباب من الآجر نفسه، ومن جهة أخرى فإن كثافة البخار والاستعمال الدائم للماء الساخن يتطلب كتامة الأرض الأمر الذي يؤمن بواسطة التبليط بالحجر أو الرخام.

ويعتبر القسم «البراني» (الخارجي) هو الأكثر أنساً، ويتكون من باحة مسقوفة على شكل رقبة تستند على مثلثات كروية تحيط بها النوافذ، ويكون زجاج النوافذ ملوناً بألوان زاهية ووفق شبكة هندسية بديعة من الخط العربي ومنفذة بالجص أو الخشب المدكوك بأسلوب الزجاج المعشق، ما يسمح بدخول أشعة الشمس بألوان ذلك الزجاج بشكل جميل وأخاذ، وتتدلى من سقف الجزء الخارجي سلاسل السرج والمشكاوات مشكلة ثريا تنيره.

أما أرضيته فتكون مرصوفة بحجارة مصقولة وردية وسوداء تتخللها تشكيلات جميلة من الرخام (المشقف) وتتوسط الباحة (بركة) تتشامخ فيها المياه من نافورة بأشكال رائعة بديعة، كما تكون الجدران مزينة بالرسومات والعديد من المرايا المنتشرة في كل مكان، وفضلاً عن ذلك يضفي صوت المنشد الديني الجالس في (البراني) الخارجي أحياناً، أو صوت القرآن المنبعث من آلة التسجيل في أحيان أخرى جواً من الخشوع والحياء.

وتتوزع المصاطب على كامل أجزاء الخارجي ويصعد إليها بدرجة أو درجتين وتضم كل مصطبة أريكة أو أكثر، وتكون مجللة بأقمشة فاخرة وبالفوط والمناشف المزركشة المقصبة، وبالسجاد ذي الألوان التي تماشي الأذواق القديمة، وفي قسم الخارجي يخلع المرء ثيابه قبل الاستحمام، ويرتديها عقب ذلك، ثم يأتي القسم الأوسط الذي هو عبارة عن بهو معتدل الحرارة يتم الانتقال إليه من الخارجي عبر جناح يتألف من دهليز وردهة، ويتخلله مدخل على طرفيه بابان متقابلان يتحركان بسرعة للحفاظ على حرارته، وهناك في زاوية من زوايا الردهة أماكن للراحة «المراحيض» تجاوره «بحرة» صغيرة جانبية على شكل نصف دائرة ملصقة بالجدار، ويتوسطها ممر بيت النار وعلى جانبيه إيوانات تنتصب بكل منها مصطبة يستريح عليها الزبائن خلال الاستحمام وبعده، وذلك استعداداً للخروج إلى الخارجي، وفي كل إيوان «أجران» منحوتة من الحجر القاسي، ويضم أحد الإيوانين مدخلاً إلى المقصورة «النورة» المخصصة لإزالة الشعر، وأخيراً يأتي القسم الداخلي، وهو القسم الحار من الحمام، ويكون على شكل إيوانين متقابلين يتوسطهما بيت



نماذج من الأدوات المستخدمة في الحمام



لا بد من انتعال «القبقاب» قبل الاستحمام

النار، وهو بعرض ١٠٠- ١٥٠سم، وغالباً ما يكون مبلطاً بحجر بازلتي أسود أو وردي، وفي بداية ممر بيت النار الذي يتوسط الخارجي مصطبة حرارة تعلوها فتحة كان يتم من خلالها الاتصال مع عامل الإقميم لتعديل حرارة الماء، وعلى جانبي المر إيوانان يتفرع عن كل منهما عدد من المقاصير التي تحتوي على عدد من «الأجران» ومن تلك المقاصير مقصورة «المغطس» التي يدخل المرء إليها لإسقاط الجنابة، ومقصورة «الصنعة» المخصصة لريس الحمام في فترة استحمام الرجال وللأوسطة في فترة استحمام النساء، وذلك من أجل تكييس وتلييف من يرغب من الزبائن، ويجلس على المصطبة الموجودة في الداخلي المستحمون المصابون بالوعكات الناشئة عن البرد.

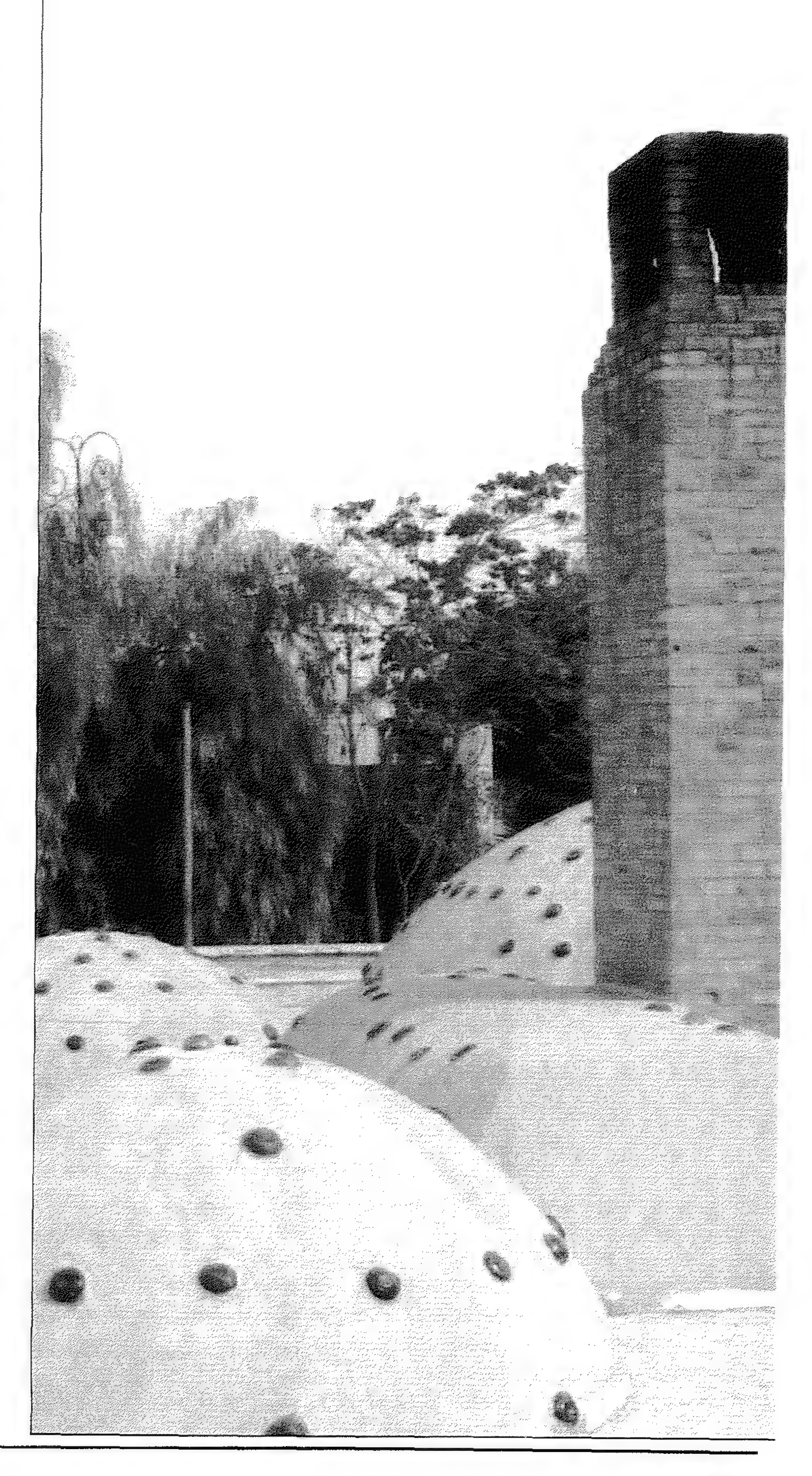
مصادر مياه الحمامات في الماضي

كانت الحمامات في الماضي شأنها شأن القساطل والسبلان ودور السكن وغيرها تتغذى بالمياه من مصادر محددة، فحمامات دمشق كانت تصل إليها المياه من أحد فروع نهر بردى من خلال مقسم يتألف من حوض وتوجد في وسطه فوهة القسطل الموصل للمياه، وتقام معظم هذه المقاسم عند مفترق الطرق، والباقي يختفي في جدران المنازل والحمامات ضمن حجرة صغيرة تفتح كما تفتح الخزانة، وعندما تدخل المياه إلى الحمام تتوزع إلى مختلف مرافقه، فتدور دورتها من البركة إلى المرافق الأخرى، في حين يتجه قسم من المياه إلى «حلل» لتسخينها لتذهب بعدئذ إلى الأجران، ويخزن القسم المتبقي في مستودع يسمى «الحاووظ» للحاجات الاضطرارية الأخرى.

أما حمامات حلب فكانت تتغذى من ماء القناة التي تنساب بانحدار طبيعي من ينابيع حيلان، وهي عبارة عن ثلاث برك مختلفة المساحة، تعرف إحداها ببركة «الشيخ» والثانية ببركة «العبد» والثالثة ببركة «هيلانة»، وهي أكبرها وأغزرها، وقيل إن هذه القناة هي عين سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد ذكر الشيخ كامل الغزي «أنه كان لكل بركة من هذه البرك مفيضاً في أعلاها يجري فيه الماء، ثم يختلط بماء القناة الوافد من نهر قويق، وباجتماع هذه المياه في القناة يعظم ماؤها وتجري ضمن بناء محكم لتدخل حلب» ومن ثم تنتقل المياه إلى الحمامات ودور السكن وغيرها بنفس الطريقة التي تنتقل فيها مياه دمشق إلى الأماكن المذكورة

العاملون في الحمام

يختلف عدد العاملين في الحمام بحسب اتساع الحمام وشرائح زبائنه الاجتماعية، وبحسب عدد مقاصيره، ويختص كل عامل بعمل مميز مسؤول عنه لا يتعداه إلى غيره، ويعمل الجميع ضمن تسلسل وظيفي للارتقاء بالعمل وكسب ثقة الزبون على نحو ما نشاهده في بقية المهن التي تعتبر مرتبة المعلم أو شيخ الكار هي أعلى مرحلة يصل إليها المرء في عمله، فالعامل في الحمام أول ما يبدأ أجيراً ثم تابعاً ثم ريساً فناطوراً فمعلماً ويقابل هذه التسميات في فترة استحمام النساء مسميات أخرى منها الأسطة مقابل الريس والبلانة مقابل التابع، والمعلم هو المسؤول الأول والأخير في الحمام، وكذلك المعلمة في فترة استحمام النساء، ويجلس المعلم عادة على دكة عالية «تخت» في الخارجي، حيث يلاحظ الداخلين إلى الحمام فيرحب بهم أو يودعهم، وتبدأ العملية منذ دخول المرء إلى الحمام، حيث يدخل مسلماً على المعلم والناطور، ويتبادل مع المستحمين عبارات التهنئة المتمثلة بالقول: «نعيماً» فيجاوبه المستحم: «الله ينعم علينا وعليك ويرحم والدينا ووالديك» ثم يدعوه المعلم إلى الجلوس على إحدى المصاطب، وبإشارة منه إلى أجير الأرضية يفرش الأجير فوطة التعتيبة على الأرض ليضع الزبون حاجاته فيها ريثما ينتهي من خلع ثيابه، ثم يسارع الناطور ليقدم للزبون فوطة أخرى لصرّ ثيابه، وبعد الانتهاء من نزع الثياب يحزم الناطور فوطة على وسط الزبون تسمى «الماوية» وأخرى يضعها على ظهره وكتفيه تسمى «الظهرية» وفي هذه الأثناء يكون «الحويص» أو أجير الأرضية قد جلب «القبقاب» للزبون، والقبقاب الخشبي حصراً لأنه لا ينزلق بوجود الماء على الأرض، فينتعله الزبون بعد أن يكون قد انتهى من خلع ثيابه ثم ينزل من على المصطبة باتجاه المعلم ليسلمه ما بحوزته من حاجيات وأشياء خاصة مثل «الساعة» والنقود والخاتم.. إلخ، وبعدها يدخل إلى ركن المرحاض في ردهة الأوسط لقضاء حاجته، ثم يتوجه إلى الداخل ليستقبله التبع مؤهلاً ويسأله إذا كان يريد الدخول إلى مقصورة النورة وهل يريد الاستحمام بنفسه ليقدم له الصابون والليفة، ويكون ثمن الصابون والليفة ودواء النورة على شكل إكرامية للتبع وإن كان الزبون يريد الاستحمام بواسطة «المكيس» فيقدمه التبع للريس الذي يستقبله فوراً ويجلسه على مصطبة بيت النار ويرش الماء على الأرضية حتى يتصاعد البخار ويعرق الزبون وتتحلل مفرزات جسمه، وبعد أن ينتهي الريس من عمله، يدعو



الزبون إلى مقصورة الصنعة ليبدأ بتفريكه بالكيس، وبعد تفريكه وإزالة الأوساخ وفتلها وتعلقها بالكيس يعرض المكيس الكيس على الزبون بين الحين والآخر ليطلع عليه ويريه مهارته في التكييس، ثم تبدأ بعد التكييس الكامل لكل أنحاء الجسم عملية الغسل والصوبنة «التلييف»، وعندما ينتهي المكيس من عملية الغسل يهنئ الزبون باستحمامه بقوله له: «نعيماً إن شاء الله» ثم يطلب من التبع إحضار المناشف البيضاء، فيلف منشفة حول وسط الزبون ويلقي بأخرى على كتفيه، ثم يخرجه إلى الأوسط ليتسلمه الناطور الذي يهنئه أيضاً باستحمامه ويقوم بتجفيف جسمه ويجلسه على مصطبة الأوسط ليستريح قليلاً ويتلاءم جسمه مع اعتدال حرارته، ثم يأخذه إلى الخارجي ويجلسه على إحدى المصاطب ويستبدل له المناشف، فيضع على ظهره منشفة يسمونها «المراية» وثانية على رجليه يسمونها «المقدم» ومنشفة أخرى تغطي كامل الجسم.

وخلال ذلك يقدم الناطور للزبون المشروبات الدافئة أو الساخنة حسب رغبته، فإذا ما فرغ من شرابه استبدل له المناشف مرة أخرى وجفف جسمه، ثم يقدم له صرة ثيابه ويساعده في ارتداء ملابسه، بعدئذٍ يتوجه الزبون إلى المعلم فيتسلم أماناته ويدفع له أجر استحمامه وإكرامية العاملين لقاء خدماتهم، ثم يخرج مودعاً بمثل ما استقبل به من كلمات الترحيب والاحترام.

ارتياد الحمام

كانت الحمامات في الماضي تفتح أبوابها قبيل شروق الشمس، وكان الرجال الذين يريدون الاغتسال فرادى يأتون الحمام عادة قبل صلاة الفجر أو في الصباح، ولكن حتى الساعة الثانية عشرة ظهراً حصراً، حيث تخصص الفترة من الساعة الثانية عشرة ظهراً وحتى المغرب للنساء والأطفال، ومن فترة المغرب وحتى ساعة متأخرة من الليل تعود الفترة للرجال، ولا سيما لأولئك الذين يأتون على شكل جماعات، فيقضون الساعات في الأحاديث وتبادل القصص والنوادر والمُلَح، وقد يأتون صباحاً أيضاً للاحتفال «بصباحية» عرس أحد أقربائهم أو أصدقائهم، حيث يحجزون الحمام لهذه المناسبة قبل موعد العرس بأيام، وفي صباح اليوم الثاني بعد العرس يأخذون العريس ويذهبون جميعاً إلى الحمام، وكثيراً ما يحممون العريس بأنفسهم وهم يغنون وينشدون فرحين مسرورين، ومن هذه الأغاني

الشعبية قولهم:

ياعريس اتهنّا
يوم صباحيتك ما في منا
رشوا المي على العريس
وغسلوه بالليفة والكيس
وادعوا الله يوفقه
بالخلف الصالح والجنّة

وقولهم أيضاً:

شدو الهمة يا شباب
مرته ناطرته على الباب
عريسنا خلص اتجوز
وما عاد يسأل عل الأصحاب

من طقوس حمام النساء

كما أن لحمام الرجال عادات وتقاليد، فإن لحمام النساء أيضاً عادات وتقاليد وطقوساً مميزة، فالمرأة تذهب إلى حمام السوق مع ذويها أو جاراتها ومعارفها، وكثير منهن يصطحبن أطفالهن معهن، ولا تنسى الواحدة منهن أن تأخذ معها مستلزمات الاستحمام من الصابون والحناء والطاسة المكاوية «نسبة إلى مكة المكرمة» والمناشف والمآزر والفوط والبيلون «الترابية الحلبية أو الدمشقية» والليفة وكيس التفريك، وبمجرد دخول النسوة إلى الحمام، تتلقاهن المعلمة مرحبة بهن مع حرصها على عدم السماح بدخول الأطفال كبار السن مع ذويهم، وذلك خشية أن يتطلع أحدهم على عورات الصبايا والنساء، ثم تستقبلهن الناطورة حسب شريحتهن الاجتماعية، ونادراً ما تعتمد النسوة على الأسطة في الاستحمام، لأنه يفضلن أن يحممن بعضهن بعضاً، وهكذا يتجمعن حول أجران في الداخلي ويشرعن في الاستحمام في جو من الهرج والمرج والفرح، وكثيراً ما كانت النسوة يأخذن معهن إلى الحمام أنواعاً متنوعة من الأطعمة والأشربة، حيث يأكلن ويشربن أثناء الاستحمام، وكل ذلك يتم في وسط يسوده الغناء والأهازيج والتراشق بالماء، دون أن يكون هناك أية مناسبة، أما عندما تكون هناك مناسبة ما، فالحمام هو أكثر ملاءمة للاحتفال بها، ولا سيما أن النسوة قديماً كن قليلات الخروج، والأماكن التي يتوجهن إليها محدودة، لذلك فإن الحمام هو المكان المناسب للاحتفال وقضاء ساعات من السرور والفرح والتعارف وقص السير، ورغم كثرة المناسبات التي يمكن للنسوة أن يحتفلن بها في الحمام من مثل طهور طفل – ختم طفل للقرآن الكريم – عودة إحداهن من الحج.. إلخ، إلا أن المتعارف عليه أكثر هو الاحتفال بحمام عرس العروس الذي يكون قبل العرس بيوم واحد، وكذلك حمام «الغمرة» الذي يكون بعد العرس بأسبوعين، وحمام «النفاس» أو «الفسخ» الذي يكون بعد الولادة في يوم مفرد، اعتباراً من اليوم السابع للولادة وحتى يوم الأربعين، وسمي فسخاً لأن النفساء في الأيام الأولى من الوضع يكون حليبها غير كامل التكوين «صمغة» لكنه مغذٍ للوليد، وأقل خوف أو إزعاج يصيب الواضع، قد يسبب نضوب حليبها من ثديها، لذا تقوم بحمام النفاس بفسخ «الصمغة» وتحويلها إلى حليب كامل التكوين كما يعتقدون.

وقبيل صباح يوم الأربعين، يتداعى أهل النفساء زوجها وأهلها والقابلة «الداية» وجيرانها إلى الحمام فيحيين فرحتهن بالزعاريد والأغاني والمرح، وتلف النساء بفوطة مقصبة، وتجلس على المصطبة وإلى جانبها المدعوات يشاركن بالاحتفال، وتنطلق من أمها الزغاريد و«الشديات» و«الهنهونة» المعبرة عن فرحها وسرورها، وكل ذلك يجري في جو من المرح والحبور والأهازيج، ولا يغيب عن ذهن إحدى الصبايا في مناسبة كهذه أو حتى بدونها أن تقوم بعجن الحناء لصبغ شعور الحضور من السيدات المسنات.

وعندما تنتهي النفساء ومن معها من الاستحمام ومن تناول مختلف صنوف الطعام والشراب التي تعده أمّ النفساء وأم زوجها مشاركة، يخرجن كلهن إلى الخارجي، فتستقبلهن عاملات الحمام ويساعدنهن على ارتداء ملابسهن، ويأخذن الإكراميات مضاعفة، ولا سيما إذا كان المولود ذكراً، ثم يغادر الجميع الحمام بحشمة وأدب.

ومن التقاليد التي كانت متبعة في الحمام هو موضوع الخطبة، حيث إن الأم التي لديها ولد تريد تزويجه، كانت تذهب إلى الحمام وتتفحص جميع الصبايا، وعندما تعجب بإحداهن تتعرف عليها أكثر، وتعاينها بالشم والضم واللمس، للتأكد من بضاضة جسمها وسلامة شعرها وسمعها ورائحة جسمها وملفظها وتناسق قوامها.. فتنقل ذلك إلى ابنها للشروع بالاتصال بأهل الفتاة، أو صرف النظر عنها.

ما قيل في حمام النساء

لأن النساء بطبيعتهن يتميزن بالحركة والحيوية ويحببن الرقص والغناء إذا ما اجتمعن في مناسبة أو

بدونها، فقد قيل الكثير من الأقوال المأثورة عنهن، ونسب إليهن العديد من المواقف والحالات المعاشية المتنوعة، فعندما يعلو الصراخ مثلاً وترتفع الأصوات والصياح وتصدح الألسن بما هب ودب من الكلام ويسمع عويل الأطفال في أي موقف أو جلسة وفي أي موقع كان وللرجال والنساء على حد سواء، يقال عن هذا الوضع «مثل حمام النسوان» أو «مثل حمام النسوان عندما تنقطع مياهه»، كما يقال عن الأم التي تبحث عن عروس لابنها «خطبة العروس على جرن الحمام»، أو يقال «في الحمام تعرف القرعة من أم الشعر» و«الحمام يكشف العيوب».. إلخ.

وهكذا تندرج الأمور.. وتشبِّه المواقف المتنوعة وتستخرج الكثير من الأقوال والحكم بالاستناد إلى ما يجري في حمام النساء.

من قصص الحمام وحكاياته الخرافية

لفترة طويلة من الزمن، ظل مفهوم حمام السوق عند بعض الشرائح مرتبطاً ببعض القصص والحكايات الخرافية التي يتداولها الناس، ومن هذه الروايات أن «الجان» و«العفاريت» يسكنون الحمام لأنهم يحبون العيش قرب المياه، كما أنهم يتصرفون مثل البشر تماماً عندما يكون الحمام مغلقاً، فيغتسلون ويستحمون ويأكلون ويشربون، ويحتفلون بالمناسبات والأفراح في الحمام، إلا أن هذه القصص والروايات لم تعد تحظى بالمصداقية مع تقدم وتطور الزمن، فباتت مجرد ذكريات يتحدث بها القدماء من العاملين في المهنة، ويروونها للزبائن لمجرد التسلية واسترجاع المعتقدات التي كانت تسيطر على عقول الناس بسبب بساطتهم وسذاجتهم، غير أن الرواة يدحضون الجانب الغيبي في رواياتهم، ويفسرون الظواهر التي كانوا يشاهدونها أو يسمعونها بإرجاعها إلى حقائقها وتبريراتها البشرية وليس الغيبية.

معاناة حمام السوق

بعد أن كان حمام السوق في الماضي مكاناً ملائماً للاحتفال والتعارف ولقاء الأصدقاء والأقرباء في مناسبات اجتماعية متنوعة ومظهراً من المظاهر الصحية ومركزاً للاستشفاء من بعض الأمراض وملتقى للحياة الاجتماعية التي يتجلى فيها الظرف والصفاء والفرح والأنس والمجاملة، أصبح الآن في وقتنا الراهن وفي ظل التطور والمدنية مجرد ذكرى لا أكثر، ومن المؤلم حقاً أن نرى بأم أعيننا حمامات هي آيات من الفن والإبداع العربي تندثر الواحد بعد الآخر، حتى أصبح الجيل الجديد للأسف لا يعرف شيئاً عن خصائص وعادات وطقوس وأهمية هذه الحمامات، ولا عن مكامن الجمال فيها، فالتطور الحضاري والعمراني الذي طرأ على دمشق وحلب بامتداد هاتين المدينتين أفقياً وشاقولياً وفي كل الاتجاهات، وانشغال الناس بأعمالها، وكثرة وسائل الترفيه والتسلية في المنازل، واعتماد كل أسرة على حمام خاص في بيتها، كل ذلك قلل من ارتياد الناس لحمام السوق، ولعب دوراً في تناقص عدد زائريه، وأصبحت الحمامات المتبقية تقتصر في أغلب الأحيان على استقبال الغرباء والطارئين وبعض الأشقاء العرب والسواح الأجانب الذين يقدرون أكثر منا أهمية التراث والتاريخ، الأمر الذي أدى إلى ضعف مردود هذه المهنة، لأنها لم تعد كافية لسد متطلبات الحياة، ما حدا بأصحاب عشرات الحمامات في كلا المدينتين إلى إغلاق حماماتهم وتحويلها إلى مخازن ومستودعات أو محال للتجارة والصناعة والورش الحرفية، وما بقي من الحمامات قائماً في العمل، عمد أصحابها وللأسباب الاقتصادية ذاتها إلى الاستغناء عن مهام بعض العاملين في الحمام لتوفير أجورهم، كالناطور والريس والتبع في فترة استحمام الرجال، والبلانة والأسطة في فترة استحمام النساء، وذلك على الرغم من أن هؤلاء كانوا في يوم ما من قوام وعمادة وأسس العمل في الحمام. ■

المصادر والمراجع:

١) ابن جبير – أبو الحسن محمد: الرحلة، طبعة لندن.
٢) الشيخ محمد راغب الطباخ (ت: ١٣٧٠هـ) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء.
٣) العلامة خير الدين الأسدي: موسوعة حلب المقارنة.
٤) دليل المنشآت السياحية في سورية طبعة عام ٢٠٠٠، إصدار وزارة السياحة والمؤسسة العربية للإعلان – باب محافظتي دمشق وحلب – قسم الحمامات.
٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان – موسوعة جغرافية في عدة مجلدات.
٦) كامل بن حسين الغزي (ت:١٣٥١هـ) نهر الذهب في تاريخ حلب.
٧) منير كيال: الحمامات الدمشقية – منشورات وزارة الثقافة الطبعة الأولى دمشق ١٩٦٦م، والطبعة الثانية المعدلة دمشق ١٩٨٦م.
٨) الأغاني والأهازيج وحكايات الحمام الخرافية من بعض روايات أصحاب الحمامات خلال لقاءات الكاتب معهم.

كنوز المعرفة.. في مركز جمعة الماجد

■ د. عمار الددو

خدمة لمحبّي التراث وطلاب العلم والمعرفة.. تشرع «تراث» ابتداءً من هذا العدد بالتعاون مع مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي في فتح نافذة على ما لدى المركز من كنوز التراث المعرفي للاستفادة منها، ويقوم المركز بالرد على جميع الاستفسارات والتساؤلات العلمية بشأن المخطوطات وأماكن وجودها، ويساعد الباحثين في الحصول على نسخ منها من المكتبات العالمية إن لم تكن موجودة لديه، وأبدى المركز استعداده لتلبية طلبات تصوير المخطوطات للراغبين، الذين عليهم تقديم طلباتهم إلى قسم المخطوطات ويحدد فيها الهدف من التصوير والعنوان المطلوب واسم المؤلف وعدد الأوراق ورقم المخطوط في المركز، وأن يكون الطلب مؤيداً من أي جهة علمية، أو ما يثبت أن الباحث مهتم بالتراث وتحقيقه، وموقع المركز على الإنترنت:
www.almajidcenter.org/
وفيما يلي مجموعة من العناوين الموجودة بالمركز:

– القول المستظرف في سفر السلطان الملك الأشرف، لابن الجيعان أحمد بن يحيى بن شاكر، ت ٣٩٠هـ، تقع في (١٧) ورقة، في كل صفحة (١٧) سطراً، مصورة عن الأصل المحفوظ في مكتبة الأسكوريال في مدريد، تحت رقم (١٧٠٨)، ورقمها في المركز (١٠٣٠٨).

– المقامة البديعية في وصف جمال المعالم المكية، للفيومي عبد القادر بن محمد، ت ١٠٢٢هـ، تقع في (١٢) ورقة، في كل صفحة (١٧) سطراً، منسوخة سنة (٦٦٩) هـ، مصورة عن الأصل المحفوظ في مكتبة الأسكوريال في مدريد، تحت رقم (١٧٠٨)، ورقمها في المركز (١٠٣٠٨).

– الهدية الصالحة والنصيحة الواضحة، للفيومي عبد القادر بن محمد، ت ١٠٢٢هـ، تقع في (٩) ورقات، ضمن مجموع (٦٣–٧١)، في كل صفحة (١٧) سطراً، مصورة عن الأصل المحفوظ في مكتبة الأسكوريال في مدريد، تحت رقم (١٧٠٨)، ورقمها في المركز (١٠٣٠٨).

– اللؤلؤ والمرجان والفرائد الحسان في مدائح عز الدين آصف خان، للكناني محمد بن محمد، تقع في (١٠) ورقات، ضمن مجموع (٧٣–٨٣)، في كل صفحة (١٧) سطراً، مصورة عن الأصل المحفوظ في مكتبة الأسكوريال في مدريد، تحت رقم (١٧٠٨)، ورقمها في المركز (١٠٣٠٨).

– الشكر والبيان لمدح الوزير آصف خان، للكناني محمد بن محمد، ت هـ، تقع في (٥) ورقات، ضمن مجموع (٨٣–٨٧)، في كل صفحة (١٧) سطراً، مصورة عن الأصل المحفوظ في مكتبة الأسكوريال في مدريد، تحت رقم (١٧٠٨)، ورقمها في المركز (١٠٣٠٨).

– التحفة اللطيفة في عمارة المسجد النبوي وسور المدينة اللطيفة، للجلالي محمد بن جعفر الرومي، تقع في (٦) ورقة، ضمن مجموع (٨٨–٩٣)، في كل صفحة (٢٢) سطراً، مصورة عن الأصل المحفوظ في مكتبة الأسكوريال في مدريد، تحت رقم (١٧٠٨)، ورقمها في المركز (١٠٣٠٨).

– الألفاظ الكتابية، للهمذاني عبد الرحمن بن عيسى بن حماد، ت ٣٢٠هـ، تقع في (١٣) ورقة، ضمن مجموع (٢١٦–٢٢٨)، في كل صفحة (٢٢) سطراً، مصورة عن صورة في مكتبة مرعشي في إيران، تحت رقم (١٤٩٦)، ورقمها في المركز (١٠٣٠٨).

– أسرار النساء (طب)، لجالينوس، تقع في (١٧) ورقة، ضمن مجموع (٥٤–٧١)، في كل صفحة (١٣) سطراً، مصورة عن الأصل المحفوظ في مكتبة آيا صوفيا في تركيا، ورقمها في المركز (١٠٣٠٩).

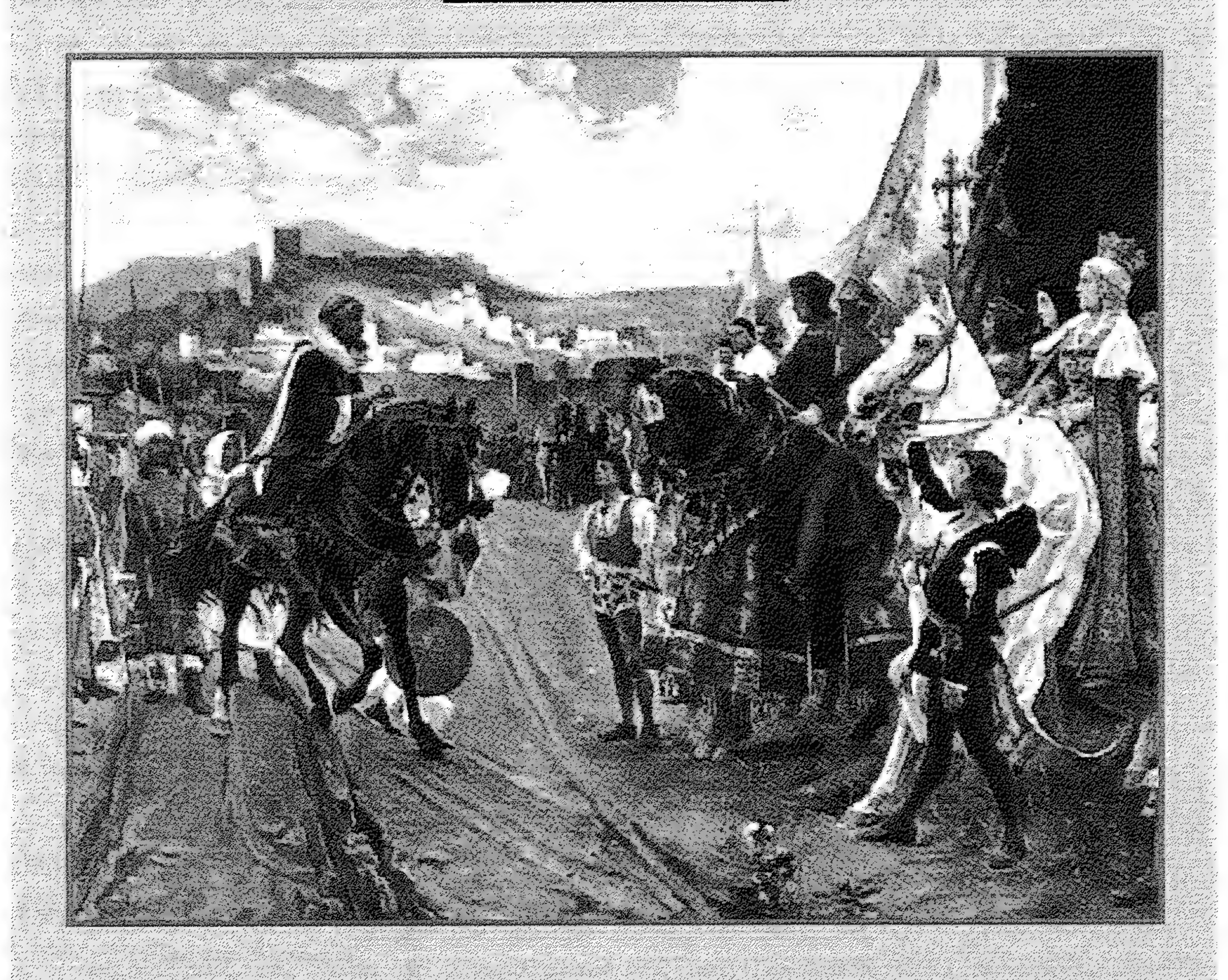
– التدقيق في الجمع والتفريق (طب)، لابن العالمة أحمد بن سعد بن حلوان، ت ٦٥٢هـ، تقع في (٧٤) ورقة، ضمن مجموع (٩٢–١٦٦)، في كل صفحة (١٣) سطراً، مصورة عن الأصل المحفوظ في مكتبة آيا صوفيا في تركيا، ورقمها في المركز (١٠٣٠٩).

– مختصر اللوامع في الجمع بين الصحاح والجوامع (حديث)، مجهولة المؤلف، تقع في (٢٢٠) ورقة، الجزء الثاني يبدأ من مسند ابن عباس، مصورة عن الأصل المحفوظ في مكتبة فيض الله أفندي بتركيا، تحت رقم (٥٠٢)، ورقمها في المركز (١٠٣١٠).

– الخبر عن البشر، للمقريزي أحمد بن علي بن عبد القادر، ت ٨٤٥هـ، تقع في (٢٠٣) ورقات، في كل صفحة (٢٧) سطراً، مصورة عن الأصل المحفوظ في مكتبة أحمد الثالث في تركيا، تحت رقم (٢٩٢٦)، ورقمها في المركز (١٠٣١٣). ■



إعداد أ. د.
عبد الرحمن علي الحجي



رسم يبين تسليم مفاتيح غرناطة من قبل آخر ملوكها (أبو عبد الله الصغير) المعروف بالإسبانية (Boabdil) إلى الملكين الكاثوليكيين سنة ٨٩٧هـ - ١٤٩٢م. وذلك عند سقوطها ورحيله عنها للعيش في منطقة أندلسية أخرى حيث رحل من هناك بعد سنة من ذلك إلى المغرب.



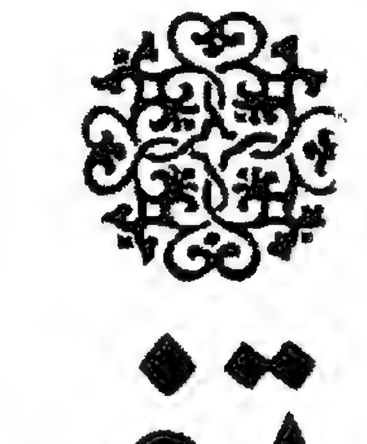


إشراف:
محمد إبراهيم الحديدي
m_alhadidi@hotmail.com

البارحه يا زايد

البارحه يا زايِدْ	بَات القلبْ بْحشيدْ
مِنْ به نِحِنْ بِنْعَايد	مِصْبِحْ علينا العيد
وابو خصورٍ جِلايد	عَنّا آختاز بْعِيد
دونَه رَمل وْقِعَايد	مِنْها الرِكاب تْبِيد
كانْ بْعُمري مِدَايد	لزمٍ عليَّ آعيد
غِلاه عِنْدي وَايد	وْفي كِل يوم يْزيد
اللي شِبِيه القايِدْ	بْخَدٍ وْعِين وْجِيد
فِرْقاه مْنِ الشِدايد	واشّدّ مْنِ الوقيد
ما خَرَّبِهَا العوايد	ولا بَه رِمَسْ لِوْغيد

الشيخ خليفة بن شخبوط آل نهيان - (١٨٣٣م)



تغــــرودة

هذه التغاريد قيلت في عهد الشيخ زايد بن خليفة بن شخبوط آل نهيان

يــــابـــوخـــلـــيـــفـــة يـــا ذرى مــــن خـــافي
الـــبـــدو يُـــوك الـــلـــي عـــلـــى الأوصـــافي
عـــن عشب بـــيـــنـــونـــه غـــدوا زفـــزافي
يـــنـــقص داهـــومـــه ولا يـــنـــشـــافي
وفصّـــل وتـــفـصـــيـــلك عـــلـــيـــهـــم وافي

سعيد بن عتيج

* * * * *

يـــا شـــيـــخ بـــيَّـــحـــتـــه عـــلـــيك السَـدِّي
مـــاتت ذلـــولي وانـــتـــهـــيت بْـــشـــدِّي
لاهـــي مَـــعَ ســـارق ولا تـــنـــكـــدِّي
لـــكـــن قصّـــاف الـــرقـــاب يْـــبـــدِّي
وارجـــي الـــعـــوض مـــنّـــك ولا مـــن حَـــدِّي

محمد بن حم

* * * * *

زايـــد مْـــرَيـــنَّـــا وفـــيـــه أخـــطـــيـــنـــا
نـــرفـــج اهْـــنـــيـــه وشَـــقّـــنـــا غَـــرْبـــيـــنَـــا
مـــن قِـــلْ عَـــبْـــرِتْـــنَـــا وجـــهـــلٍ فـــيـــنـــا

سعيد بن عتيج

نفحـــات مـــن المـــاضي

كـــم واحـــد في الـــزاد كـــنّا نـخـاويـه
وإن قـــلّـــت الخلاّن حـــتّا نـخـاويـه
لـيْـلـةْ امّـا سـمْـع المعادي تَـخـاويـه
إلاّ قِـــدَرْ مـــا وَقّـــضَـــهْ مِ الـــرقـــادي
علي بن محين الشامسي

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الإنســان مــالــه في الــذي مـا يُـعـنـي لِـهْ
ويــخــلّــي الشــقــرا عــلــيـهـا يُـلالـهـا
ولا خير في مـــن يســـتـمـع في صـديـقـه
حــكــي الـوشــاة الــلــي تــعـدل احـوالـهـا
يعقوب بن يوسف الحاتمي

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

يـا الـلـه يـا سـامـع دعـا مـن شـكـى لـه
غثْ من تضرّع وابتهل لك على الريج
كـــلٍ بســـط كـــفّـــه ورافـــع نـــدا لـــه
يـا كـاشـف الاكـراب يـا مُـفـرّج الضـيـج
الشيخ بطي بن سهيل

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

يـــا شـــيـــخ انـــا مـــا بـــي ادقـاق مـعـانـي
بـــي قـــول حَـــسّـــادٍ كـــلامـــه مَـــيْـــلْ
والـــنـــاس فـــيـــهـــا مـــن محـب وْمـبـغـض
وكـــل عـــلـــى قـــرصـــه يـــهـيـل مـلـيـلْ
سعّيد بن عتيج الهاملي

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

عـــيـــون الملا تـــنـــظـــر والآذان تســـمـــع
والاخــبـــار تـروى والـفـتـى في الثرى خـافي
وكِـــلٍ بما ســـوّاه يـــذكـــر ولـــو فـــنـــى
حــد بـالـنّـعــم واحــد مــع الخيــبــه اولافي
مبارك بن حمد العقّيلي

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

قـــال مـــن يشـــكـــو إلى الـــلّـــه الأمـــر
يـــا مـــفـــرّج هَـــمْ مـــن قـــلـــبـــه صـبـور
الـــرجـــا مـــنـــك الـــيـــسر بـــعـــد الـــعـــسر
إنـــت يـــا عَـــلاّم مـــا تـــخـــفـــي الصـــدور
فتاة العرب

النبطي الفصيح



■ سالم الزمر
salzomr@hotmail.com

هذه الصفحات تقف على الشعر النبطي ثم تغوص في أعماقه لالتقاط كلمات يظنها البعض عامية غير عربية لكثرة ما وجدوها في الشعر النبطي غير الفصيح أو لبعدهم وبعدنا عن الفصاحة وأساليبها وألفاظها، أو لأن بعض تلك الألفاظ مع فصاحتها ما عادت مستخدمة في الفصحى لكنها بقيت مما بقي من الفصاحة في لغتنا اليومية وأشعارنا غير الفصيحة.

ونحن هنا نقتفي آثار تلك الألفاظ في الشعر النبطي ونردها إلى أصلها الفصيح ولنا من ذلك فوائد عدة:

الأولى قراءة الكثير من الشعر النبطي ومعاودة مطالعته.

والثانية الغوص في قواميس العربية للبحث عن أصول تلك الألفاظ المتناثرة في الشعر النبطي.

والثالثة مطالعة الشعر العربي للبحث عن تلك الألفاظ في أدبنا العربي.

والرابعة إثبات أن العامية والشعر النبطي عربي لا ينفك عن أصله العربي.

والخامسة إعادة الفرع إلى أصله برد الألفاظ النبطية إلى أصلها العربي.

والسادسة تحقيق أمنية بعودتنا إلى لغتنا الفصحى وأدبنا العربي عن طريق البحث في الشعر النبطي عن الفصحى من ألفاظه.

والسابعة العمل على دراسة شعرنا النبطي دراسة لغوية مفيدة.

والثامنة ربط الأجيال القادمة بتراثنا الشعري النبطي بطريق بحث أدبي يحمل الطرافة والجهد العلمي معاً لإيصال ذلك التراث إلى الأجيال القادمة بجهد موثق موثوق به.

وأخيراً أقول لو شئنا أن نعدد الفوائد من ذلك لما انتهينا، لكنني أقف هنا للبحث وراء النبطي الفصيح في شعرنا النبطي.

طلماس

قال راشد الخضر

قلبي ابطلماس من الود ... ماهوب طلماس من اكتاب
وان مت كتبوا في الشواهد ... هذا قبر عاشق و مصطاب

يقول في البيت الأول إن قلبه تحت تأثير سحر من الحب وليس سحر من كتب أهل السحر فالطلماس أي السحر اسود كالليل وهذا وجه الشبه بين كلمة طلماس ومعناها الفصيح أي الليلة الشديدة الظلمة فلقد جاء في اللسان:

ليلة طِلْمِساءُ كطِرْمِساء، والطِّلْمِساء والطِّرْمِساء: الليلة الشديدة. والطِّلْمِساء: الرقيق من السحاب. وقال أبو خَيْرَة: هو الطِّرْمِساء، بالراء، وقيل: الطِّلْمِساء الأرض التي ليس بها منار ولا عَلَم؛ وقال المَرَّار:

يَسِيرُ فيها القومُ خِمْساً أَمْلَسا ... لقد تَعسَّفْتُ الفَلاةَ الطِّلْمِسا

وطَرْمَسَ الرجلُ إذا قَطَّبَ وجهه، وكذلك طَلْمَسَ وطَلْسَمَ.

حجيل

قال الماجدي بن ظاهر

رفعت الكفوف ابا زود شوف ... وبانت غدوف المواشي حجيل

فشرح الأديب الراحل حمد بوشهاب البيت بقوله تطلع الشاعر ليرى الابل الظاعنة فلم يتبين سوى القليل مما تحمله على ظهرها

وقال بن ظاهر

تغالي التيار قماش الغزار ... والازرا مافي شراها حجيل

ولقد شرح حمد بوشهاب كلمة حجيل في هذا البيت بمعنى القليل ونجد ذلك في كتابه الماجدي بن ظاهر حيلته وشعره.

ولقد وجدت مايؤيد ذلك المعنى في لسان العرب في مادة حقل فإذا افترضنا أن الكلمة أصلها حقيل فقلبت القاف جيما كما هي في لهجة أهل الامارات في بعض ألفاظها

فأصبحت حقيل، فلقد جاء في اللسان قوله (احْقَلْ لي من الشراب، وذلك من الحِقْلة والحُقْلة، وهو ما دون مِلْءِ القَدَح. وقال أبو عبيد: الحِقْلة الماء القليل. وقال أبو زيد: الحِقْلة البَقِيَّة من اللبن وليست بالقَلِيلة)

وهكذا نجد أن كلمة حجيل هنا قد تعنى قليل كما أشار الأديب حمد بوشهاب وهي أقرب للمعنى مراد الشاعر بن ظاهر

معالي

قال الشاعر ماجد بن علي النعيمي

ضــاع الـــهــزر واقــيـــاســي
يـــا فـــاهـــم الامســـال
امشـــي بـــقـــوة بـــاســي
وآقــــايس الامـــــثـــال
مـــاشـــي امـــعـــالي راســي
إلاّ رب الجـــــــــلال
كـــل ثـــوب لـــه لـــبـاس
يـــا فـــهـــمين المقـــال

وقوله في البيت قبل الأخير ماشي معالي راسي أي لا شيء فوق راسي فمعالي في اللهجة الاماراتية فوق

وهي كلمة لها أصلها الفصيح فهي من مادة علا في لسان العرب وعلا يعلو الشيء أي صار فوقه ومن ذلك جاء في اللسان

(والمَعْلاة: كَسْبُ الشَّرَف؛ قال الأَزهري: المَعْلاة مكْسَبُ الشَّرَف، وجمعها المَعالي)

فمعاليك أي شرفك أو قدرك العلي الرفيع.

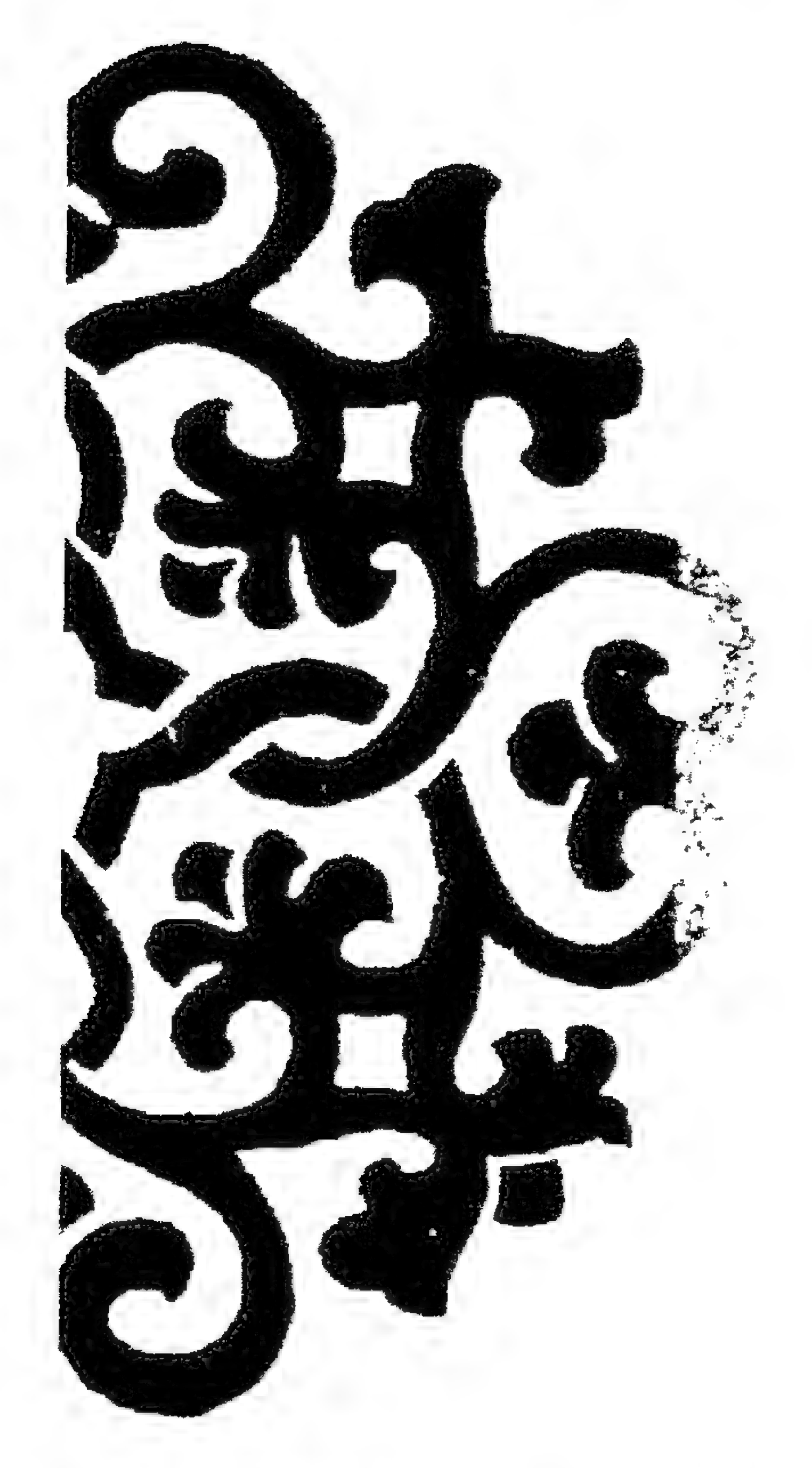
اوجـــان

قال الشاعر سالم الجمري:

أبكي حسف والدمع يذرف على اوجاني
شرواة نف المطر تهطل هماليله
واجيب وَرْق لعا في روس لغصاني
يهتف بصوته وشوّقني تعاويله

تيّــم فــوادي وانــا بــالحب غــرمــاني
خلي نهبني وانا ما قدرت له حيله
بـو جـادلٍ لي ومــا بــه فــوق لمتاني
كـنــه شـلـيـلٍ يمثل يوم بتخيله

وقوله في البيت الأول الدمع يذرف على اوجاني أي الدمع يسيل على وجنتي



والوجنة في الخد وهي فصيحة لاشك فقد جاء في اللسان:

(الوَجْنَةُ: ما ارتفع من الخَدَّيْن للشِّدْق والمَحْجِر. ابن سيده: الوَجْنَةُ والوِجْنَةُ والوُجْنَةُ والوَجَنَةُ والأُجْنَة والأَجْنَةُ؛ الأَخيرة عن يعقوب حكاه في المبدل: ما انحدر من المَحْجِر ونتأَ من الوجه، وقيل: ما نتأَ من لحم الخدين بين الصُّدْغين وكَنَفَي الأَنف، وقيل: هو فَرَقُ ما بين الخَدَّيْن والمَدْمَع من العظم الشاخص في الوجه، إذا وَضَعْتَ عليه يَدَك وجدت حَجْمَه. وحكى اللحياني: إنه لَحَسَن الوَجَنات كأَنه جعل كل جزء منها وَجْنَةً، ثم جمع على هذا. ورجل أَوْجَنُ ومُوَجَّنٌ: عظيم الوَجَنات).



ومـــا

وقول الجمري في البيت الاخير من الابيات الماضية

بو جادل لي وما به فوق لمتاني

يعني وهو يصف من يحب أنها ذات شعر طويل تومىء به أي ترمي به على متنيها

وأوما هنا بمعنى رمى به وأصلها عربي وإن كان المعني بعيد قليلا فلقد جاء في اللسان:
ومَأَ إليه يَمَأُ وَمْأً: أَشارَ مِثل أَوْمَأَ. أنشد القَنانيُّ:

فَما كان إلاّ وَمْؤُها بالحَواجِبِ

فقلْت السَّلامُ، فاتَّقَتْ منْ أَميرِها، وَأَوْمَأَ كَوَمَأَ، ولا تقل أَوْمَيْتُ. الليث: الإِيماءُ أَن تُومِئَ برأْسِكَ أَوْ بيَدِك كما يُومِئ المَرِيضُ برأْسه للرُّكُوع والسُّجُود، وقد تَقُولُ العرب: أَوْمَأَ برأْسِه أي قال لا. قال ذو الرمة:

قِياماً تَذُبُّ البَقَّ عن نُخَراتِها
بِنَهْزٍ كَإِيماءِ الرُّؤوسِ المَوانِعِ

وقوله، أَنشده الأَخفش في كِتابه المَوْسُوم بالقوافي:

إذا قَلَّ مالُ المَرْءِ قَلَّ صَدِيقُه
وأَوْمَتْ إِليه بالعُيُوبِ الأَصابِعُ

والقصد في اللهجة قريب من ذلك فاما به في العامية أي رماه الى جهة ما وكأنه يشير به الى تلك الجهة.

السـهام

قال الجمري

واظلالي عن وهج شمس وسهام
وامشاميع بها متجدين
واحزمت برحت ابليا احزام
وافترق شمل الثلاثة والثنين
ما يخفج الحر واطرافه حطام
ما يميل العود عاري بلفنين
كان حيدي ما برك بالشد قام
يرتوي بالصاع ري الظامين

وقوله في البيت الأول واظلالي عن وهج شمس وسهام أي ياظلالي عن وهج الشمس والحر فالسهام ريح حارة تهب في الصيف وهي فصيحة لاشك فلقد جاء في اللسان:
والسَّهام: وَهَجُ الصَّيْفِ وغَبَراتُهُ؛ قال ذو الرمة:

كأَنَّا على أَولاد أَحْقَبَ لاحَها
ورَمْيُ السَّفَا أَنْفاسَها بسَهامِ

وسُهِمَ الرجلُ أَي أَصابه السَّهامُ. والسَّهامُ: لُعابُ الشيطان؛ قال بِشْرُ بن أَبي خازِم:

وأَرْض تَعْزِفُ الجِنَّانُ فِيها
فيافِيها يَطِيرُ بِها السِّهامُ

ابن الأَعرابي: السُّهْمُ غَزْلُ عَيْنِ الشمس، والسُّهُمُ: الحرارة الغالبةُ. والسَّهامُ، بالفتح: حَرُّ السَّمُومِ. وقد سُهِمَ الرجلُ، على ما لم يُسَمَّ فاعلُه، إذا أَصابته السَّمُومُ. والسَّهامُ: الريح الحارَّة، واحدها وجمعها سواء؛ قال لبيد:

ورَمَى دَوابِرَها السَّفَا، وتَهَيَّجَتْ
رِيحُ المَصايِفِ سَوْمُها وسَهامُها

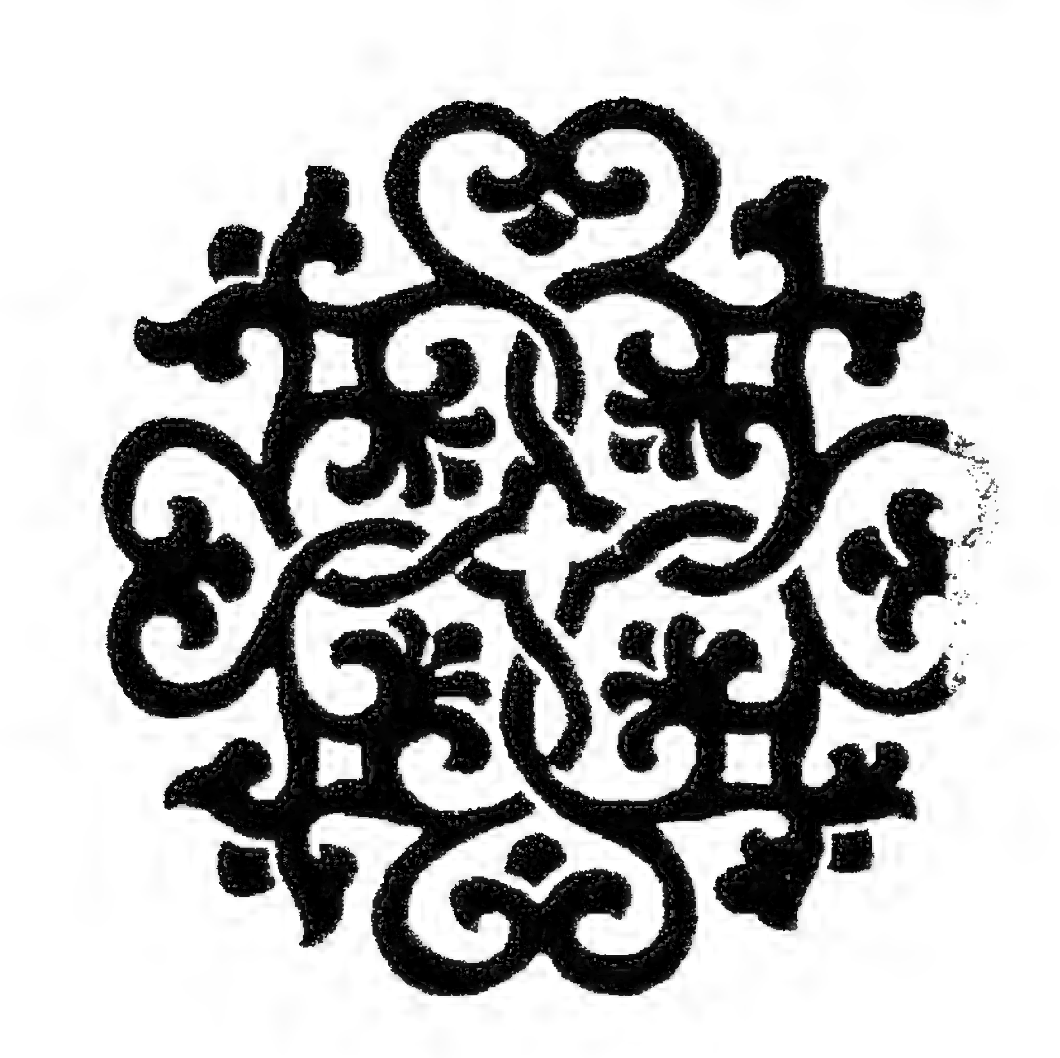
ويـــلان

قال محمد بن قطامي

ضاقت مسالك فكرتي والتدابير
في ديرةٍ ما من صديقٍ يوالي

غـربـة وكـربـة هـم وجـد وتحسّـير
مع ضيق خلق وخاطر هوب سالي
أبـات ويـلانٍ عـيـوني مسـّاهير
للصبح ما جفني بنومه هنا لي
وتـلـومـنـي نـاس بـحـالي مـغـاتير
يـلـغـون مـاً يـدرون بـالـلي جرى لي

وقولها بات ويلان في البيت الثالث تعني قلق خائف ومعناها الثاني هنا فصيح فالوجل الخائف ولقد جاءت هنا ويلان بدلاً من وجلان حسب لهجة الامارات التي تقلب الجيم قافا



وجاء في اللسان:

الـوجـل: الـفـزع والخوف، وجل وجـلا بـالـفـتـح. وفي الحديث: وعظنا موعظه وجلت منها القلوب، ووجلت توجبل وفي لغه تيجل، ويقال تاجل، قال سيبويه: وجل، ياجل، وييجل، ابدولوا الواو الفا كراهيه الواو مع الياء، وقلوبهم في ييحل ياء لقربها من الياء، وكسروا الياء اشعارا بوجل وهو شاذ وتقول منه: اني لأوجل ورجل أوجل ووجل قال الشاعر معن بن اوس المزني:

لـعـمـرك مـا ادري، واني لأوجـل
عـلـى ايّـنـا تـغـدو المنـيـه اول
وكـان لـهـا جـاران لايـخـفـرانـهـا
ابـو جـعـدة الـعـادي وعـفـراء جـيـال

ابـوجـعـدة: الـذئـب وعـرفـاء الـضـبـع وإذا وقـع الـذئـب والـضـبـع في غـنـم مـنـع كـل واحـد مـنـهـا صـاحـبـه وقـال سيبويه في قوله: اللهم ضبعا وذئبا أي اجمعهما، اذا اجتمعا سلمت الغنم وجمعه وجال قالت جنوب أخت عمرو ذي الكلب ترثيه:

وكـــل قـــتـــيـــل، وان لم تـــكـــن
أردتـــهـــم، مـــنـــك بـــاتـــوا وجـــالا

والأنثى وجله ولايقال وجلاء، وقوم وجلون.

اقفر

جاء في قصيدة لأحمد بوسنيده:

إقْـفـر قـوافـيـنـا وتـنـبـيـك عـنّـا
نلحظك بالناظر ونحميك بلسان
أمضـيَ مـن الماضـي ولا فـيـه خِلّـه
سلْطه على الباغي وعفريت لي شان
لي ضـــاع راي المرء في مـــن يـــودّه
حِرْم الصديج وتابع أروات شيطان

جاء في البيت الأول اقفر قوافينا أي اتبع اشعارنا تخبرك عنا وقوله اقفر عربية الاصل فلقد جاء في اللسان:

وقَفَرَ الأَثَرَ يَقْفُره قَفْراً واقْتَفَرَه اقْتِفاراً وتَقَفَّره، كلُّه: اقْتَفاه وتَتَبَّعَه. وفي الحديث: أنه سئل عمن يَرْمِي الصيدَ فَيَقْتَفِرُ أثره أي يتبعه. يقال: اقْتَفَرْتُ الأَثَرَ وتَقَفَّرْته إتتبعته وقَفَوْته. وفي حديث يحيى بن يَعْمَرَ: ظَهَر قبلنا أُناس يَتَقَفَّرُونَ العِلْم، ويروى يَقْتَفِرون أي يَتَطَلَّبونه. وفي حديث ابن سِيرِينَ: أن بني إسرائيل كانوا يَجِدُون محمداً، صلى الله عليه وسلم، مَنْعُوتاً عندهم وأنه يَخْرُجُ من بعض هذه القُرَى العربية وكانوا يَقْتَفِرُونَ الأَثَر؛ وأنشد لأعشى باهِلةَ يَرْثي أخاه المُنْتَشِرَ بن وَهْب:

أَخُـو رَغـائبَ يُـعْـطِـيـهـا وُيـسْـأَلُـهـا
يـأْبَـى الـظُّـلامَـةَ مـنـه الـنَّـوْفَـلُ الـزُّفَـرُ
مَـنْ لـيس في خَـيْـره شَـرٌّ يُـكَـدِّره
على الصَّديقَ، ولا في صَفْوه كَدَرُ
لا يَصْعُبُ الأَمْرُ إلاّ حيث يَرْكَبُهَ
وكـلّ أَمْـر سِـوَى الـفَـحْـشاءِ يَأْتَـمِـرُ
لا يَغْمِزُ الساقَ من أَيْن ومن وَصَبٍ
ولا يَـزال أَمـامَ الـقَـوْمِ يَـقْـتَـفِـر ■

الساعات الدقاقة.. إبداع

■ د. صلاح أحمد البهنسي

أدرك خلفاء المسلمين وولاة أمورهم قيمة العلم، ورفعوا قدر العلماء فقربوهم من مجالسهم، وأجزلوا لهم العطاء، فعظم إنتاجهم، وتألقت عبقريتهم، وفاضت أنوار معرفتهم، فعمّت عصرهم وما تلاه من العصور.

ومن المجالات التي ولع العديد من علماء المسلمين بها، وقطعوا شوطاً كبيراً فيها، الأجهزة الميكانيكية، التي وصفوا العديد منها في كتبهم وصفاً يدلّ على تفوق العرب -وقتذاك- في هذا المجال، فعندما أهدى الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠- ١٩٤هـ/ ٧٨٦- ٨٠٩م) ساعة مائية لشارمان ملك فرنسا كانت مثاراً لإعجابه ومبعثاً لدهشته ومن حوله، مما يدل على مدى تقدم العرب ومهارتهم في إعداد الأجهزة الميكانيكية وأنهم سبقوا غيرهم من دول أوروبا، كما كانت الساعة التي أهداها صلاح الدين الأيوبي لفردريك الثاني إمبراطور ألمانيا، من أشهر الساعات في العالم في القرن ٦هـ/ ١٢م، والتي كانت على شكل كرة تتحرك عليها أشكال الشمس والقمر وسائر الكواكب، فتبيّن في أثناء حركتها ساعات الليل والنهار.

وليس المقصود من ذلك أن الساعات ابتكار إسلامي، فقد وجدت الساعات المائية في المعابد الفرعونية في مصر، كما اخترع العالم الإغريقي (هيرون) بعض الساعات المائية، كما كان للعالم الروماني (فيتروفيوس) نظرياته في استخدام الماء في بعض الأجهزة الهيدروليكية والميكانيكية، ولكن علماء المسلمين لم يكونوا مجرد نَقَلَة لتراث الأمم السابقة، إنما كانوا أصحاب آراء وأفكار، ولهم استنباطات وابتكارات. فابتكروا أنماطاً من الساعات المائية التي فاقت كل ما توصل إليه من سبقهم، وأضافوا إليها إضافات جعلت منها تحفاً فنية تجمع بين جمال المنظر وعبقرية الفكر، ودقة الأداء.

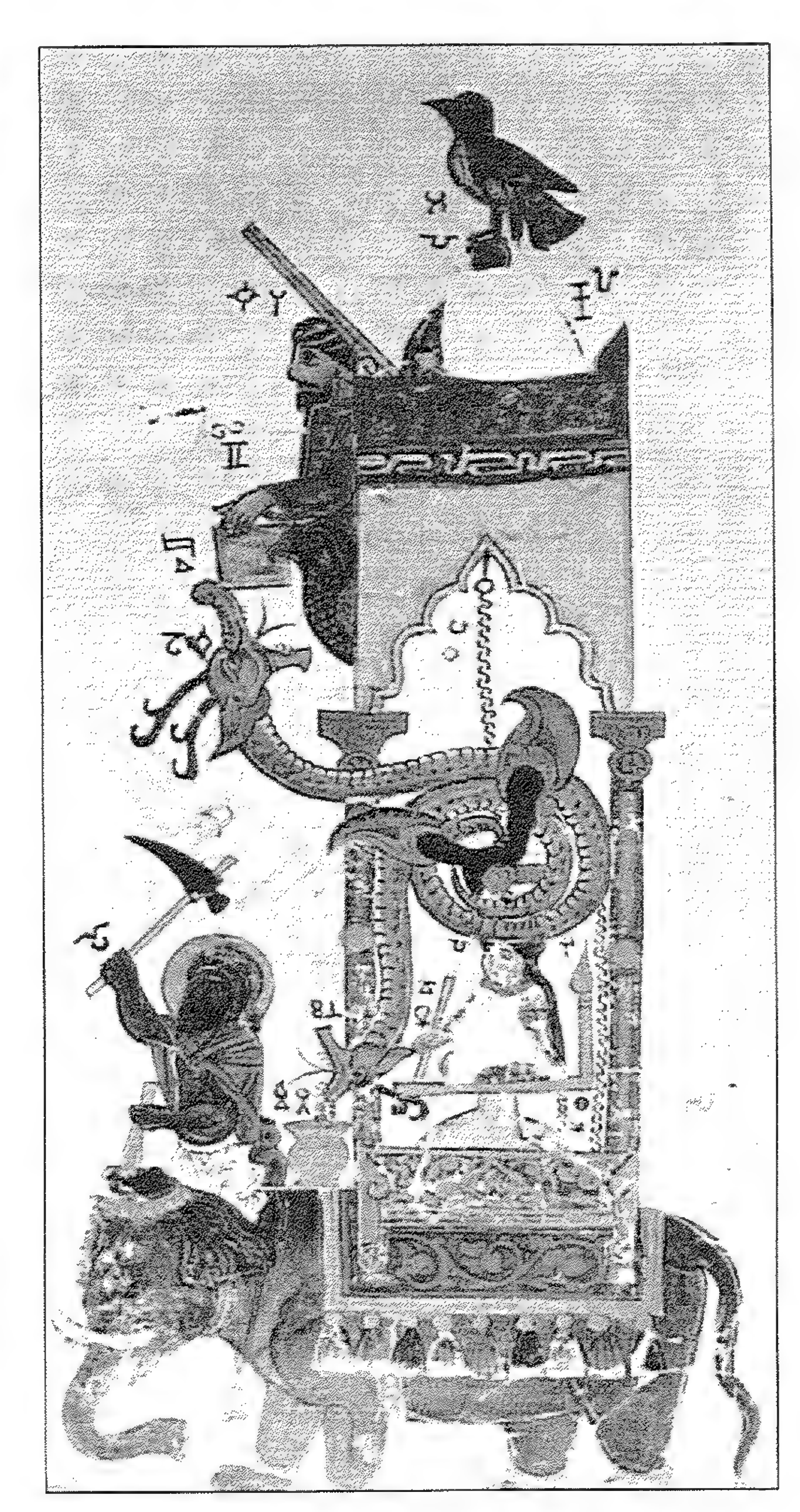
ويعدّ العالم أبو يوسف الكندي (ق ٣هـ/ ٩م) من أول علماء المسلمين الذين تناولوا عمل الساعات في كتاباتهم، حيث تحتفظ المكتبة البودلية في أكسفورد برسالة خطية من ست صفحات برقم ٦٣٣ (رسالة في عمل الساعات على صفيحة تنصب على سطح موازٍ للأفق بالخطوط خبر من غير برهان).

ولكن من أعظم المخطوطات قدراً، وأكثرها نفعاً في هذا المجال مخطوط (الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل) والذي كتبه (بديع الزمان أبو العز بن إسماعيل بن الرزاز الجزري) سنة ٦٠٢هـ/ ١٢٠٦م لأحد أمراء بني أرتق، والمحفوظ في متحف طوبقا بوسراي في إستانبول. كما توجد نسخة أخرى منه مؤرخة في ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م محفوظة أيضاً في متحف طوبقا بوسراي باستانبول برقم ٣٤٧٢، ونسخة ثالثة مؤرخة في ٧١٥هـ/ ١٣١٥م، ومحفوظة ضمن مجموعة كيفوركيان بمتحف المتروبوليتان بالولايات المتحدة الأمريكية، ونسخة مؤرخة في صفر ٧٥٥هـ/ فبراير ١٣٥٤م عملت للأمير ناصر الدين أحد أمراء المماليك في مصر، والمخطوط محفوظ في متحف أيا صوفيا في استانبول. ومنه بعض أوراق محفوظة في عدة

ـــداع إسلامي سبق الزمن



ساعة دقاقة على شكل
كاتب فوق كأس كبيرة
مخطوط الجبل



ساعة الفيل - الحيل الميكانيكية

الجزري - سوريا ٧١٥هـ / ١٣١٥م، متحف المتروبوليتان

متاحف مثل متحف الفنون في بوسطن بأمريكا ومتحف (فوج) للفن في كمبردج، ومتحف اللوفر في باريس.

ساعة الفيل

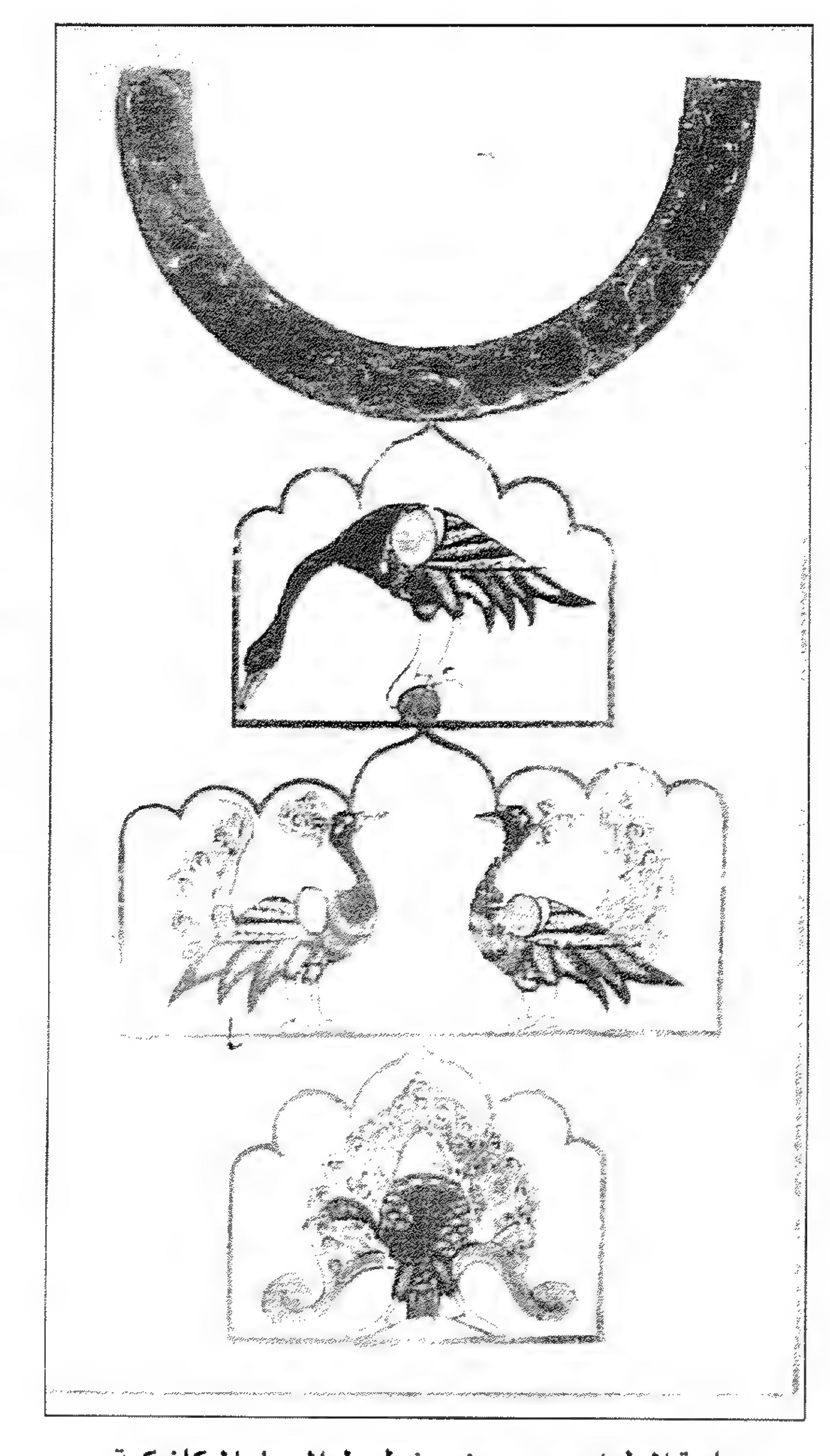
المخطوط يتناول شرحاً للآلات الضاغطة والرافعة والناقلة والمتحركة حركات خفية وكيفية تصنيعها وطريقة تشغيلها، ومن أمثلتها ساعة أطلق عليها (ساعة الفيل)، وهي ضمن المخطوط المؤرخ في ٧١٥هـ/ ١٣١٥م والمحفوظ في متحف المتروبوليتان في أمريكا، والتي تعدّ أعجوبة من عجائب المهارة في الصناعة في ذلك الوقت، وهي عبارة عن فيل عليه هودج بداخله رجل، بينما يجلس آخر على رقبة الفيل وبيده مطرقة، كما يوجد رجل ثالث في أعلى الهودج وقد أمسك صندوقاً بيده يستند على رأس الأفعى التي تلتف بين أعمدة الهودج حول أفعى أخرى مكوناً ما يشبه الترس. ويخرج من الوسط سلاسل تمتد إلى أعلى وأسفل لنقل الحركة من جزء إلى آخر، بينما يقف أعلى قبة الهودج طائر، ويوجد جزء مدرج يظهر عليه الوقت بالدقائق، وكلما مرت نصف ساعة دار الطائر الموجود في أعلى نصف دورة حول نفسه، ويصدر عنه صفير، فيقوم الشخص الجالس على الفيل بطرقه طرقة بالمطرقة المعدنية التي في يده، فتحدث هي الأخرى رنيناً عالياً، ثم يحدُثُ صوتٌ ثالثٌ إذ تخرج من الصندوق الممسك به الشخص الموجود أعلى الهودج قطعة معدنية، وتدخل في فم الأفعى عندئذ تميل الأفعى رقبتها، فتسقط القطعة المعدنية في جسم الشخص الجالس في الهودج ومنه إلى جسم الفيل حيث تقرع صنجة فتحدث صوتاً مختلفاً، أي أنه مع مرور كل نصف ساعة تحدث الساعة ثلاثة أصوات مختلفة، وإذا مرت ساعة تغيّر لون فتحة من الفتحات التي بأعلى الهودج من اللون الأسود إلى الأبيض لتدلّ بذلك على عدد الساعات التي انقضت من اليوم.

ويضم المخطوط المؤرخ في ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م تصميماً لبعض الساعات: منها ساعة مصممة على شكل مبنى يعتمد على أعمدة ترتكز عليها عقود وأعتاب، وقد وقفت تحت العقود مجموعة من الموسيقيين يحملون آلاتهم الموسيقية من طبول وأبواق، بينما وقف في الشرفات العليا للمبنى والتي تبلغ اثنتي عشرة شرفة أناس يرقبونهم، فإذا مرّت ساعة قرع الموسيقيون طبولهم. ونفخوا في أبواقهم، فتحدث أصواتاً منظمة، بينما يتحرك الواقفون في الشرفات من شرفة إلى أخرى في حركة تبادلية مرتبة تدل على عدد الساعات.

ويضم المخطوط العديد من أشكال الساعات والتي لا يتسع المجال للحديث عن كل منها، منها ما هو مشكل على هيئة مجموعة من الطواويس التي تنزلق قطع معدنية من فم أعلاها إلى أسفلها محدداً الوقت، وغيرها من الأشكال وقد اكتفينا ببعض نماذجها. وقد يظن البعض أن هذه الرسوم التي تشتمل عليها المخطوطات كانت مجرد تصورات أو ضرب من ضروب الخيال العلمي، والحقيقة أن هذه الرسوم ما هي إلا تماثيل لآلات كان يتم صنعها بالفعل، فتوجد صورة من

المخطوط الأخير محفوظة في متحف الفنون في بوسطن على شكل مزهرية مغطاة بغطاء معدني مقسم إلى أجزاء متساوية، بينما يجلس فوق الغطاء رجل ممسك بقضيب معدني يتحرك بانتظام فوق أقسام الغطاء فنعرف منها الوقت، وقد صنع (الجزري) ساعة تشبه تلك تماماً وقدمها للسلطان محمود الغزنوي.

كما كان بالمسجد الأموي بدمشق في القرن ٧هـ/ ١٣م ساعة مثبتة على أعمدة وبها تماثيل متحركة لطيور وثعبان وغراب، وكلّما مرّت ساعة غرّدت الطيور، وتحرّك الثعبان، ويحدث الغراب صوتاً، وكان ذلك مبعث دهشة لفرسان الحروب الصليبية عندما دخلوا دمشق، وشاهدوا تلك الساعة.



ساعة الطواويس - من مخطوط الحيل الميكانيكية

كما كان بظاهر المدرسة المستنصرية ببغداد (٦٣٠-٦٤٠هـ/ ١٢٣٢- ١٢٤٢م) ساعة مائية. وذكر ابن فضل الله العمري (توفي سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م) في كتابه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) بأنه كانت تنتصب على باب جامع الكتبية بمراكش ساعة كبيرة (منجنانه) كلّما مرّت ساعة نزلت منها صنجة تحدث رنيناً عالياً كما تتحرك الأجراس فيسمع صوتها من بعيد، ولا زالت بقايا الساعة المائية التي أمر السلطان أبو سالم بن سلطان أبي الحسن (توفي سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م) بعملها موجودة على جامع القرويين بمدينة فاس بالمغرب.

وبعد فهذه إطلالة على أحد جوانب الإبداع في الحضارة الإسلامية، تعرّفنا خلالها على جانب من جوانب الإبداع العلمي، وذلك من مخطوط (الحيل الجامع بين العلم والعمل) الذي حظي باهتمام الباحثين والدارسين للحضارة الإسلامية، فأوصى مهرجان الفن الإسلامي الذي عقد في لندن في إبريل سنة ١٩٧٦م ببناء ثلاث ساعات من الساعات التي وجدت في هذا المخطوط، وكان ضمن من شارك في ذلك الدكتور دونالد هيل (Donald Hill) الذي شغف بإسهامات المسلمين في هذا المجال، وأصدر كتاباً باللغة الإنجليزية عن الساعات المائية العربية؛ كما قام الدكتور أحمد يوسف الحسن بتحقيق هذا المخطوط وأصدره ضمن مطبوعات معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب في سوريا عام ١٩٧٩م.

وإن كان المسلمون قد عرفوا هذه الساعات منذ أمد بعيد، وكانت تزين العديد من مساجدهم وقصورهم وبعض دورهم، فإنها لم تظهر في أوروبا إلا في القرن الـ ١٤م حيث أقيمت أولاها في مدينة ستراسبورج، ثم مدينة نورنبرج في ألمانيا. ولا شك أنها أحد مظاهر الحضارة الإسلامية التي انتقلت إلى أوروبا عن طريق الحروب الصليبية، وعن طريق بلاد الأندلس، وما زالت تشكل ملمحاً مميزاً للكاتدرائيات في ميادين كبريات العواصم الأوروبية.■



الرقة

في مدينة دبيّ، في قلب المساحة المزدهرة عمرانياً وتجارياً منطقة معروفة باسم الرقّة، وهناك شارع كبير مزدحم بالحركة فيها أيضاً اسمه: شارع الرّقّة. وفي الشارقة في قلب المدينة منطقة معروفة باسم الرّقّة ولا شكّ في أن الاسم قديم، توارثته الأجيال حتى وصل إلى العصر الحديث. والكلمة عربية أصيلة قديمة. وفي بلاد العرب مواضع سُمّيت بهذا الاسم، لأن الأصل في ذلك معنى جغرافي، ثم انتقل من وصف المكان بصفة محددة إلى أن صار علماً (اسماً) عليه، فعُرف به. والرّقّة في المعنى اللغوي: كل أرض إلى جَنْبِ وادٍ ينبسط عليه الماء، وجمعها رقاق. وقيل في تعريف الرّقّة أيضاً: الرقاق هي الأرض اللينة التراب، وقال الأصمعي: الأرض اللينة من غير رمل.

ومن خلال التسمية الجغرافية اللغوية انتقلت الكلمة لتدلّ على مكان بعينه اشتهر وذاع صيته.

وأشهر مكان مذكور في كتب الجغرافية والبلدان يحمل هذا الاسم: الرّقّة التي في الجزيرة الشامية (المنطقة المتوسط بين النهرين في الشام والعراق).

قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: الرّقّة مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حرّان ثلاثة أيام، معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي، ويقال لها الرقة البيضاء. وفي سنة ١٧ هجرية أرسل والي الكوفة الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه جيشاً وعيّن له قائداً: عياض بن غنم، فقدم الجزيرة، فبلغ أهل الرّقّة خبره فقالوا: (قال بعضهم لبعض) أنتم بين الشام والعراق، وقد استولى عليها المسلمون فما بقاؤكم مع هؤلاء؟ فبعثوا إلى عياض بن غنم في الصلح فقبله منهم، فقال سهيل بن عديّ:

وصادَمْنا الفراتَ غداةَ سِرْنا … إلى أهل الجزيرة بالعوالي
أخذنا الرّقّة البيضاءَ لمّا … رأينا الشهر لوّح بالهلال

هذه هي الرّقّة البيضاء في العُدوة الشرقية من الفرات، لكن كان بالجانب الغربي مدينة أخرى تُعرف برقّة واسط كان بها قصران لهشام بن عبد الملك كانا على طريق رُصافة هشام.

قال ياقوت: وأسفل الرّقّة بفرسخ (إلى الجنوب منها): الرّقّة السوداء، وهي قرية كبيرة ذات بساتين كثيرة، وشربها من نهر البَلِيخ، والجميع متصل.

وإذا قيل: (الرّقّتان) فالمراد الرّقّة والرافقة. والرافقة بناها الخليفة العباسي المنصور سنة ١٥٥هـ على بناء (مماثلة لبناء) بغداد. وكان بين الرافقة والرّقّة مزارع وفضاء بنحو ثلاث مئة ذراع. وكان ينزلها الخليفة العباسي هارون الرشيد وتعدّ مصيفاً ونقل أحد الولاة أسواق الرّقّة إلى تلك الأرض فاضمحلت الرّقّة القديمة وأطلق اسم الرّقّة على الامتداد الجديد (أي الرافقة واتساع الرقة القديمة).

واشتهرت الرّقّة بوفود الشعراء على الرشيد فيها،

وبظهور شاعر عرف بربيعة الرّقّي. وهو ربيعة بن لجأ الأسدي الأنصاري. مولده ومنشؤه في مدينة الرقة اشتهر في أيام المنصور العباسي وأدرك أيام هارون الرشيد. ووصف شعره بأنه عذب، جيّد هيّن، وقال ربيعة في بلدته هذه:

حبّذا الرّقّة داراً وبلدْ
بلدٌ ساكنهُ ممّن تودْ
ما رأينا بلدةً تعدلها
لا ولا أخبرنا عنها أحد
إنها بريّةٌ بحريّةٌ
سورها بحر وسورٌ في الجددْ
لم تُضَمّنْ بلدةٌ ما ضُمّنت
من جمال في قريش وأسدْ

ولكن المراد بالبحر: (الفرات والعرب تسمّي النهر الكبير بحراً كما يقولون في مصر: بحر النيل. والجَدَدْ: الأرض المستوية).

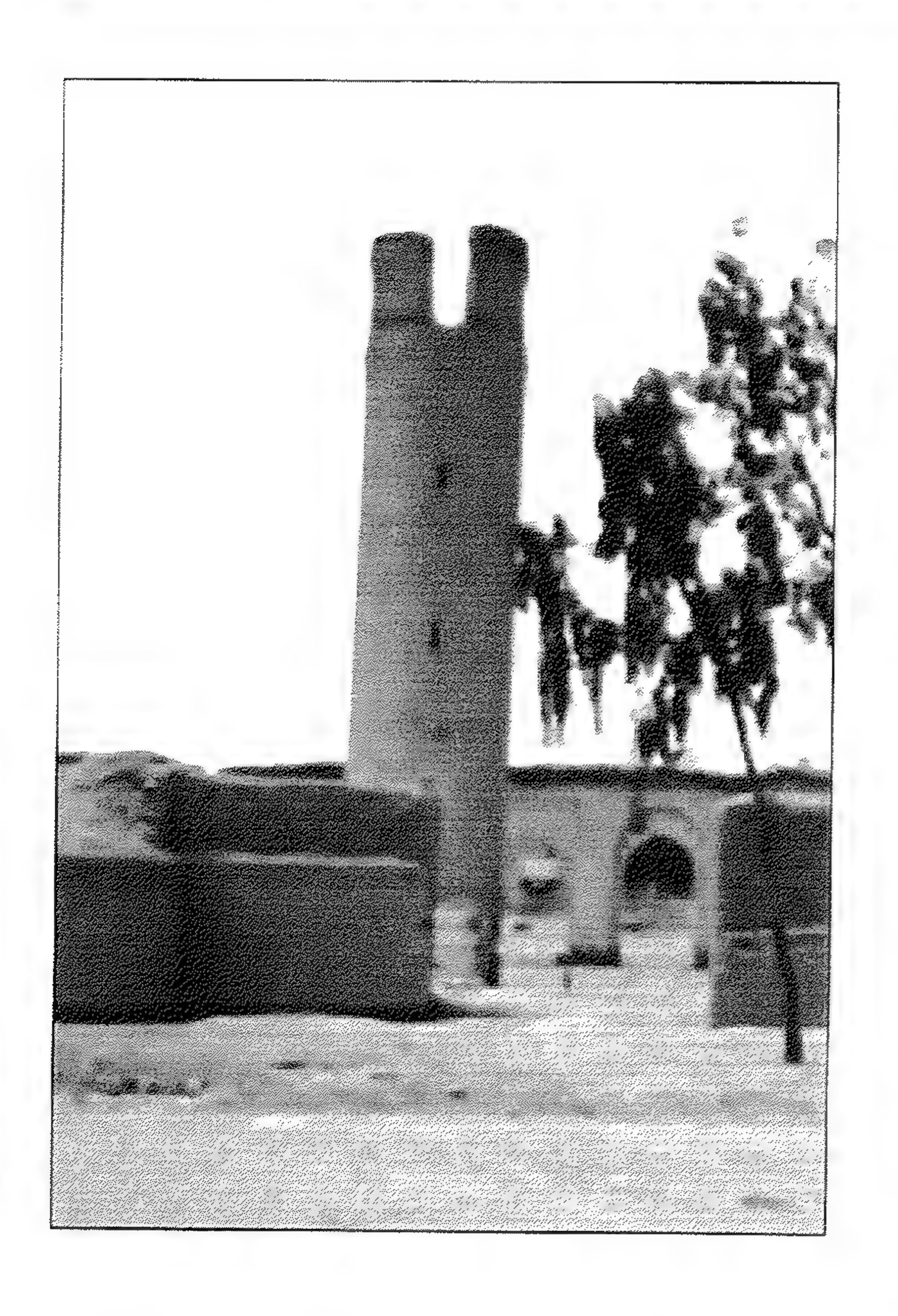
والرّقّة كانت مسكن عالم فلكي عربي شهير، مهندس بارع يسمّيه الإفرنج (Al bategni) أو: (Al batnius).

وهو أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحراني الرّقّي المعروف بالبَتّاني (وُلد قبل ٢٤٤ وتوفي سنة ٣١٧) أصله من حَرَّان (مدينة ذات أهمية ثقافية فتحت من وقت مبكر) وسكن الرّقّة واشتغل برصد الكواكب من سنة ٢٦٤ إلى ٣٠٦هـ، ورحل مع بعض أهل الرقة إلى بغداد في ظلامات لهم فلما رجع مات في طريقه بـ (قصر الجِصّ) قرب سامرّاء في العراق.

والبتّاني صاحب كتاب الزيج المشهور بزيج الصابي (ثلاثة أجزاء) وترجم إلى اللاتينية وطبعت ترجمته سنة ١٥٣٧م في نورمبرج وقالوا إنه أصح من زيج بطليموس.

وله كتب أخرى مثل (مطالع البروج في ما بين أرباع الفلك) و(شرح أربع مقالات لبطليموس)، ولم يُعلم أحد في الحضارة الإسلامية بلغ مبلغ البتّاني في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها.

وكان البتاني يرصد في الرّقّة على الضفة اليسرى (الغربية) من الفرات. وهو أول من كشف السَّمْت (Azimuth) والنظير (Nadir)؛ والكلمتان عند علماء



مدينة الرقة - سورية

الفلك الأفرنج عربيتان وقد اكتشف حركة الأوج الشمسي، وتقدم المدار الشمسي وانحرافه، والجيب الهندسي، والأوتار.

وقال المستشرق نلينو في كتابه: (علم الفلك: تاريخه عند العرب في العصور الوسطى) إن للبتّاني رصوداً جليلة للكسوف والخسوف اعتمد عليها دنتورن (Dunthorne) سنة ١٧٤٩م في تحديد تسارع القمر في حركته خلال قرن من الزمان.

وقال لالند (Lalande) الفلكي الفرنسي: إن البتّاني أحد الفلكيين العشرين الأئمة الذين ظهروا في العالم كله.

وللبتّاني إبداعات كان هو صاحبها، وإصلاحات، وإضافات كثيرة في علم الفلك خاصة. واعتني بكتبه من المستشرقين ثم من الباحثين العرب.

وكان البتّاني المحور الأساسي لأبحاث المؤتمر التاسع لتاريخ العلوم عند العرب الذي عقد في مدينة الرّقّة في نيسان ١٩٨٥م اشترك فيها باحثون أجانب وعرب. وتعقد ندوة سنوية في الرّقّة تدور أساساً حول القضايا الفلكية. ■

في الصيد.. خمس فوائد

■ نايف سلامة حسن

لقد تميز الصيد عن غيره من الهوايات بمميزات كثيرة لا تتجمع لنشاط آخر مهما كان، لذا نلمس حرص كثير من الناس قديماً وحديثاً على ممارسة هواية الصيد، ودأبهم عليها بل إنفاق الأموال الطائلة فيها وهي بحق رياضة الملوك والأمراء ومن أهم تلك الخصائص التي انفرد بها الصيد في البراري.

أولاً: الصيد رياضة

إن ممارسة الصيد والتنقل من مكان لآخر والبحث عن أنواع الصيد في أماكن وعرة - مع تغير الأحوال الجوية من حر وبرد والسير بين راكب وراجل جعلت من جسم الصياد بنية قوية ومنحته همة عالية لا تلين إذا ثقل الحمل، هذا بالنسبة للجسم وترويضه، أما بالنسبة للسلوك وتهذيبه فإن الصيد في البر مدرسة يتم فيها صقل الرجال وتهذيب النفوس وتدريب الفرد على الإيثار وركوب الأخطار والصبر على الشدائد والاكتفاء بالقليل من الزاد والشراب وحب الاستكشاف والمغامرة. يقول الشاعر:

ومما يريح البال ويطرد الأسى
ويبري من النفس الغريمة أكلومها
مسير بخطوى قفرة علها الحيا
تفتح صبا نوارها من أكمومها

ويقول آخر:

والفكر يبقى راحته عقب الإرهاق
ومن لا يسلي خاطره عزتي له
والقنص كيفة رأس قرم إلى راق
والكيف مثلك يطلبه وعني له

ثانياً: الصيد علم

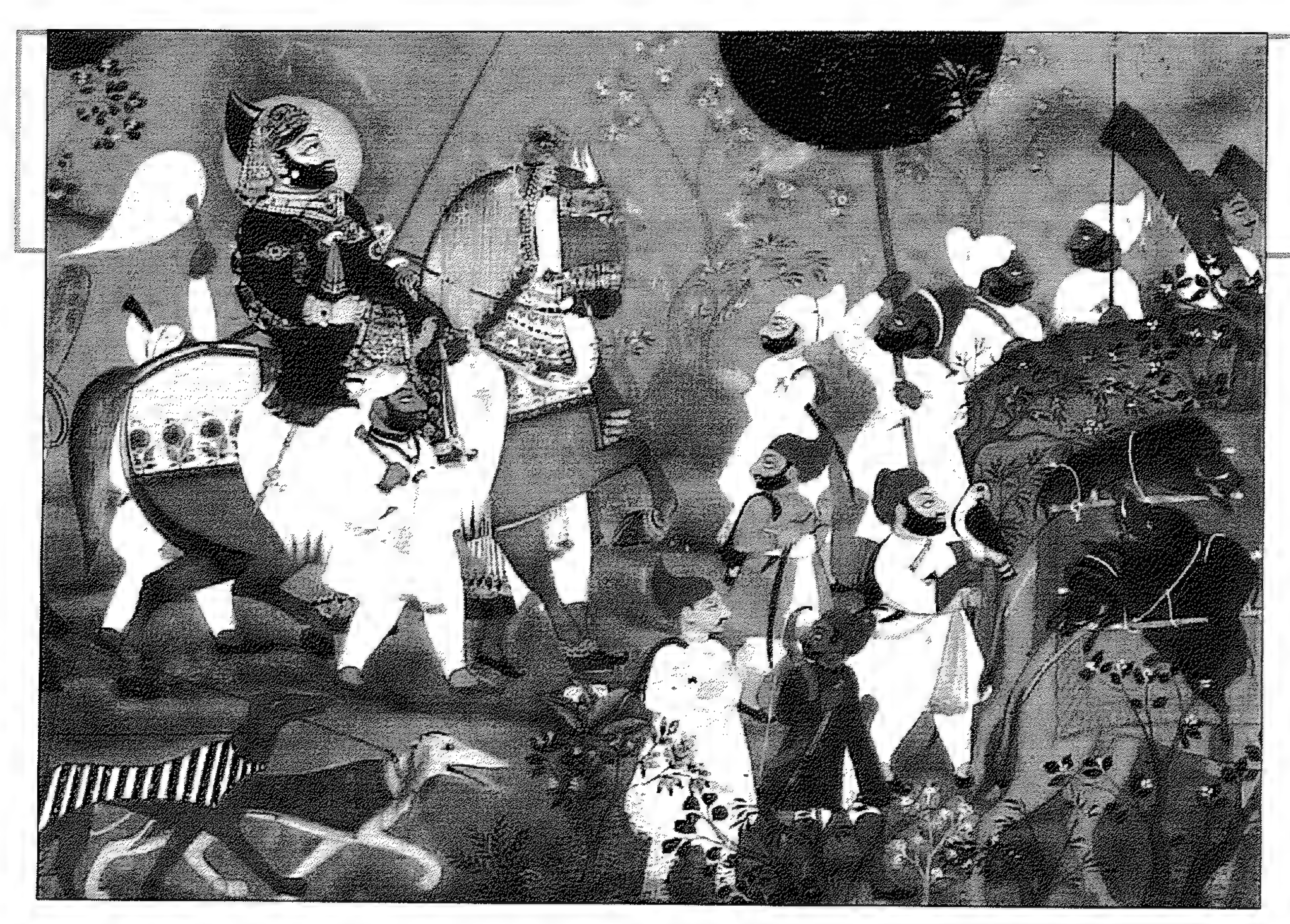
لا غرابة في أن يكون الصياد عالماً بكثير من الأحوال التي تخفى على الإنسان القابع في بيته أو في مصنعه أو في مكتبه. وكيف يمكن أن ينكر ذلك على من يجوب الأرض قاصيها ودانيها ويحفظ التضاريس ويتبع السبل ويعرف مسيرها واتجاهاتها ويلتقي بالناس في شتى بقاع الأرض ويعرف لغاتهم وتقاليدهم ويحفظ أنسابهم، فالصياد إذا نظر إلى السماء في ظلمات الليل الحالك اهتدى بالنجوم، وإذا نظر إلى الأرض نهاراً عرف مكانه وعلم اتجاهاته واستدل على موارد المياه مستعيناً في ذلك بآثار الرياح والدواب ومعالم الأشجار.

يكون الصياد عالماً بأحوال وطنه ومواطنيه.. عالماً بأحوال البيئة من رمال وجبال.. خبيراً بمسالك الأرض ومنابت العشب ومراعي الدواب وموارد المياه، وبحكم طبيعة الصياد فهو دؤوب على البحث عن أماكن الصيد يعرف مراتعها وينشد مواطنها ويميز أنواعها فهو دقيق الملاحظة ثاقب البصيرة يكتشف الصيد في مخبئه ويجده باقتفاء أثره. هذا من جانب الصيد، أما علم الصيد بالجوارح فهو يصيدها بمعرفته ويدربها ويستأنسها من وحشتها وضريها لغايته.. وفوق ذلك فهو طبيبها وعالم بشؤونها خبير بطباعها. قال الله تعالى: ﴿علّم الإنسان ما لم يعلم﴾[1].

ثالثاً: الصيد فن

لا ريب عند العاقل أن الصيد فن لما يحويه من مهارات متنوعة، فالسير في البراري الشاسعة والجبال الوعرة من غير طريق مرسوم ولا دليل معلوم هو في حد ذاته فن تصحبه فراسة ومقدرة على التحكم والاعتماد على الحواس، وإلا فإن الضياع أمر لا مفر منه، لذا نرى أن كل جماعة خرجت إلى الصيد قد اختاروا أحسنهم بديهة وأكثرهم تجربة للقيادة وكانوا له مطيعين.

ومن فنون الصيد أيضاً معرفة واجد الصيد وتحديد أنواعه فإذا كان الصيد حيواناً قصده في مراتعه، وإذا كان طيراً بحث عنه في مرابضه وركوب الدواب من خيل وجمال وقيادة السيارات في بحور الرمال فن، وطهو الطعام فن، والقهوة وإعدادها في المقانيص تعد فناً من الفنون التي تخصص لها ناس متمرسون.



يقول الشاعر:

بالقهوة اللي شأنها هامة الراس
ومقامها يرفع إلى غيرها ديس
اللي لها أربع أدلال ومهراس
وتشم عنبر طيبها في المحاميس
فإن زل صاينها على كفه الكاس
يشبه لدم آدمية بالتجانيس
فيلا وزن لك صاحب البن بقياس
خمسة فناجيل نزول الهواجيس

رابعاً: الصيد أدب من الآداب العامة

إن لكل هواية أصولاً وقواعد وآداباً، وهواية الصيد آدابها أن ينطلق الصيادون في جماعات للصيد في وقت مبكر وفي ذلك يقول الشاعر:

أما القنص بالطير في ذيك لقفار
ياما سرينا يمهم في الظلاما
نغيش وبعض الناس في مرقده خار
ونصبّح الريضان ما عاد قاما

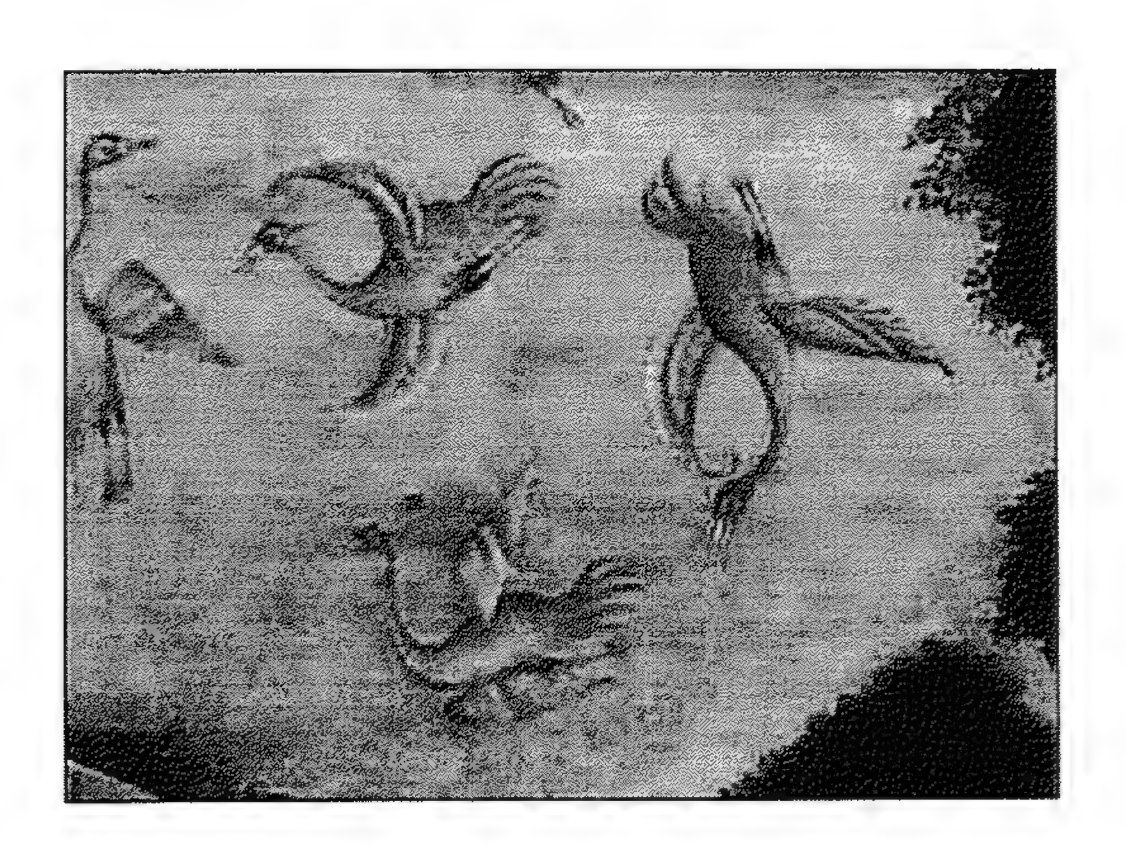
وإذا انقضت فترة الصيد الصباحية نزل إخوان القانيص للراحة يتناولون الشيء القليل من الزاد والقهوة ثم يواصلون رحلة الصيد بعد الظهر حتى إذا جاء العشاء حطوا رحالهم وأراحوا جوارحهم وأشعلوا نارهم وطهوا طعامهم، فإذا استراحوا وأكلوا جلسوا حول النار يتناولون أطراف الحديث ويتسامرون بأحلى الأحاديث ويتذاكرون الأخبار ويروون الأشعار ويعبر كل منهم عن مشاعره.

يقول الشاعر:

وطابت حنايا القوم بالليل طربين
أحد يعاض بطيره واحد بديله
أهل الطيور الفاعلة نومهم زين
وأهل الطيور الفايلة في مليله

إن للصيد أدباً وجمالاً وشعراً يقال، وقد عرف بشعر (الطرد) وهو الذي يصور الصيد وأحواله في مختلف الظروف، وهذه الأشعار عادة ما تكون من قبيل التفاخر بالجوارح وذكر بعض الأفعال الجيدة ومدح رفقة بعض الأصحاب ووصف الطبيعة وجمالها الفتان.

إن من آداب الصيد التعاون والإيثار حيث يسارعون إلى تعويض الذي يفقده صقره بصقر بديل لما يصيبه من مشاعر الحزن على صقره المفقود الذي عرفه وجرب فعاله وألف صحبته.



يقول الشاعر:

يـا مـن يـبشـرني ويـاخـذ بشـاره
بـالـطير لـو شـافـه عـلـى راس مـرقـاب
واطـلـب مـن الـلـي قـدره في قـراره
يـجـمـع بشـمـل الـلي عن الـكف قد غـاب
حـر خـفـيـف الـريش مـا بـه غـبـاره
وإلى عـدا يشـبـه كـمـا وصـف نشـاب
كـان الـسـبـب مـن لا يـعـرف الإشـارة
مـع قـدرة الـلـه ثـم فـعـلـه والأسـبـاب

وصـار الـهـدد مـن غير فـعـل اخـتـيـاره
وأقـفـى فـوات لا مـودي ولا جـاب
يـا طير لـو تـذكـر لـنـا في الـزبـارة
اركب لك يـا طير عشـريـن ركـاب

إن المرء في الصيد يتعلم كيف يعتمد على نفسه بعد اتكاله على ربه في جميع أحواله فهو يصيد صيده ويطهو طعامه ويسعف جراحه ويصلح سيارته إذا تعطلت ويتقن الحرف التي تتطلبها ضرورة الحل والترحال في فجاج الأرض ولهذه الأحوال صدى في النفوس عبّر عنه الشاعر بقوله:

هـذه طـراة الـنـفس جـيـل بـعـد جـيـل
كـافـاك بـربك لـلـحـيـاة الـكـسـيـفـة
ونسـمـر مـع ربـعـن عـلـى البن والـهـيل
مـا رفضـوهـا بـالـدلال الـظـريـفـة
مـا نـغـبـط الـلـي يملك السد والـنـيل
ومـا نـغـبـط أحـد بـالحياة الـلـطـيـفـة

خامساً: الصيد ضرورة

في هذا الصدد من الحديث يجدر بنا أن نلقي نظرة على أحوال من يسكن البادية لنرى متى يصبح الصيد ضرورة ملحة لا غنى عنها لكثير من الناس، فإن طبيعة العيش في البادية التنقل والترحال في بقاع شاسعة من الأرض يقتفون آثار مواشيهم طلباً للماء والمرعى يقطعون الجبال الوعرة ويعبرون الصحارى.

ولقد دأب البدو على أن يجعلوا مرابعهم في المروج الفسيحة حيث تلبس الأرض حلتها الخضراء والرياض التي تموج بعشبها مع الرياح، والطيور تشدو بأروع الألحان والورقاء تصدح بصوتها الحنون.

يقول الشاعر:

رب ورقـاء هـتـوف بـالـضـحـى
ذات شـجـو صـدحـت في فنن
ذكـرت إلـفـاً ودهـراً صـالـحـاً
فـبـكـت شـجـواً فـهـاجـت حـزني
فـبـكـائـي ربما أرقـهـا
وبـكـاهـا ربما أرقـنـي

في تلك المناطق الخصبة من المرابيع يكثر الصيد ويشح الزاد ولا يتيسر إلا ما يمكن حمله من بعض الحبوب. ونعلم أن الرحّل من الناس لا يحملون من الزاد إلا ما خف وزنه وطال نفعه مثل الحبوب والتمور، وفي تلك المرابع البعيدة عن المدنية يرتفع الناس بمواشيهم في الفلاة مع الصيد من الظباء والحبارى وغيرها وذلك في حد ذاته مدعاة لأن يهتم سكان البادية اهتمام المحتاج، وأصبح لا يخلو بيت من بيوت البدو أو منطقة من مناطقهم من أشخاص تفرغوا للصيد وجلب الرزق من لحومه ومنهم من يمارس الصيد إلى جانب مهنته الرئيسة في رعي الماشية، ومن هنا يبدو أن الصيد بالنسبة لهذه الفئة من الناس ضرورة ملحة لبقاء الإنسان والمحافظة على حياته.

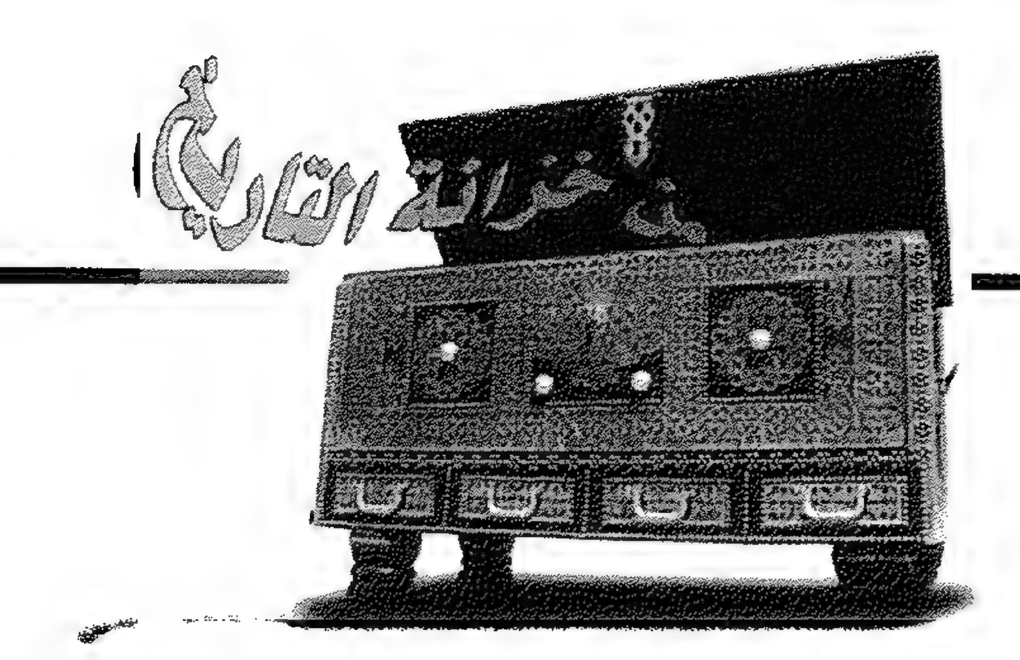
ومن الفوائد العظيمة أن الصياد معافى من كثير من أمراض المدنية التي لم تكن معروفة بل أغلب الظن إن لم تكن موجودة فالصياد معافى من الاكتئاب النفسي والضغط والروماتيزم والسكر والغازات والسمنة التي لا تتفق والصيد ومتطلباته من نشاط وحركة دائبة.■

هوامش:

١) سورة العلق، الآية: ٦.

المراجع:

فيض البراري: محمد عبد الله الظريف.



قراصنة أم دعاة؟

■ أ. د. عبد الرحمن الحجي*

احتوت الحياةُ الإسلاميةُ ومجتمعُها وتاريخُها، امتلاءً بالقوة والعفة والهمة، نوادرَ فريدة مدهشة، بما ابتنت عليه نُفوسُ أهلِه من معان كريمة صَلَحت لَبِناتُه، فطاب بناؤه وهواؤه وتفتحت مُناه وطالَ مَداه، تعددت الميادين، قائمةً ومبتكَرَة تدفع بأهله إلى تيار الحياة يرتادها ويقودها، تتبارى في مضامير الخير ومضامين الفضل والإنجاز. فحيثما تضعه يأتي بالخير، مُعَبِّراً مُزْدَهِراً مثمراً، وكأنه مُؤَهَّلٌ له مُعَدٌّ لمهماته خبير بمُدْرَكاته. يأتيها سبقاً يدعو للنظر ويثيرُ الفِكَر، ممثلاً ومتمثلاً بالعبر.

كل هذا يدعو مُسْلِمَةَ اليوم للتريث والتوقف والتعرف، بحثاً عن ذلك البناء الأنيق الرشيق الرشيد. وهكذا كانت تتفتق المعاني أمامهم، يَلِجُون بها مواقع الحياة إبداعاً واقتراعاً في كل ما يُفيد ويأتي بالخير الأكيد والإنجاز الجديد، ربما على غير مثال أو خيال. وأينما تَلَفَّتَّ تجد ذلك يُعجبك ويجذبك، مراكبَ ومناكب ومواكب، من النساء والرجال والأطفال. اختص العالمُ الإسلامي بأمثالها وأندلُسُها الموعود رافع الأعلام والبنود، وكثير منها لا نكاد نعرف تفاصيلَها بل نجهل وجودَها أحياناً،حين الموعد المورود .

فماذا نقول في عشرين بحاراً أندلسياً، لا نعرف اسم واحد منهم، يُبْحِرُون من سواحل الأندلس الشرقية على البحر المتوسط، باتجاه شَماله إلى شواطئ فرنسا. فماذا تراهم يريدون، وما هو سر قوتهم وحقيقة دوافعهم، لِتَحَمُّل ذلك وخوض غمار المجهول وامتطاء غمرات المخاطر، وماذا أعدوا من مؤهلات هذه الرحلة ومتطلبات المهمة وبم استعدوا لها؟

وما أن وصلوا سواحل فرنسا شَمال مرسيلياMarseille ، بينها وبين (Nice نيقة)، عند خليج سان تروبيسSaint-Tropes شَمال طولونToulon في منطقة البروفانسProvanse جنوب فرنسا عند سفوح جبال الألب (Alps: Mts.)، حيث الآن جبال المور= maures massif des، وتقع عليها قرية غارد فرينيه Freinet - Garde حتى نزلوا فيه باحثين عن مكان آمن، يتخذونه قاعدة لهم، ليبدؤوا القيامَ بمهمتهم.

فكان ذلك الموقع البارز البارع الذي يدل اختيارُه على حُنْكَة وحكمة وخبرة. فأقاموا عدة معاقل وحصون كان أمنعُها المكانَ الذي يقوم على جبل مرتفع داخل غابات كثيفة تحيط به. واسمه باللاتينية Fraxinetum مشتق من اسم شجر الدَّردار[1] الكثير هناك، ومنه أُخذت التسميات الأوربية الأخرى.

لكن اسمه في مصادرنا الإسلامية «جبل القِلال» جبل القِمَم[2] كان ذلك حوالي سنة ٢٧٧هـ = ٨٩٠م أيام الأمير الأندلسي عبد الله حفيد الأمير عبد الرحمن الأوسط وجد الخليفة عبد الرحمن الناصر. وتقاطر عليهم الأتْباع من الأندلس والمغرب، فأقاموا دولة استمرت قرابة مئة عام.

والمتوفر من مصادرنا تسميهم «المجاهدون» لكن المصادر الأوروبية المتوفرة -ومنها أكثر المعلومات- تسميهم القراصنة...Pirates, Piratas والقرصنة Piracy Pirateria.

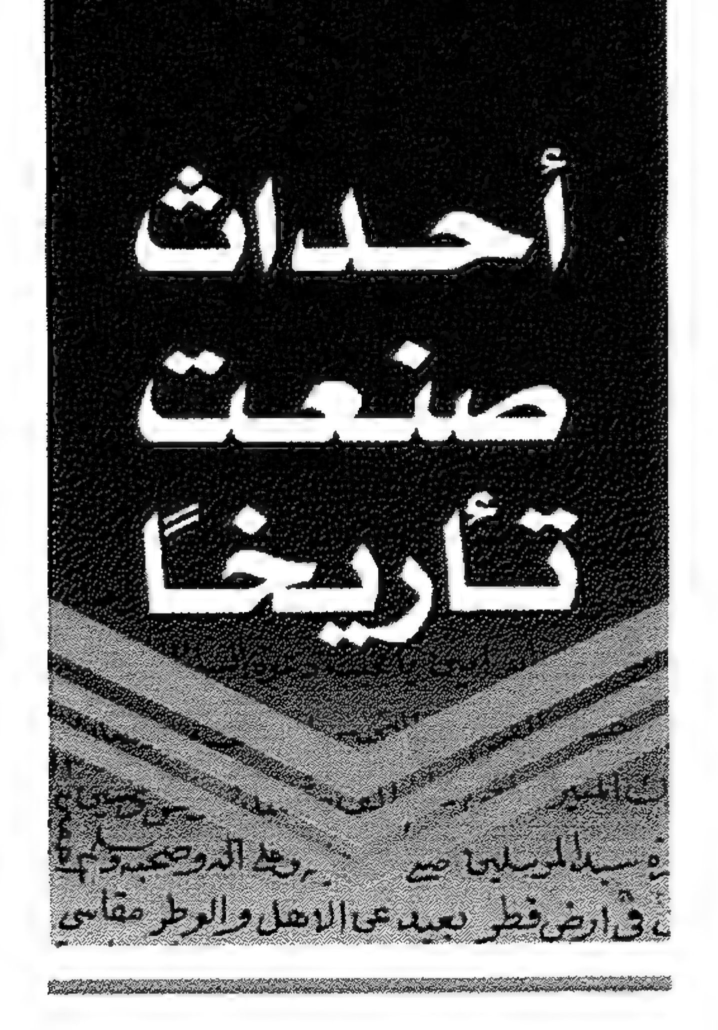
لكن استقراء الأحداث واستكناه ما تدخره مضامينُها واعتبارَ أبعاد أمثالها تدل على أنهم فعلاً ذهبوا للدعوة في سبيل الله، لا هاربين ولا ناهبين ولا معتدين.

فانظر أية همة عالية كانت تملأ نفوسَهم وقوة متوقدة أخذتهم إلى هناك وهدف سامٍ جعلهم يتحملون كل ذلك؟ لا شك إنها الدعوة في سبيل الله. فهم لم يذهبوا هذه الوجهة والمذهب ويسعون لهذا المطلب واحتمال السير إلا لذلك. ولابد أنهم عرفوا من الأخبار هناك ووصلت أنباءُ أحوالها وأَسْبَقوا سفرهم بطلائع أتتهم بالأخبار، بجانب المعلومات السابقة، كما هي العادة في مثل هذه الآثار. ولا أُبْعِدُ أبداً أن يكونوا قد علموا بوجود مسلمين هناك، بقايا الفتوحات الإسلامية السابقة لتلك المناطق، أو جاء وفد يحمل إليهم هذه الأنباء، فلَبَّوا النداء واستجاشوا للفداء، فانطلقوا بالولاء للبناء.■

* *أستاذ التاريخ الأندلسي* – مدريد

(١) شجر الدردار: شجر عظيم له زهر أصفر وثمر كقرون الدفله، يُغرس على حافة الطريق للزينة والظل والخضرة.

(٢) أطروحة الدكتوراه:
Andalusian Diplomatic Relations with Western Europe during the Umayyad Period, pp. .209-226.
والترجمة العربية لها: العَلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوروبا الغربية خلال المدة الأموية (المجمع الثقافي – أبوظبي، ٢٠٠٤). ٢٧٣-٢٩٧. كذلك: التاريخ الأندلسي ٣١٨ وبعدها.



في حياة الشعوب وقائع وأحداث كبيرة.. شكلت بصمات لا تنمحي من ذاكرتها.. ولأهميتها ولتأثيرها اتخذتها الشعوب تأريخاً لها.. فيقال: فلان ولد في سنة الجراد.. وفلان توفي في سنة السيل، وفلان تزوج في سنة الزلزال.

ولأهمية تلك الأحداث ومغزى اتخاذها تأريخاً.. قررنا أن نفتح صفحاتها لنتعرف عليها.. لأنها جزء من التاريخ.



من بين السنين التي يؤرخ بهاالناس في حياتهم: «سنة الجدري».. وهذه السنة الكبيسة الأليمة لم تكن قاصرة على منطقة الخليج.. وإنما شملت العديد من دول العالم.. وكان المصاب بها فادحاً.. فلم يسلم بيت إلا وأصابه هذا المرض اللعين.. فمات مئات الملايين بسببه، ولم يقتصر الأمر على ذلك.. بل شوه ذلك المرض اللعين وجوه الملايين وأصاب بالعمى مثلهم ممن كتب الله لهم النجاة منه.

وفي الإمارات انتشر المرض في فترة من الفترات ومات مئات من البشر.

وكالعادة.. عدنا إلى خميس راشد بن زعل الرميثي الخبير التراثي في نادي تراث الإمارات (٧٥ عاما) لنسأله عما سمع أو رأى عن انتشار مرض الجدري في المنطقة فقال: في تلك السنة كنا في القيظ (الصيف) ونظراً لقلة الماء الصالح للشرب في أبوظبي، كان الناس يتفرقون صيفاً، منهم من يذهب إلى العين، ومنهم من يذهب إلى ليوا، وآخرون يذهبون إلى منطقة رؤوس الجبال قرب رأس الخيمة، وقد خرجنا في تلك السنة إلى دبي حيث أقمنا في منطقة بر ديره، كنا صغاراً، وكان الرجال الكبار في الغوص، قدر الله سبحانه وتعالى أن تصاب أختي الصغيرة بالجدري، وكان عمرها لا يتجاوز الثلاث سنوات، ومنها انتشر المرض إلى باقي أفراد العائلة، وكان العلاج بدائياً شعبياً، وكان المريض يتم عزله في مكان بعيداً عن الناس حتى لا ينقل إليهم العدوى، ويتم تطبيبه من قبل متطوع يجازف بنفسه، أو من أصيب بالمرض قبل ذلك وشفي منه حيث كان معلوماً لدى الناس أن المرض لا يعود لشخص أصيب به قبل ذلك.

وعندما عادت الأسرة إلى أبوظبي، علم الشيوخ بوجود إصابة بالجدري في العائلة فتم عزلها بعيداً، وظل المرض ينتشر من شخص لآخر في عائلتنا، فتوفيت أولا جدتي أم والدي، ثم عمي جمعة وهو أصغر أخوة أبي، وبعده توفي والدي رحمة الله عليهم جميعا وكان عمري وقتها كما أخبرتني والدتي تسع سنوات وسبعة أشهر، ونجانا الله أنا ووالدتي واثنين من اخوتي وعمي محمد، الذي تزوج من أمي بعد ذلك ليتولى الإشراف علينا وتربيتنا.

وواضح أن الجدري كان له وقع أليم في المنطقة كلها، فقد قتل وشوّه الآلاف من سكانها، وكتب فيه الشعراء العديد من القصائد، فها هو شاعرنا متعب بن مبارك الخيلي يصاب به فيهجره الناس ويعتزلونه.. فقال قصيدة منها:

ونـــتـــي ونــــات مـــفـــيــوعــــة
لي لحق فــرقــا الضــنــا فــيــهـــا
لي مـــعـــاهـــا مــــاخــــذ اســــبــوعــــه
ريــــعت لـه من مـــفــــالــــيـــهـــا
يـــوم بــتـــقـــبـــل عـــلـــى الـــديـــره
زاد حـــزن الـــكـــبـــد لي فـــيـــهـــا

انتشار الجدري محليا

لكن مؤشرات انتشار ذلك المرض محلياً جاءت في رسالة من الشيخ سلطان بن سالم حاكم رأس الخيمة بتاريخ ١٥ ديسمبر من العام ١٩٣٥م، طلب فيها من حكومة جلالة ملكة بريطانيا إرسال طبيب لتطعيم أهالي رأس الخيمة الذين انتشر بينهم داء الجدري، موضحاً استفحال المرض وفقر الأهالي الذي حال دون طلبهم للعلاج.

وكانت هذه الرسالة مدعمة برسالة أخرى من خان صاحب حسين عماد رجل الدولة البريطانية في المنطقة تؤكد على الحاجة الماسة لتقديم المعونة لأهالي رأس الخيمة.

وبعد هاتين الرسالتين وبالتحديد في ٣١ ديسمبر من عام ١٩٣٥م جاء رد المعتمد البريطاني في البحرين، حيث طلب أن يرسل إليه عدد الإصابات بالجدري وعدد الوفيات. وإذا كان المرض منتشراً بشدة فعليه أن يطلب من مدير المحطة الجوية البريطانية في الشارقة عزل المحطة عن المدينة قدر استطاعته، وأن يطلب من حراس المحطة الذين لم يتطعموا بعد ضد الجدري أن يسارعوا في أخذ التطعيم. ويبلغه أن هناك ١٠٠٠ جرعة تطعيم طلبت من باكستان سوف يتم إرسالها بالجو ويسأله. وبالنسبة للتطعيم في رأس الخيمة فإنه سوف يرسل في يناير من البصرة».

وفي ١ يناير ١٩٣٦م وردت رسالة من المقيم البريطاني في البحرين تفيد بأنه قد تم إرسال شخص اسمه «ستور» يستطيع القيام بحملة التلقيح، ويوصي بأن يقوم بالمهمة لمدة أسبوع.

كما جاءت رسالة أخرى مؤرخة في ١ يناير ١٩٣٦م من المعتمد السياسي البريطاني في البحرين إلى المسؤول الطبي في القاعدة الجوية في الشارقة تفيد بقيام الدكتور «هولمز» (المسؤول الطبي بمستشفى فكتوريا) بعملية التطعيم في الإمارات المتصالحة، حيث رافق المعتمد البريطاني في الشارقة، وقام بتطعيم ١٣ شخصاً في إمارة الشارقة ، و٢٢٩ شخصاً في إمارة دبي و٦٦ شخصاً في إمارة أبوظبي. كما قام في الفترة نفسها بتطعيم ٣٧ شخصاً من حراس القاعدة الجوية بالشارقة و٤ أشخاص من طاقم القاعدة. وقد جاء في هذه الرسالة أيضاً: «إن الشيخ حشر بن مكتوم شقيق الحاكم نفسه قد تدرب على عملية التطعيم».. وقد كانت السلطات البريطانية توفر له التطعيم ويقوم بالعملية بنفسه. كما ورد في هذه الرسالة أن الرفض الديني للتطعيم قد اختفى في الغالب بين أهالي المنطقة. والصعوبة التي ما زالت قائمة هي اعتقاد البعض بأن التطعيم قد يكون في حد ذاته عاملاً من عوامل نقل العدوى أو المتسبب في انتشار هذا المرض من شخص لآخر. كما ورد في هذه الرسالة أيضاً: «إن أهالي إمارة دبي كانوا يقومون بعزل المريض حتى لا تنتقل العدوى إلى أفراد أسرته».

وفي رسالة من خان صاحب بن حسين عماد رجل الدولة البريطانية بتاريخ ٥ يناير١٩٣٦م جاء ما يفيد بوصول (١٠٠٠) جرعة «فاكسين» من كراتشي، ووصول «ستور» الشخص الذي سيقوم بعملية التطعيم في ٢ يناير. كما أكدت هذه الرسالة أيضاً تجاوب أبناء المنطقة وإقبالهم المتزايد على التطعيم بل ومساهمتهم بالقيام بعملية التطعيم ذاتها. حيث أوردت: «أنه قد تم تسليم بعض هذه الجرعات إلى الشيخ سعيد بن مكتوم حاكم دبي الذي أمر أخاه وابن عمه جمعه بن ثاني وأحد رجاله الذين تدربوا على عملية التطعيم بأخذ هذه الجرعات والقيام بتطعيم أبناء الإمارة.. كما ورد في رسالة أيضاً أن شيخ رأس الخيمة سلطان بن سالم القاسمي قد خصص اثنين من رجاله وهما السيد جاسم بن كلبان والسيد محمد بن عبدالعزيز ليتدربا على يد «ستور» ويقوما بعملية التطعيم في حالة غيابه.

وفي رسالة أخرى بتاريخ ١٥ يناير ١٩٣٦م من خان صاحب بن حسين عماد إلى المعتمد البريطاني في البحرين يبلغه بأن الدكتور «هولمز» قد وصل إلى دبي وقابل الشيخ سعيد بن مكتوم، وتوجه لعلاج الشيخ محمد بن أحمد بن دلوك وعالجه بالفعل، ثم قام ببعض عمليات التطعيم في مدينة دبي. وتلتها رسالة من الشيخ سعيد بن مكتوم حاكم دبي إلى المعتمد البريطاني في البحرين يشكره فيها على إرسال الطبيب ومعالجته الشيخ محمد بن أحمد بن دلوك. وفي ٢٦ يناير من العام نفسه أرسل خان صاحب بن حسين عماد يخبر المعتمد البريطاني في البحرين بوفاة حميد بن راشد بن أحمد بن سلطان (ابن حاكم بلدة دبا). ويعلمه أيضاً بأن حاكم إمارة دبي الشيخ سعيد بن مكتوم قد أمر بعدم عزل المرضى نظراً لسوء أوضاع الناس من الناحية المالية، وعدم قدرتهم على إنشاء منازل لعزل المرضى تقيهم البرد في الشتاء، ويطلب من السلطات البريطانية بإرسال المزيد من العلاج لأن المرض ينتشر والناس تطلب المزيد من العلاج ويرجو إرساله من كراتشي.

وفي رسالة أخرى بتاريخ ١ مارس من عام ١٩٣٦م من خان صاحب بن حسين عماد يبلغ المعتمد البريطاني في البحرين بعدد الإصابات من الجدري من تاريخ ٢٤ فبراير وحتى ١ مارس. ويعلمه بأن زيادة الإصابة في

رأس الخيمة تعود إلى أن الفاكسين الذي أحضر من البحرين غير ذي جدوى (أي صلاحيته منتهية).

وفي وثيقة أخرى يتضح أن الدكتور محمد بن سلمان ستور الذي قدم من البحرين للقيام بعملية التطعيم قد أمضى في هذه المهمة قرابة ثلاثة أشهر ونصف، وأنه يتقاضى عن كل شهر مائة درهم، ومن ثم فإن جملة ما سيتقاضاه في هذه المهمة يبلغ ثلاثمائة وخمسين درهماً. وهو مبلغ متواضع إلى حد ما مقارنة بارتفاع الدخول ومستوى المعيشة بالنسبة لهذه الأيام. ولكنه يعد مبلغاً مجزياً في ذلك الوقت ويتضمن دلالة على مستوى معيشة الأفراد وتكلفة الخدمات الطبية آنذاك.

وجاء في رسالة مؤرخة في ١٤ / ٥ / ١٩٣٦م من المقيم السياسي البريطاني في بوشهر إلى المعتمد السياسي في البحرين تشير إلى أن الساحل المتصالح خال من الوباء ولا داعي لإرسال التقرير الأسبوعي حول حالات الإصابة أو الشفاء والوفيات من وباء الجدري.

وفي رسالة مؤرخة في ٢٣مايو من عام ١٩٣٦م من المقيم السياسي في الشارقة إلى المعتمد السياسي البريطاني في البحرين يبلغه بأنه قد تم اكتشاف ١٤ حالة في الأسبوعين الأخيرين ٣ منها من رأس الخيمة و١١ حالة من قريتي عربي وشمل، ولم تكن هناك وفيات، ولم تظهر حالات جديدة، وقد طلب حاكم رأس الخيمة إعطاءه فاكسين يحتفظ به لحين اللزوم. وبعد فترة أصبح المعتمد البريطاني في البحرين يعتمد على أبناء المنطقة الذين تم تدريبهم للقيام بعمليات التطعيم فيها.[1]

رواية من الجزيرة العربية

وسنة الجدري في الجزيرة العربية كانت في عام ١٣٥٨هـ، وقد وصفها أحد كبار السن الذين عايشوها قائلا: «إنه كان ثالث أشقائه الذكور، وكان له ثلاث شقيقات، وقد اصاب الجدري بلدتنا فمات الكثير وخاصة الاطفال وتشوه البعض وعمى من عمي، ولقد أصبت أنا وإحدى شقيقاتي، ومات شقيقاي بسبب هذا المرض، وقامت على تمريضنا والدتي رحمها الله، وكان العلاج هو حفرة تحفر وتوضع فيها الجلة على جمرات نار فتدخن فيعرضون أجسامنا لهذا الدخان، وكان الهدف من ذلك هو تجفيف البثور المليئة بالصديد، فإذا تقشرت قاموا بدهنها بالسمن لتخفيف التقرحات، ومازلت أذكر تحذير أهلنا بعدم حك البثور حتى لانموت، وربما تحسن الشخص نوعاً ما ثم ينتكس ويغلب عليه المرض وربما يموت فيسمونها (رمحة).

قصة وقصيدة

أصيب الشاعر بطيحان بن مبارك العضياني بمرض الجدري (أو العقر كما كانوا يسمونه قديماً) فابتعد عنه أهله وذووه مسافة ليست بالبعيدة خوفاً من انتقال العدوى إليهم، وتركوه في معزل لايأتونه إلا بالطعام والشراب حتى عافاه الله تعالى بعد أن قاسى من المرض شهراً كاملاً، وفي مرضه كان ابن أخيه فالح بن هضيبان يأتيه بحليب المغاتير، وبعد الشفاء أسند اليه بطيحان هذه الابيات:

يافالح العقر اختفى قبل الادوار
تعال هرجني يوم انك عجيبي
ياجعل عمرك ماتجي فيه الاشرار
ياواحد جاني بطاسة حليبي
جاني بها فالح من العرب الابكار
ومصلحات في شعيب عشيبي
قدامها صالح بدا راس مجدار
معه أم خمس اللي تجري الرعيبي
شريتها بالسلم مانيب مكار
وهوه عشقها والنصيب النصيبي
شريتها من الدهاسي ورا الدار
مصقلة وموقلة للبيبي

حكاية شعبية:

ويورد أحمد شوحات في كتابه (ديوان عبدالله الفاضل وقصة حياته) قصة حدثت في القرن الثاني عشر الهجري حيث حط مرض الجدري في ربوع (العلا) الواقعة بين تدمر وحمص وحماه، وانتشر فيهم فمات من مات وتشوه من تشوه وبقي من لم يصب بأذى، وشاء الله أن يصاب شيخ القبيلة بهذا الجدري وراحت حبيبات الجدري تغزو جسمه ورأسه وتشوه وجهه، وسلمت عيناه من تلك الحبيبات، اجتمع وجهاء القبيلة وقرروا مغادرة العلا الى مكان آخر، وأن يتركوا شيخهم في خيمة لوحده، فلما هموا بالرحيل نحروا جزوراً أمام الخيمة وربطوا كلبه «شير» بجانبه ليأكل من اللحم ويحمي صاحبه من الوحوش، ووضعوا له داخل الخيمة شيئاً من طعام وشراب، فلما التفت إذا بقومه يتجهون غربا تاركين مرابعهم مبتعدين عن شيخهم الذي أجال نظرة فيما حوله فلم ير إلا الأثافي ورمادا تذروه الرياح، وبقايا أوتاد منسية، فما كان منه إلا أن قال موجهاً كلامه إلى كلبة الوفي «شير»:

هلك شالوا علامك حول ياشير
وخلوا لك عظام الجزر ياشير
يالو تبكي بكل الدمع ياشير
هلك شالوا حمص وحماه

بقي الشيخ في خيمته أياما حتى قيض الله له جماعة

عابرة سبيل، نزلت امرأة عجوز كانت مع الركب واقتربت من الخيمة فوجدته طريحاً فاشفقت عليه وطلبت من أهلها البقاء عنده حتى يشفى أو يموت، وقامت هذه العجوز بتمريضه وعلاجه في حين كان الآخرون يتنحون بعيداً خوفاً من العدوى، استمرت العجوز في رعايته وخدمته حتى شفي من مرضه، فوهب لهذه المرأة الخيمة ومافيها التي لايملك شيئا غيرها، ولكنه بعد ذلك لم يبحث عن قومه، ورحل مغاضبا لهم، وأخذ يردد أشعاره المعاتبة لقومه وهي من نوع العتابا الذي يغنى على الربابة في تلك النواحي منها:

هلي شالوا بليل وما علموني
خلوني شبيه المعلموني
تمنيتك يروحي معلموني
معاهم لاصميل ولازهاب

مأساة المريض ومعاناة الاهل

وهذه الشاعرة هداية العطاوية أصيب زوجها مشحن بالجدري وهو مبعد عنهم على مسافة معقولة، وعنده شخص مأجور على العناية به، وكانوا إذا شدوا يسير به على بعد عنهم خوفاً من العدوى فقالت تخاطب ابنها جديع:

ياالله عسى المجدور في نو خيره
واللي جرى له مايجي ذخر الاجواد
ياجديع ليتني ما اتعوض بغيره
لاشفت حاله جاني الدمع وراد
جانا مع الجره يدرج بعيره
الا قرب زدنا ورا البعد بابعاد
ارجي وترجاه الرباع النظيرة
لاقنعوا بغث المعاصير الاذواد
ياعنك مالد النظر للقصيرة
ولا شال مشعابه على الربع هداد
له هدة والقفش مثل المطيرة
يوم الهزيمة حبلها صار منقاد
ماقط يوم شفت منه النكيرة
ولاهوب مسبوع بخيل على الزاد

ولكن زوجها مات من اثر هذا المرض (الجدري) فهز هذا الحدث مشاعرها لترثيه بأبيات صادقة هي من نوادر القصيد المعبرة عن مأساتها في زوجها حيث قالت:

قلبي كما شيهانة بيضها فقش
المح راح ولابقي الا قفوشه
واصاحبي صيده دقاق المها العكش
وله عادة في كل ليل يحوشه
والله يالولا الدرب من دونهم عفش
ودرب الخلا ماينوطي في عفوشه
لافز فزة واحدة موحي وقش
يخاف من مخلاب شي ينوشه

وهنا مشاعر أب شاعر نحو ابنه المصاب بهذا المرض، فالشاعر ناصر الشغار قال في ابنه محمد عندما أصيب بالجدري وتركوه في نفي وذهب لزيارته:

ياشعيل وين اتلي نجوم الربيعي
اللي لهم كز المجوخ ولاعة
شيوخ درجهم بالمعزة رفيعي
عزي لمن مثلي وهم له بضاعة
على نفي ياشعيل خلي وضيعي
حطوه بين المقبرة والزراعة
حطوه في حزم طويل رفيعي
شرق عن البطحاء بهاك الرفاعة
ان زعزعوا رفعة وجوزا جميعي
الخيل ماتاخذ بهم ربع ساعة
تبكيه صفرا عند اهلها طليعي
وتنخاه راعية القعود الزعاعة

وفي أبيات للشاعر نومان السريحي العنزي قالها بعد أن أصابه الجدري وأشرف على الهلاك، يوصي فيها أخاه ويذكر زوال الدنيا، والقصيدة تتجاوز الاربعين بيتاً ومنها:

دنيا كفانا الله من شر جورها
شفنا بها من الخير والاشرار
كنت اعفا من شرد الصيد بالفلا
واليوم جسمي بالمرض منهار
اقفوا وخلوني خلاوي بصيرة
وحطوا هميد الرمث تقل جدار
جودوا زهابي وثنوا رحولي
وارجي الكريم الواحد القهار
والحمد لله يوم ربي فزع لي
الكيف طاب وزالت الاخطار
وصلوا على خير البرايا محمد
اعداد ماهلت حقوق امطار[٢] ■

المصادر:

(١) شبكة الرحال الإماراتية:
p://www.uaezayed.com/uae67/12.htm
htt

(٢) -11-2002/Mainpage/Thkafa_2869.php
http://www.alriyadh.com/Contents/21

قصة قصيرة للأطفال

الجمل الحزين

■ مريم الغفلي

ظل راشد يتحرك في غرفته يفكر فيما يمكن أن يفعله.. فالوقت طويل ومر القليل وبقي الكثير، فبعد أن صلى الفجر أخذ يقرأ في أحد الكتب محاولاً أن يستفيد من الوقت حتى تحين الساعة الخامسة عصراً التي وعده والده بأن يصحبهم وقتها إلى المهرجان الترفيهي السنوي عند الحديقة الكبيرة.. شعر بسعادة لأن الوقت يقترب.. والمهرجان كان في العام الماضي في غاية الروعة والجمال وقد استمتع به كثيراً هو وشقيقته عوشة، صحيح أنه فاته أن يركب الجمل نظراً للزحام الشديد، لكنه هذه المرة مُصرّ على أن يركبه ويستمتع بركوبه الذي هو أمنية له منذ فترة.. فكثيراً ما حدثه والده عنه.. وعن صبره وقوته.. وكيف أنهم كانوا في الماضي يستخدمونه في نقل أمتعتهم من مكان إلى مكان مهما كان وزنها، يسير في الصحراء ويتحمل الجوع والعطش مسافات طويلة قد تصل إلى أيام دون أن يتعب أو يغضب، يرضى بقليل من الأكل وجرعات من الماء ويواصل السير، ومن الناقة كانوا يشربون حليبها المغذي اللذيذ، لقد حكى له والده كثيراً عن فوائد الجمل التي لا تحصى ولا تعد.. وكيف كانوا يرتبطون به.. فقد كان مصدر قدرتهم وقوتهم وفخرهم، واليوم يريد أن يستمتع بركوبه.. ويتمنى أن تشاركه أخته عوشة هذه المتعة.

نظر راشد عبر النافذة وكأنه يتمنى أن يجر الشمس ناحية المغيب، فوالده وعده.. وهو دائما صادق الوعد ولا يخلفه أبداً.. تذكر ذلك اليوم الذي ذهب فيه مع الأسرة إلى أحد المحلات التجارية الكبيرة لشراء ملابس العيد.. وهناك لاحظ أن والده لا يريد أن يتكلم ولا يحب أن يتدخل في عملية الشراء تاركاً للوالدة هذه المهمة على غير العادة.. فهو دائما يمازحهم ويختار لهم ملابس كبيرة جداً عن قياساتهم كنوع من الداعبة، ويكون في غاية السرور عندما ينتهون من الشراء، ويحرص على أن يهنئهم ويبارك لهم الملابس الجديدة، ورغم أنه كرر تلك العبارة كثيرا، إلا أنه حريص على أن يقولها لهم كل مرة وأن يرددوها معه: «الحمد لله الذي رزقنيه من غير حول مني ولا قوة».. ويقول لهم إنه دعاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لابد أن يحفظوه ويقولوه في كل مرة يشترون فيها أشياء جديدة حتى يضع الله فيها البركة.. وتذكر راشد أنه سأل والدته عن سبب صمت والده فقالت له: إنه كان مشغولا اليوم جدا.. لكنه حرص على أن يفي بوعده معكم.. رغم انشغاله.

وجاء الموعد بعد شوق وطول انتظار.. كان راشد أول من قفز إلى السيارة وهو يطالب أخته عوشة أن تسرع.. كان يصفق بيديه فرحا.. ضحك الوالد وهو يجلس أمام مقود السيارة في انتظار أن ينتهي الجميع من أخذ أماكنهم وربط أحزمة الأمان.. قال الوالد لراشد: ها أنا أفي بوعدي معكم وسنذهب بإذن الله للمهرجان.. أتدري لماذا؟ ابتسم راشد.. فهو يدري لماذا.. لكن الوالد تابع: لقد أوفيتم بوعدكم معي وراجعتم دروسكم على أحسن ما يكون.. ولابد أن أوفي بوعدي معكم دون انتظار نتيجة الامتحانات لأنكم بذلتم الجهد.. والباقي على الله.

قال راشد: ولكن يا والدي أنت وعدتنا وعداً آخر.. هل تذكره؟ قال الوالد: متى؟ رد راشد: في العام الماضي.. وهنا تدخلت عوشة قائلة: نعم يا والدي فقد وعدتنا أن يكون ركوب الجمل أول شيء نفعله عند وصولنا إلى المهرجان.. لقد تجولنا في العام الماضي أولاً وتركنا

ركوب الجمل كآخر شيء ففاتنا وانتهى المهرجان دون أن نركبه.. لذلك قلت: أعدكم في العام القادم بإذن الله أن يكون ركوب الجمل أول شيء عند قدومنا للمهرجان.. أكد راشد على ذلك.. وضحك والده قائلا: أذكر ذلك فعلا.. وبإذن الله سنذهب لركوب الجمل مباشرة.. هلل راشد وصفق بيديه كثيرا.. وقالت عوشة: وأنا أريد أن أركب الجمل.. أريد أن أركب الجمل.. قال الوالد: ألن تخافي منه؟.. قالت عوشة مؤكدة: لن أخاف.. فهو حيوان لا يؤذي.. وكيف أخاف وأنا أرى الأطفال يلاعبونه دون أن يؤذيهم.

عند الحديقة.. فتح راشد باب السيارة وقفز منها بسرعة كادت أن تسقطه على الأرض.. نظر إليه الوالد معاتبا: كيف تقفز من السيارة وهي لم تكد تتوقف بعد؟ لماذا هذا الاستعجال؟ ماذا لو أصبت الآن لا قدر الله.. كنت ستضيع على نفسك فرصة ركوب الجمل وستضيع فرحتنا بالمهرجان.. العجلة من الندامة ياولدي.. والصبر وعدم الاستعجال يحققان لك ما تريد.

شعر راشد بالخجل من نفسه.. وشعر أنه فعلا أخطأ.. وعاتب نفسه قائلا: كيف تقفز من السيارة وهي لم تكد تتوقف؟ شعر بحرج موقفه فاعتذر لوالده قائلا: فرحتي بالمهرجان وركوب الجمل جعلتني استعجل.. فقال له والده: لو لا قدر الله حدث لك شيء ماذا سيكون موقفك الآن وماذا سينفع الاستعجال؟

وكأن راشد يريد أن يؤكد عدم استعجاله.. سار خلف والده ووالدته وأخته عوشة التي أمسكت بيد والدها.. اتجهوا جميعا ناحية مكان ركوب الجمل.. وقلب راشد يكاد يقفز من الفرح والابتسامة لا تفارق شفتيه.. وهناك كانت الصدمة.

صفوف طويلة تنتظر دورها في ركوب الجمل.. نظر إليه والده.. قال راشد: سأنتظر دوري أريد أن أركب الجمل الذي حدثتني عنه كثيرا وعن متعة ركوبه.. وفعلا وقف الأب مع راشد وعوشة ينتظرون دورهم في ركوب الجمل الذي كان يذهب ويعود.. وأطفال تركب وأطفال تنزل.. والجمل صابر كعادته.. مطيع لأوامر صاحبه.. لكن راشد لاحظ أن الجمل يقوم بصعوبة ويبرك على الأرض ببطء وعناء.. فأراد أن يخفف عنه.. اقترب منه ليداعبه وليقول له إنه ينتظر دوره.. وأنه سيكون سعيدا بركوبه.. ويتمنى من الجمل أن يكون سعيداً هو الآخر.. لكن راشد رأى دمعة في عين الجمل.. ذهل راشد.. سأل الجمل: هل أنت حزين.. لماذا تبكي؟ ما بك؟ التفت إليه الجمل والكلمات لا تكاد تخرج من فمه.. قال بصوت متحشرج فيه عتاب أكثر من التساؤل ودموعه تجري: أتسألني لماذا أبكي؟ ألا ترى ما أنا فيه؟! سكت راشد ولم يجب.. فقد احتار ماذا يقول؟ قال الجمل: ألا ترى يا صاحبي كيف أصبحت مهاناً بعد أن كنت ملك الصحراء وسفينتها؟ ألا ترى هذه الأحمال التي يضعونها على ظهري بحجة الزينة بعد ذلك الشداد الذي كنت أعتز به وأفرح.. هل ترى تلك الزينة التي يعلقونها حول رقبتي ويلفونها حول أقدامي فشوهت هيبتي وقللت من احترامي.. ألا ترى يا صاحبي.. ثم سكت الجمل من فرط التأثر وكأنه يريد أن يهرب من الموقف.. قام ليكمل دورة جديدة بأولاد جدد ركبوا على ظهره وهم يتصايحون من الفرح.. بينما عيونه تدمع من الحزن.

وقف راشد متأملا.. فعلا.. الجمل كان محل احترام واعتزاز.. وهو بهذه الحالة اليوم مهان وقد انحط قدره.. لكن ماذا يفعل؟.. احتار راشد ماذا يقول وماذا يفعل؟.. فهو في شوق لركوب الجمل والتمتع بخطواته المتأرجحة يمر بها بين الناس.. والراكب يراهم من عليائه.. يغتاظون ويتمنون أن يكونوا مكانه.. لكن الجمل حزين.. ويؤدي واجبه وهو غير راض عنه.. بل وهو يتألم.. عاد الجمل من دورته .. وبرك على الأرض يترقب الراكب الجديد.. همس لراشد: ألا ترى يا صاحبي كيف أصبحت ألعوبة للأطفال.. فكيف لا تريدني أن أكون حزينا وقد أصبحت اليوم مهاناً بين من يحبوني.. كيف لا أحزن وقد أصبحت مطية لمن لا يقدرني ولا يعرف قيمتي.. كيف لا أحزن وقد أصبحت الجمال ركوبة للفسحة والتسكع بين أشجار الحديقة وطرقاتها.. بعد أن كانت يوما تقاتل مع المقاتلين.. وتحمل زاد المسافرين.. وكانوا يتخذون من ألبانها غذاء للجائعين.. ومن أوبارها بيوتاً للساكنين.

انتبه راشد من حديثه مع الجمل على يد والده تشده وتساعده للركوب على الجمل.. فقد جاء دوره بعد طول انتظار.. توقف راشد.. نظر إلى والده قائلا: سامحني يا أبي.. فلن أركب الجمل.. نظر إليه والده بدهشة: ماذا تقول؟ قال راشد: نعم ياوالدي لن أركب الجمل.. وهل لك أن تعطيني رقم هاتف اتحاد سباقات الهجن.. استغرب الوالد وقال له: رقم هاتف اتحاد الهجن؟ لماذا؟ قال راشد: لأخبرهم بما قاله لي الجمل الحزين.

تبسم الوالد ومسح بيده على رأس راشد وقال: أشكرك على حرصك على التراث وهيا بنا نتصل معاً باتحاد سباقات الهجن.■

صدى الأيام

محمد رجب السامرائي

بلاد الأندلس

تقع بلاد الأندلس في منطقة معتدلة المناخ من نصف الكرة الشمالي، وهي تقع بين بحرين وتتوسط قارتي (أوروبا وأفريقيا) وقد جعلها موقعها الجغرافي ملتقى الشعوب القديمة على مر العصور، وكانت المنطقة التي يطلق عليها اسم الأندلس تتقلص وتنبسط تبعاً لتقلص نفوذ العرب وانبساطه. وتضم الأندلس اليوم ثماني مقاطعات جنوبية هي: قرطبة، أشبيلية، غرناطة، ولبا، قادس، جيان، مالقة والمرية.

أما سبب التسمية فليس واضحاً الوضوح كله والراجح أنه تحريف للفظة «فندلس» وهي اسم لقبيلة «الفندال» VANDAL الجرمانية. وقد غزا هذا الشعب أوروبا الغربية في القرن الخامس للميلاد، فنهب روما واستقر فترة جنوبي إسبانيا، ثم انتقل القسم الأكبر منه إلى أفريقيا.

وتعرضت الأندلس على مر العصور إلى غزوات متعددة من قبل أقوام من «السلتين CELTES» والفينيقيين والإغريق ساهمت كل منها في مطلع القرن الثامن الميلادي.

في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك كان القائد موسى بن نصير والياً على المغرب، فأخضع البربر لسيطرته وأطل على شواطئ الأطلسي وتربع قبالة الأندلس. فاستأذن موسى بن نصير الخليفة الوليد بن عبد الملك بدخول الأندلس لفتحها أمام العرب، فأرسل أولاً رجلاً من البربر يدعى طريق بن ملوك في ٥٠٠ مقاتل، فنزل ساحل الأندلس في مكان يعرف اليوم باسم جزيرة طريف ورجع منها ظافراً. عند ذلك قام موسى بن نصير بإرسال القائد طارق بن زياد على رأس اثني عشر ألف مقاتل معظمهم من البربر لفتح الأندلس سنة ٧١١هـ.

الإنسان في الفضاء

صار الطيران في الفضاء أمراً معقولاً مثل كل الأمور العادية، وذلك بعد تحقيق فكرة ارتياد الفضاء بصاروخ.

إن أول صاروخ كبير حقيقي كان قذيفة (A-4) الألماني، وتسمى غالباً (ج-٧) من الحرب العالمية الثانية، وفي سنة ١٩٤٥م استولى الروس على بعض من هذه القذائف وطوروها صنعاً.

ثم قرر المهندسون الروس بكل شجاعة أن يصنعوا صاروخاً عملاقاً فيه ٣٢ آلة مختلفة وكان أكبر كثيراً مما صنع من قبل، فوضعوا في سنة ١٩٥٧م أول قمر اصطناعي سبوتنك في مدار حول الأرض.

يحاضر على حماره

هل تصدق أن آمونيوس دارماتيكوس (٣١٩-٣٩٦م) أستاذ الصرف والنحو اليوناني في جامعة الاسكندرية كان يأتي إلى المدرسة يومياً على ظهر حماره فيدخله إلى قاعة الدرس ويجلسه بين طلابه فيصغى مثلهم إلى صوت صاحبه وهو يلقي محاضراته عليهم؟

معركة القادسية

حاول الفرس وللمرة الأخيرة أن يجمعوا شتاتهم ويوحدوا صفوفهم آملين أن

تبقى امبراطوريتهم على قيد الحياة، وساعد على ذلك أن تولى حكمهم يزدجرد صغير كسرى الذي لم يكن يعي أن زوال دولته قد حان.

ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي تمسك بأسس الإسلام والتزم بالشورى أخذ يستفتي الناس في أمر قتال الفرس، فساندوه، وأخذ المسلمون من كافة أنحاء الجزيرة العربية يجتمعون حتى بلغ عددهم حوالى (٣٠٠٠٠) مقاتل.

وافق عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أن يتولى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قيادة جيش المسلمين فتحرك المسلمون تجاه فارس، وخرجوا لمقابلتهم وكان عددهم يماثل أربعة أضعاف جيش المسلمين.

التقى الجيشان، ودارت معركة كبرى استمرت ثلاثة أيام انتهت بانتصار المسلمين وهزيمة الفرس ومقتل قائد جيشهم رستم.. وتعد هذه المعركة إحدى أهم المعارك الكبرى في تاريخ الفتوحات الإسلامية، والمعركة التي قضت تقريباً على الامبراطورية الفارسية.

المراجع المعتمدة

١- كاميليا سلوم عكاوي: كشكول المعارف والعلوم، دار الحرف العربي، ط١ بيروت، ٢٠٠٠م.

٢- محمد العايدي: موسوعة بنك المعلومات «١-٢»، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط١، عمّان، الأردن، ٢٠٠٢م.

٣- حمدو طماس: أهم الأحداث التاريخية، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ٢٠٠٣م.

٤- سمير شيخاني: التاريخ الصغير، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣م.

٥- خليل البدوي: صدق أو لا تصدق، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠٠٢م.

محاضر لطالب واحد

هل تصدق أن أريكوس أوريفيليوس (١٦٤٣-١٧٠٢م) أستاذ القانون في جامعة أوبسالا السويدية كان يحاضر يومياً في تلك الجامعة ولكن تلك السنوات الثماني عشرة التي قضاها هناك لم يكن يحضر صفّه إلا طالب واحد.

حبر الأقلام

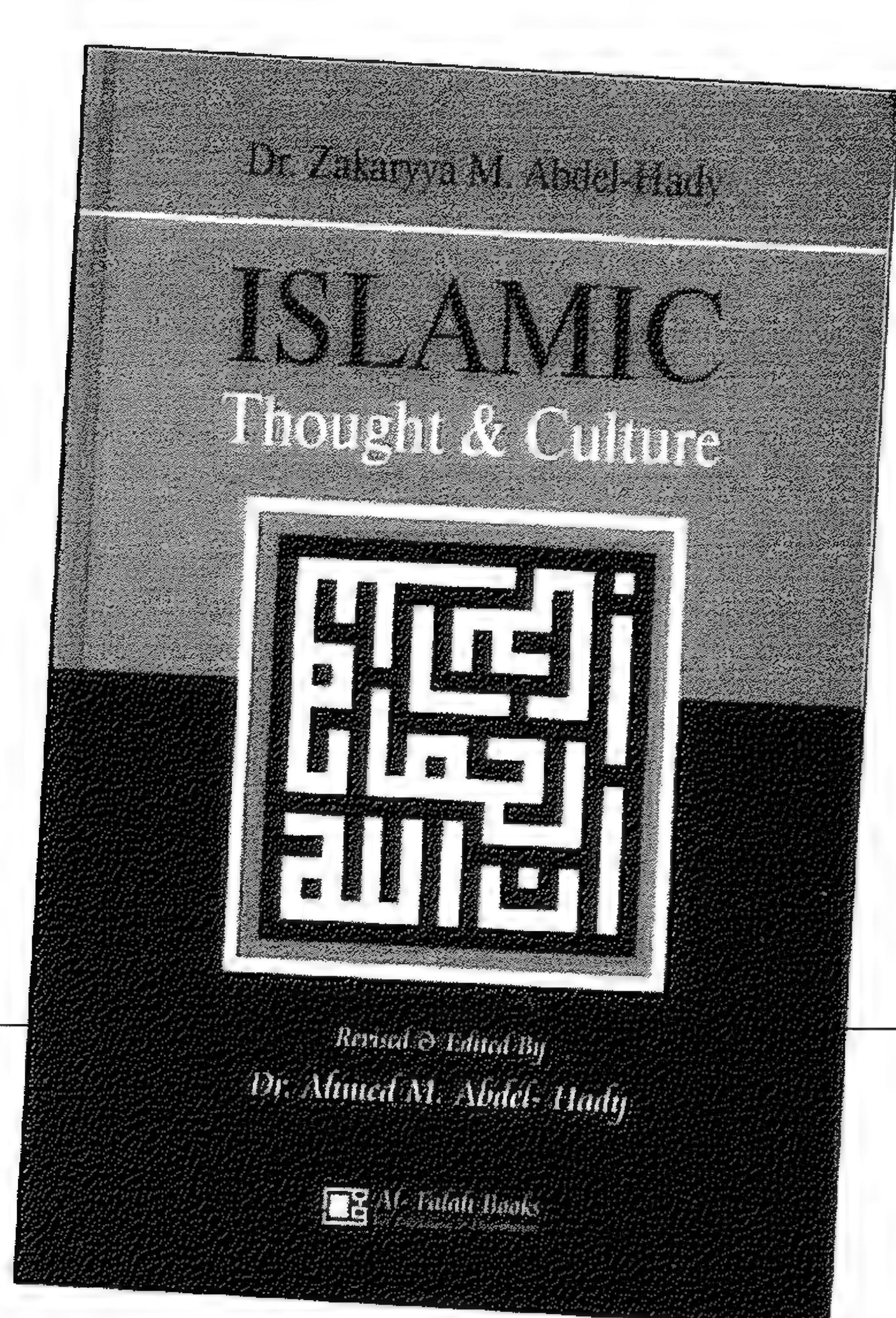
تحضر معظم أنواع الحبر الأسود من كبريتات الحديدوز وحامض التانيك، الموجود بكثرة في جوز العفص، ويتفاعل حامض التانيك مع مركب الحديدوز مكوناً مركباً أسود اللون. وقد تضاف أحياناً إلى الحبر بعض المواد الغروية مثل الصمغ العربي أو الجلاتين، إذ أن هذه المواد تبطئ عملية ترسيب الراسب الأسود، ومن الجائز إضافة محلول مادة حافظة لحفظه من التعفن. وتصنع حالياً أنواع جيدة من الحبر الأسود من مركبات مشتقة من الأنيلين. وقد أجريت محاولات عدة للحصول على حبر ثابت لا تسهل إزالته من الورق بعد الكتابة به. ويعد حبر المطابع من الأنواع الثابتة، إذ أن كربون السناج يدخل أساساً في تركيبه، والكربون لا يذوب في مختلف المذيبات ولا يمكن إزالته بغسله بالماء. ونظراً لأن نترات الفضة تختزل - في وجود مادة مختزلة مثل القماش - إلى راسب أسود من الفضة في وجود الضوء، لذلك أمكن الاستفادة من هذه الخاصية في تحضير بعض أنواع من الحبر.

حبة القمح لأصغر سمكة

أصغر سمكة هي الكوبيبود التي لا يزيد حجمها على حبة القمح الصغيرة. وأكبر سمكة هي حوت البال الأزرق الذي يزن حوالى ١٥٠ طناً، ويبلغ طوله حوالى ٥٠ متراً، يليه حيتان تتراوح أوزانها بين ١٥ و١٠٠ طناً.■



الفكر والثقافة الإسلامية



يتألف الكتاب من جزئين تناول الأول منهما أُسس ومبادىء الإسلام حيث عرض لمفهوم الثقافة والفكر الإسلامي، والتعريف بالإسلام كعقيدة وعبادة، ثم عرّج على مصادر التشريع وخصائص الإسلام. بينما عالج الجزء الآخر من الكتاب القضايا المُعاصرة التي تُؤثر بشكل أو بآخر على الفكر والثقافة الإسلامية نحو مفهوم الإنسان، ومكانة المرأة في الإسلام، وفهم ظاهرة العولمة وتأثيراتها، وظاهرة الإرهاب وموقف الإسلام منها، والإسلام وحماية البيئة، وختم الجزء بعرض بعض الشُبهات التي تُثار حول الإسلام الحنيف والرّد عليها.■

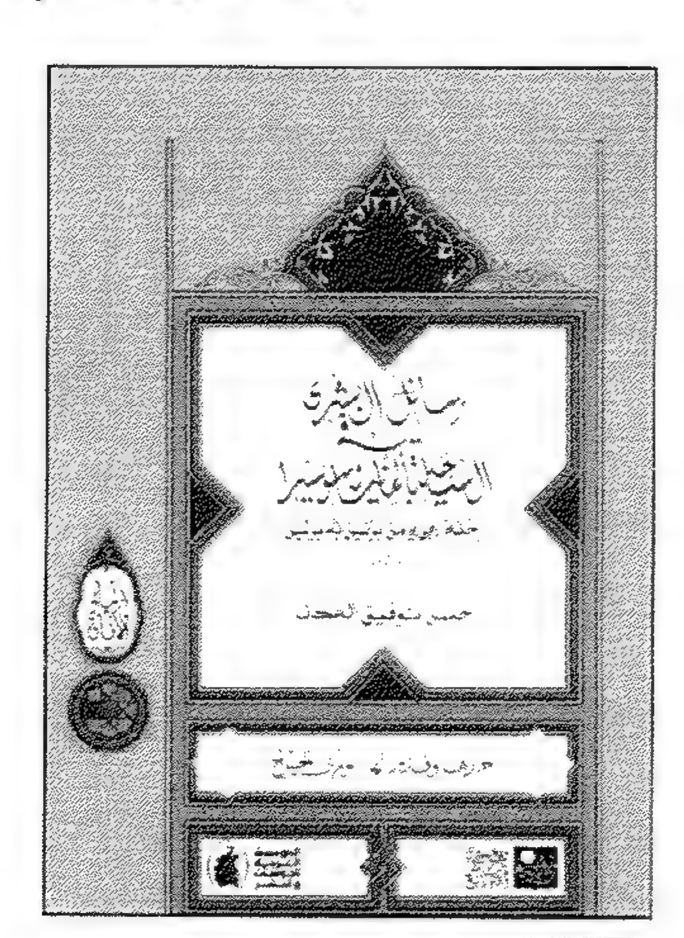
الناشر: مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع

الطبعة والسنة: الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م

الصفحات: ٣٠٤ صفحات من القطع الاعتيادي

العنوان: أبوظبي- دولة الإمارات العربية المتحدة

رسائل البشرى في السياحة بألمانيا وسويسرا



يُعَدّ كتاب رسائل البشرى في السياحة بألمانيا وسويسرا «رحلة عربي من برلين إلى برلين ١٨٨٩م» لمؤلفه حسن توفيق العدل أقدم كتاب مُستقل دوّنه عربيٌّ عن سياحتهِ في ألمانيا وسويسرا وجمع بين دفّتيهِ يوميات وانطباعات عن رحلة قام بها المؤلف في الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي.

وتُمثل يوميات العدل تطلعات نُخبة أملَت، بكثير من الرومانسية، في أن تستلهم حالة الغرب، وتحذو حذوَهُ في انتهاج سبيل العَصْرَنَة، للانتقال بمجتمعات الشرق من حالة التخلف، واللحاق بركْبِ المدنيّة الحديثة.

ويضم الكتاب -الرحلة- استهلالاً ومقدمة، ومسار الرحلة، وبِيْبَاجَة المؤلف، ثم الانطلاق من برلين، والعبور إلى سويسرا، والعودة إلى برلين. فضلاً عن وجود ملاحق وكشافات وفهارس لموضوعات الرحلة.■

المؤلف: حسن توفيق العدل

المحرر: نوري الجرّاح

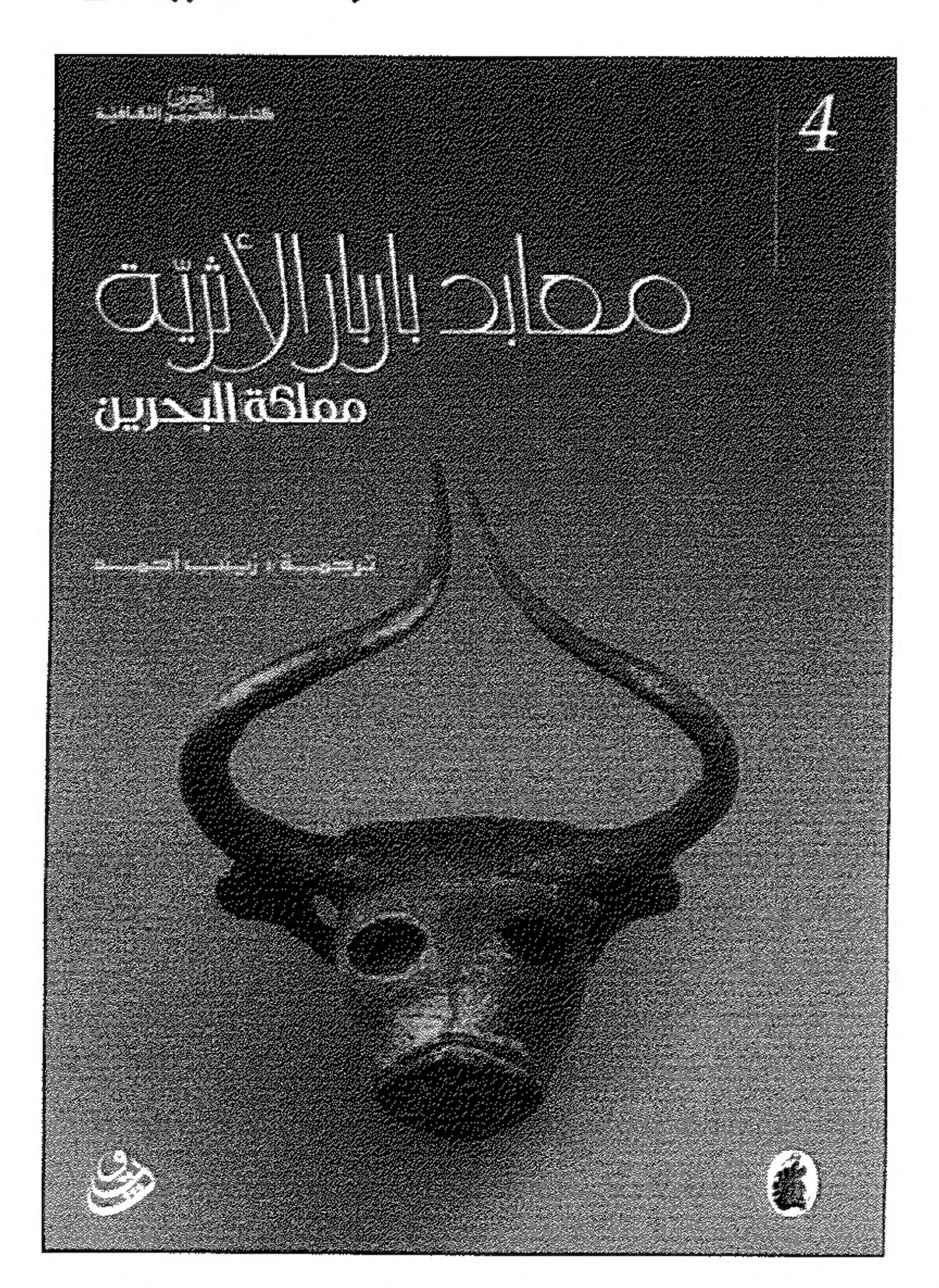
الناشر: دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي.

الطبعة والسنة: الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

الصفحات: ١٦٢ صفحة من القطع الاعتيادي

العنوان: ص.ب ٤٤٤٨٠، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، دولة الإمارات العربية المتحدة.

معابد باربار الأثرية في مملكة البحرين



تشمل المعابد الموجودة في باربار في مملكة البحرين الآثار المعمارية المُتبقية من العالم القديم والأكثر لفتاً للأنظار. إذ هي نتاج يعود بالكامل للألف الثاني والثالث قبل الميلاد من أرض دلمون التاريخية في البحرين.

وتضمن الكتاب المُترجم من الإنجليزية مقدمة ثم الحديث عن نشأة المعابد، وعنوان آخر تحت: مجيء إنكي، ودلمون، وعرض آثار باربار، وتحديد موقع المعبد، وجلجامش ودلمون، وأخيراً خاتمة الكتاب.■

المترجم: زينب أحمد

الناشر: وزارة الإعلام، الثقافة والتراث الوطني «كتاب البحرين الثقافية ٤»

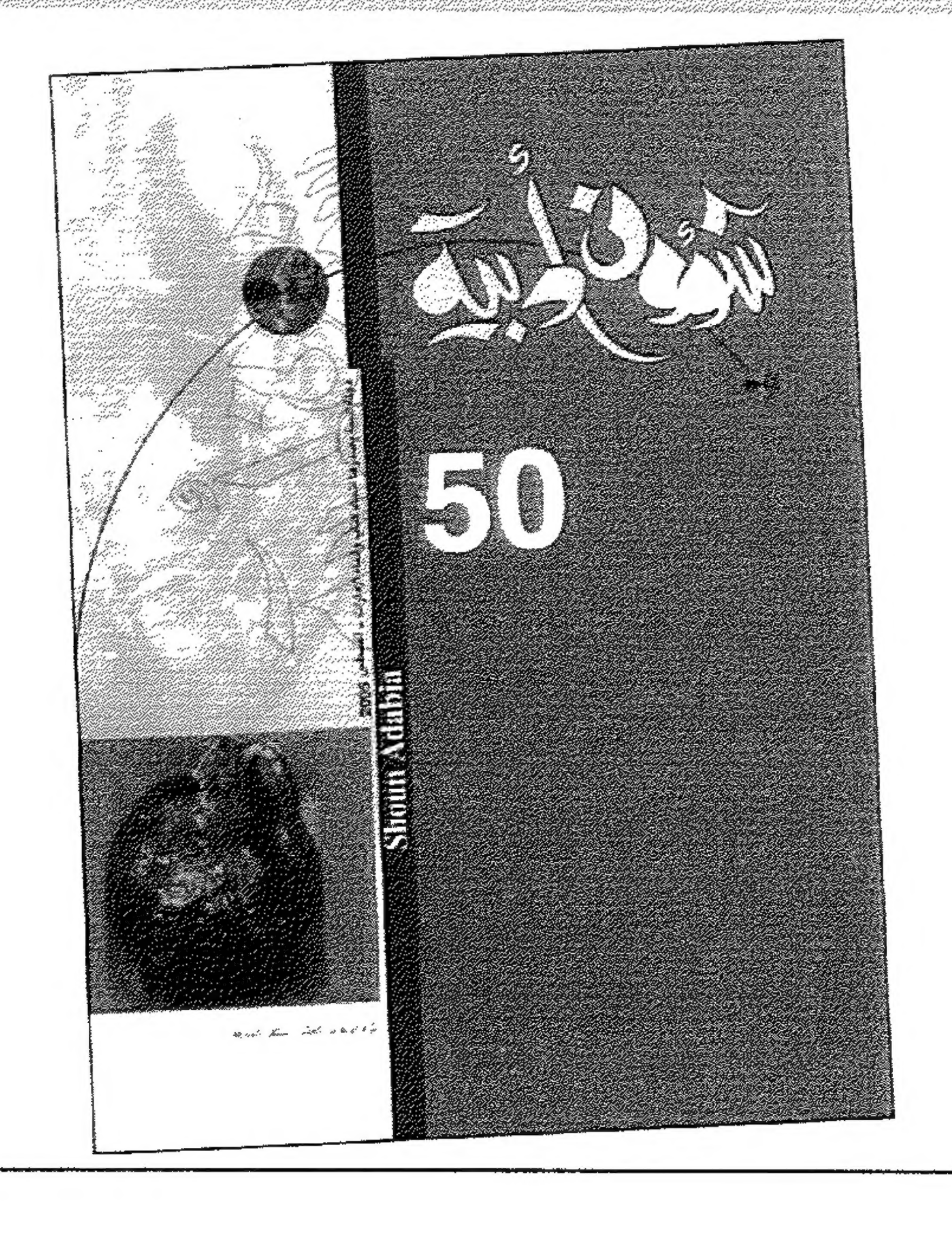
الطبعة والسنة: الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م

الصفحات: ٦٠ صفحة من القطع الاعتيادي

العنوان: وزارة الإعلام، والثقافة والتراث الوطني، مملكة البحرين

دوريات .. دوريات .. دوريات .. دوريات .. دوريات

شؤون أدبية



جاء العدد الخمسون من مجلة شؤون أدبية التي تصدر عن اتحاد كُتّاب وأدباء الإمارات متضمناً العديد من الموضوعات ضمن أبواب المجلة، فتضمن دراسات وبحوث أربع دراسات هي: الفرانكوفونية، اغترابنا أم طريقنا نحو العالمية، وقراءة في «إضاءة مُعتمة»، وأحمد بن ماجد، فنتازيا المسرح وإشكالية التأليف، وفن الأقصوصة عند بيرم التونسي. وأما ملف العدد فخُصص لشعر الماليالم، وعرضت أربعة موضوعات في باب شخصيات وأقلام، وأربع قصائد في أشعار ونصوص، وست قصص في باب قصص وتصاوير، فضلاً عن أبواب عبر الانترنت، وتعاريف وقراءات، وإبداعات واعدة، وأهم الأنشطة والفعاليات، وآخر الكلام.■

اسم الدورية: اسم الدورية: شؤون أدبية

الناشر: الناشر: اتحاد كُتّاب وأدباء الإمارات

العنوان: العنوان: ص.ب: ٢١٦٧، أبوظبي، دولة الإمارات العربية المتحدة

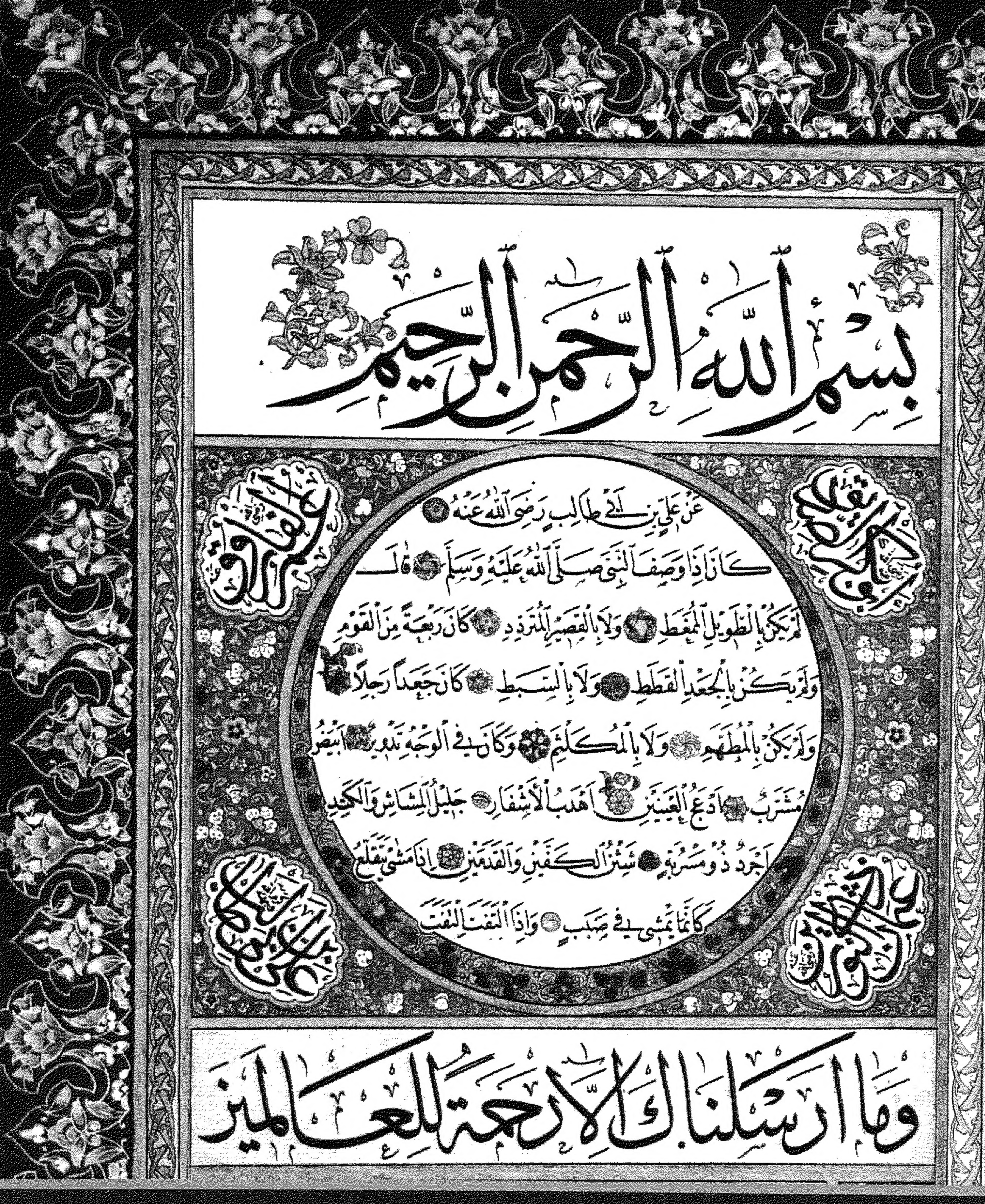
لأنه برئ.. أنقذته قدرة الله

«تسمع مني.. ولأنه برئ.. وشهم.. وشجاع.. وأعماله كلها كانت خير وفي الخير.. نجاه الله من الموت.. وعاش١٢٥ سنة كان فيها مثال للخير والشجاعة والمروءة والكرم».

هكذا بدأ عبد الله سيف بن يوله القمزي حديثه معنا وتابع معلقاً على ما نشرناه في العدد الماضي في زاوية سوالف بو راشد تحت عنوان: «ومن الحب ما قتل».. وهو يسرد السالفة قائلا: السالفة كانت تهيمة (اتهام) غير صحيح، الرجل سعيد بن حمد بن بالكديدا الفلاسي كان في طريقه من العين إلى أبوظبي هو وربيعه (صديقه) الذي كان خويه.. يعيشون مع بعضهم بعضا في سلام وأمان وصداقة ومودة.. هذا الكلام كان قبل حوالي ٧٠ إلى ٨٠ سنة مضت.. وجاء عليهم المغرب وهما في الطريق.. وتأخر سعيد ليريق الماء بينما كان صديقه يقود جمالهما التي تحمل «جوس» التمر.. والجوس ثقيلة لا يستطيع الرجل تحريكها بمفرده.. وحدث أن جفلت الجمال (اضطربت).. فسقطت الجوس على صديقه فمات في الحال.. «الله قضى عليه والدار خلا ما فيها صديق ولا عابر سبيل».. لم يجد بالكديدا بدا من «تيميم الريال» (لعدم وجود ماء) ثم يممه ناحية القبلة وحفر له حفرة ثم هال عليه التراب.. وتابع سيره ليصبح في أبوظبي.. وسار لأهل صديقه وأخبرهم بالسالفة كلها كما حدثت.. لكن أهله لم يقتنعوا وساروا إلى الحكومة التي أرسلت رجلين.. صادقين.. معروفين للجميع.. وفحصوا الجثة فلم يجدوا فيها أي شيء يثبت أن الرجل مات مقتولا كما يدعي أهله.. وتيقنوا أن قضاء الله قد نزل عليه.. وأخبروا الحكومة بذلك.. لكن أهل الرجل لم يقبلوا بهذا الرأي وأصروا على أن «الروح بالروح».. أي مطالبين بالقصاص.. الحكومة حاولت تسوية الموضوع فعرضت عليهم دية عشرة رجال.. لأن بالكديدا كان يساوى عشرة رجال وأكثر.. لكنهم رفضوا وأصروا على أن الروح بالروح.. فسلمتهم الحكومة بالكديدا ليقتصوا منه.. وتجمعت القبائل من كل مكان.. وأمام الجميع رماه أهل المتوفى وأخطأوه.. فظهر من بينهم.. كان قوياً وشجاعاً.. اختفي منهم في طرفة عين ولم يدركوه.. وعاش الرجل كما قلت لك ١٢٥ سنة.. وأما القصيدة التي منها هذه الأبيات فلم تنسب لأي شاعر معروف، فقد قيل إنها لرجل، وقيل إنها لامرأة:

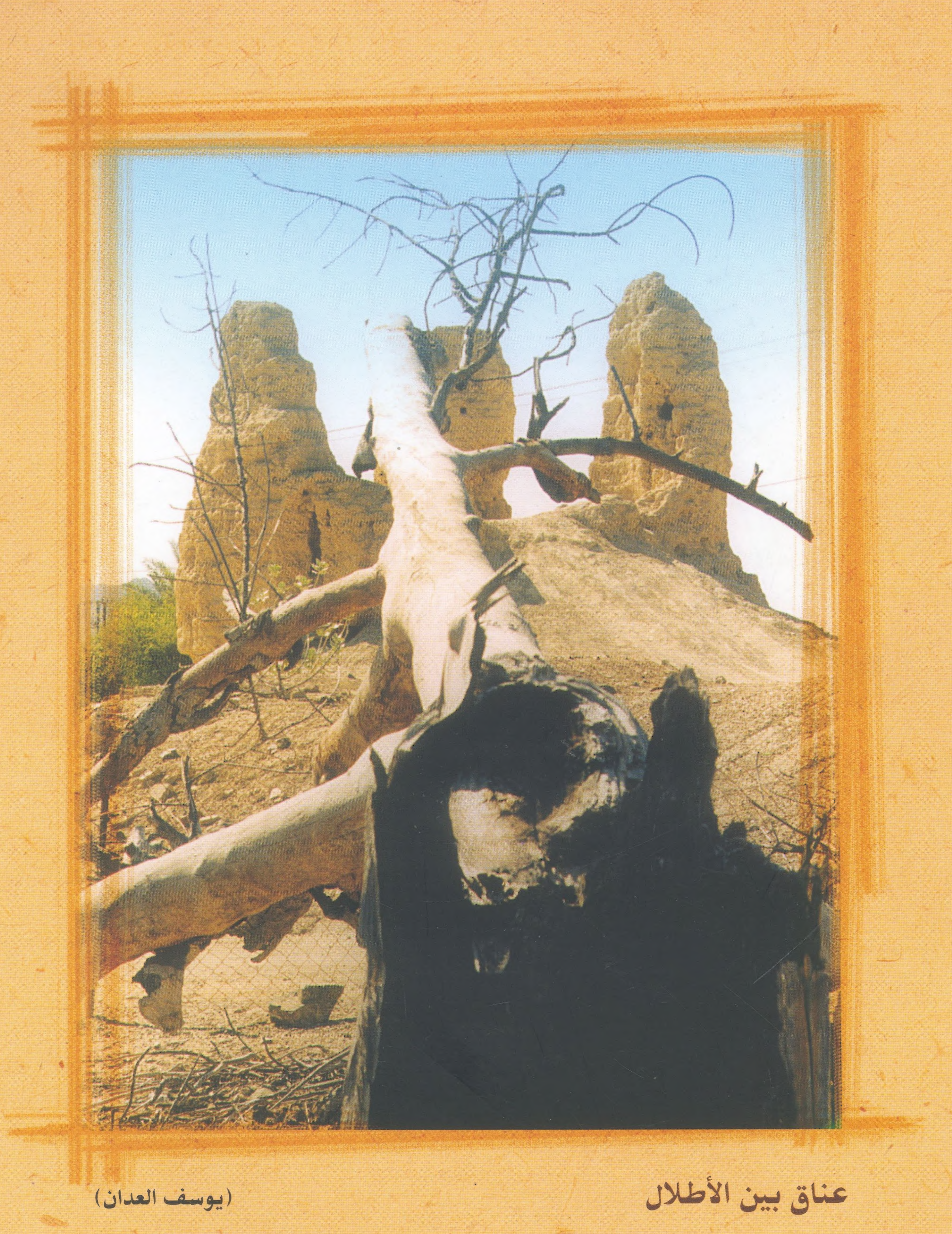
بالكديدا لا حرم شوفه
يعل بطنٍ يابه الجنّة
طار عنهم طيرة الصوفه
حضرت الأملاك شلنه
رد بمعة يصفق كفوفه
وافتشل بسلاحٍ يسنه

فالشاعر يشيد بأخلاق بالكديدا.. ويدعو له ولمن رباه أن يجعل الله مثواهما في الجنة لأن أباه أحسن تربيته من كرم ونخوة وشجاعة.. وحب للخير وكراهية للظلم.. ولأنه برئ.. نجاه الله فطار هارباً من أمام الرماه وكأنه صوفة حملتها الريح بعيداً.. أو كأن الملائكة جاءت وأخفته عن عيون الجميع.. فحماه الله من الموت.. وأكد براءته.■



اقرأ في العدد القادم:

- الحلية الشريفة .. فن الشمائل المحمدية
- تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب والأندلس
- الشعر في المولد النبوي
- الإعجاز التربوي في عصر النبوة
- ساحل القراصنة.. أكذوبة أشاعتها بريطانيا.. ثم صدقتها وروجتها
- قبسات من حياة مسلم بن الوليد
- أحداث صنعت تأريخا: «سنة الحريجة»
- التميز والإنسانية في العمارة العربية



عناق بين الأطلال

(يوسف العدان)

تراث